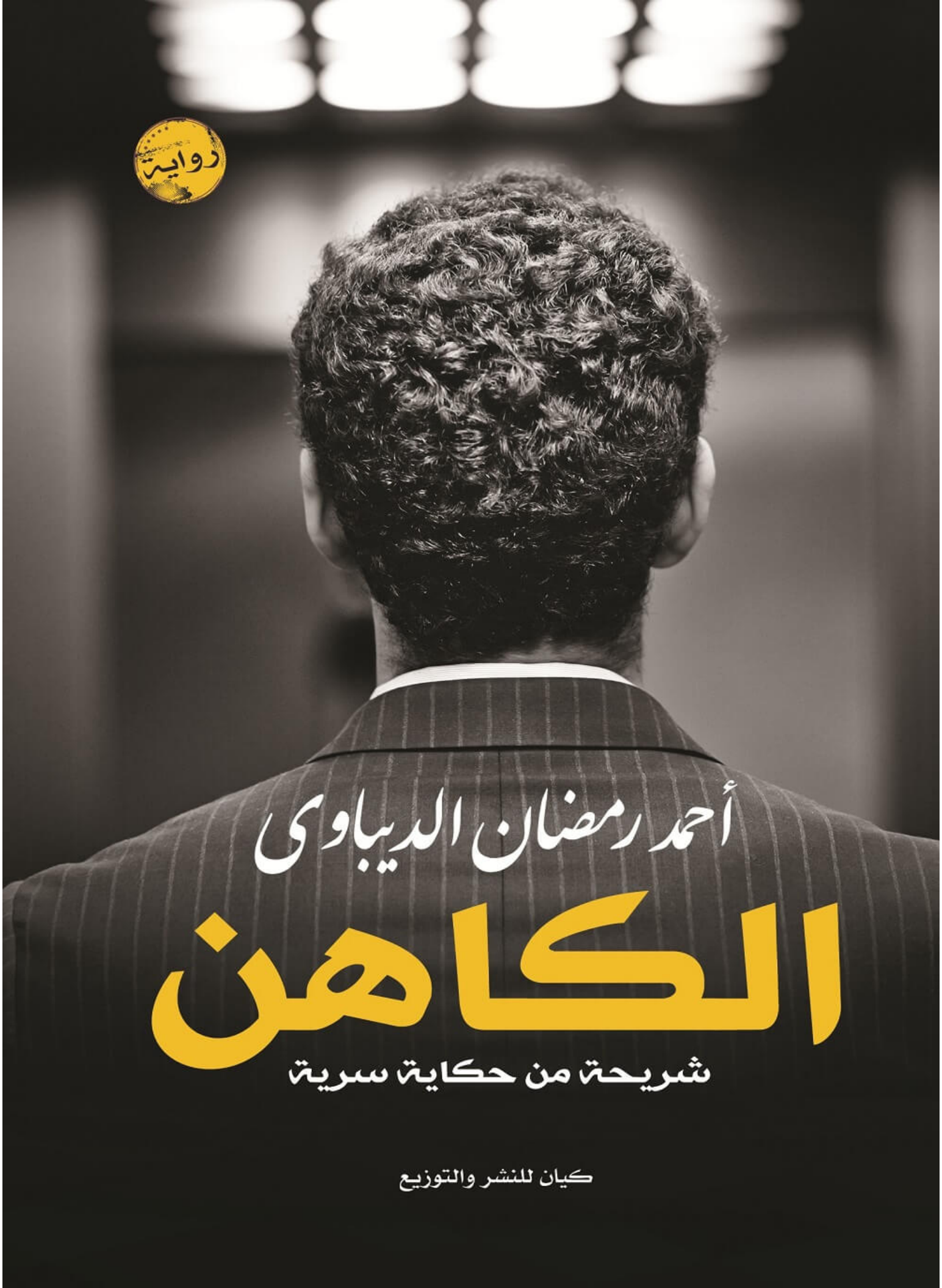
رواية
أحمد رمضان الدياوى
الكاهن
شريحة من حكاية سرية
كيان للنشر والتوزيع

الكاهن

أحمد رمضان الديباوي

رواية

شَريحَةٌ مِنْ حِكَايةٍ سِريَّـةٍ

اسم الكتاب : الكاهن

تأليف : أحمد رمضان الديباوى

تصميم الغلاف : أحمد مراد

رقم الإيداع : 4102\6987

الترقيم الدولي : 879-779-6736-65-4

*** * ***

إشراف عام :

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

© جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من المؤلف؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

دار كيان للنشر والتوزيع – 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو أم المصريين – الهرم

محمول: 01005248794 – 01001872290 – أرضي: 0235688678

www.kayanpublishing.com – info@kayanpublishing.com

إهـداء

إلى ثلاثةٍ كبار :

يحيى حقي ، نجيب محفوظ ، و خيري شلبي .

منديلك المشغول بالحرير

يستحي

وخوفك البريء

من لقائنا الصغير

لام .. وكنتِ في بداية الكلام

علامةَ استفهام ..

وقلتِ : لا أنام

وحرَّف الكُهَّانُ قصتي .. وقصتك

كأنما معالم السماحة التي

على عينيك معجزة

يا أيُّها الكُهَّان

يا صنَّاع هذا العالَم المليء بالكوارث

هـلا رأى بصيرُكُم فتاتي الجميلةُ ؟!

أبصرتُها الصباحَ

تعبر المحدودَ للمدى

وتعبر الجسورَ للشذى

ومنذُ أنْ تبسَّمتْ كأنَّما الشموس أشرقت

وقام ، من قبورنا ، الجمالُ

مـرَّتين !!

شعر : محمد حلمي حامد

إشارات

« استمتع بالأشياء الصغيرة ؛ فقد يأتي اليوم الذي تُدرك فيه أنها كانت الأشياء الكبيرة» .

(أبراهام لنكولن ١٨٠٥ – ١٨٦٥)

« عندما تزيدُ في شحْذِ الحدّ ، تعمل في النهاية على انثلامه» .

(المُعلِّم الصيني لاو – تسو : بين أواسط القرن السادس و أواسط القرن الخامس ق . م)

« ليس ممكنًا أنْ ينأى المبدعُ بنفسه بعيدًا عن أحداثِ عصْرِه» .

(أحمد رمضان الديباوي)

كلُّ تشابهٍ أو تطابقٍ بين شُخُوص تلك الروايةِ ، وأحداثِها ، وأمكنتِها ، وأزمنتِها ، مما قد يراه البعضُ أنه يخصُّه ويتناوله ، ويقدحُ فيه فما هو إلا إرادةٌ إلهيةٌ ، أوخيالٌ محض ، أو « تلاكيك « من أولئك البعضِ ؛ فما ذلك التشابهُ سوى صُدفةٍ ، وما أحسنَ الصُّدَف !!

-١-

الجمعة ٩ نوفمبر ٢٠١٢ م ..نهارٌ خريفيٌّ بارد ..

مسجد بلال بن رباح - (الدُّقي) ..

بعد الخُطبةِ والفراغِ من الصلاةِ ..

ينتصب واقفًا هيكلٌ بشريٌّ ضخمٌ في جلبابٍ أبيضَ قصيرٍ بأساورَ زاهيةٍ، وكرشٍ عظيمٍ كقِدْرة الفُول ، وعارضين ينُوءان بلحية كثَّةٍ مُجعّدةٍ ، سوداءَ فاحمةٍ ، يلتقط الميكروفون ويُقربه من فمه بعد أن ينفخَ فيه مختبرًا إيَّاه ، ثم يقول بكلماتٍ تملأُ حروفُها وأصواتُها فمَه :

- « إنَّ الحمدَ لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا إنه مَنْ يهدِ اللّٰه فلا مضلَّ له ومن يضلل فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلا اللّٰه وحدة لا شريك له وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) ، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) ، أمَّا بعد :

- فيا أيها الأحبابُ ، سلام اللّٰه عليكم مني أنا العبد الفقير زكي فاضل، وسلام اللّٰه عليكم مرَّة أخرى من أسد السنة ، وربانيِّ هذه الأمة ، وناصرِ الشريعة الغرَّاء أستاذي ومعلمي وقائدي إلى جنَّةِ الخُلدِ - بإذن اللّٰه - الأستاذ الكبير سامح سعيد حسَّان (بطريقةٍ مسرحيةٍ يُشير بيديه منحنيًا إلى رجلٍ أنيقٍ بجلبابٍ أدْكن من الصوفِ الإنجليزيِّ الناعمِ يقعدُ تجاه المحرابِ ساكنًا كقلْعة) نصر اللّٰه به الإسلام ، وهدى به بعد الضلال ، قولوا : - آمين .

يفيضُ المسجد المزدحم بصدَى قولِ : - (آمين) ثلاث مرات متتابعات - أيُّها الأحبابُ ؛ كلنا يعلم مافي سوريا من بلاد الشامِ ، من أهوالٍ جسامٍ ، وفظائعَ منكراتٍ ، وتقتيلٍ لأهلِ السنةِ على يدِ الجزَّارِ العَلَوِيِّ النُّصيْري بشَّار ، عليه اللعناتُ ، في الأرض والسمواتِ ، وما يلاقيه إخواننا وأخواتنا من عَنَتٍ و مشقة ونزوح من الديار والبلاد إلى أهل ليسوا بأهلهم ، وأقوام ليسوا بأقوامهم ، لكنَّ مصرَ هي الحاضنةُ الراعيةُ ، هي الملاذُ دائمًا ، هي السكينةُ والرحمة ، وكما جعل اللّٰه في النساء ملاذًا ورحمة ومودَّة ، جعل في مصر كذلك ملاذًا ومأوى، وفي مصرَ الآن أخواتٌ ورياتٌ التجأن إليها يرُمْنَ العفَّةَ والسترَ ؛ وسترهنَّ فرض عين على كل شريف ، قريب من خالقه ؛ لذا فإننا نأمل أن يجدوا فيكم الركن الركين ، والحائط المتين الذي يستندون إليه ، ويلوذون به .

أيها الأحبابُ : بدأ شيخي الجليلُ بنفسه فعقد على امرأةٍ منهنّ، متقربا إلى اللّٰه بذلك ، وأنا على دَرْبِه سِرت فعقدتُ على أُخرى ، وهاهو ذا المجال فسيحًا أمامَكُم فهُبُّوا لنصرة الإسلام وجاهدوا بالزواج من أخواتكم السوريات ؛ تقربًا إلى ربِّ العالمين ، وتحت يدي أسماءُ وبيانات أولئك النسوة المستجيرات بنا ،

فعلى من يرغب ويستطيع الباءةَ فليتقدَّم ومعه مبلغ ٥٠٠ جنيه لا غير .. لزوم التوثيق والورق يعني !!

وفقكم اللّٰه لخدمة دينه ونصرته ، والسلام عليكم ورحمة اللّٰه وبركاته» .

أركانُ المسجدِ تهتزّ بصدَى قولِ : اللّٰهُ أكبر .. اللّٰهُ أكبر .. ولله الحمد.

***

لم يكن زكي فاضل سوى رجلٍ في الخمسين من سِنِيه ، ضخمِ الجثة ، غليظِها ، ضيّقِ العينين ، ساقط إعداية .. منذ نحو سبعِ سنواتٍ كان يمتلك محلَّ تصليح وبيع درَّاجات بشارع خلُوصي بشبرا ، امتلكه بعد أنْ سلخَ من عمره عشرين عامًا كصبي عجلاتي ، يتلقّى اللَّكماتِ ، والصفعاتِ ، والسبابَ بالأمِ قبلَ الأب ، وسائرَ ضُروب الإهاناتِ إلى أنْ غادرَ شُبرا ذات يوم ، فانقطعتْ أخبارُه ، ثمَّ عاد فجأةً برسم ووَسْم جديدين ؛ عاد إلى شبرا في هيئةٍ غيرِ هيئته الأولى التي اعتاد الناسُ رؤيته عليها ، عاد بهيئة أولئك الشيوخ الذين تنوءُ عوارضهُم بلِحاهم الكثَّة ، و تبينُ أرجلُهم وعراقيبُهم من جلابيبهم القصيرة .. عاد ميسورَ الحالِ ، رابضًا على كُرسيٍّ عملاقٍ إزاءَ مكتبٍ فخمٍ في عمارةٍ أنيقةٍ بميدان فيكتوريا تزيّنها لافتةٌ ضخمة تحمل اسمَ (الشركة الإسلامية للتجارة والاستيراد) .

اعتاد الناسُ هيئتَه الجديدة ، وتسابقَ شبابُ شبرا العَطِل على خَطْبِ ودّه ؛ فشركتُه تختصُّ باستيراد الدراجات البخارية والتوك توك الذي يقتنيه معظمهم بالتقسيط المريح ، فيصبح أحدُهُم بين ليلة وضحاها من أربابِ الأملاكِ بعد إذ كان ينفقُ يومه متسكعًا على المقاهي والغُرَز يسُبّ الدين لخلق

اللّه ، ويلفّ سجائرَ البانجو والحشيشِ ، ويسفّ حبوبَ التامول والألترادول ، ويأكل بعينيه مؤخراتِ النساءِ وأثداءَهُنَّ .

- اِمْضِ ع الشيكات واستلم التوك توك بتاعك ، بس اِحلفلي ع المصحف الأول إنك هاتراعي أكل عيشك ومش هاتنجّسه !!

جُملة لايفتأ يكرِّرها زكي فاضل كلَّما أقدم أحدُهُم على شراءِ توك توك منه ، وبعد أنْ يحلفَ أحدُهُم على المصحفِ ، ولمَّا تزل رائحةُ الكحولِ تفوح من فمِه ، يهنئه زكي قائلا :

- رُوُح بقى صلّ ركعتين شكر لله ، واِحْمِد ربنا إن ربّسنا - اللّه يحفظه - أول ربِّس ليكِ يا بلد اِتكلّم عن سواقين التوك توك وقال إنهم في عنِيه !!

لم يكن زكي فاضل شيخا بالمعنى الحقيقي الواسع ؛ فليس لديه من سمت الشيوخِ سوى لحيةٍ وزبيبةِ صلاةٍ ومسبحةٍ ، وصوتٍ جهْوَري ، وقال اللّه ، وقال الرسول ، وروى فلان عن عِلّان ، وخطبةٍ يلقيها كل جمعة في زاوية الأشطوخي التي احتلها كما احتلَّ شيخُه من ذي قبل مسجد بلال بن رباح بالدقي .

***

ما إن ألقى زكي فاضل خُطبته بعد صلاة الجمعة حتى تهلّلت أساريرُ أستاذِه .. أستاذِه الذي يملأُ مصرَ بأخباره ، وكلماته ، وحواراته التليفزيونية ، وفتاواه الطريفة ، و ... و صورِه وبوستراته الملوَّنة الأنيقة التي تحتلُّ حوائطَ العماراتِ وأعمدةَ الإنارةِ ، وخلفياتِ التكاتِك الطوّافة في شبرا وضواحيها .

من المسجدِ ، خرجَ الاثنان .

خرجا وجموع المصلين يتهالكون على الأستاذ الكبير ، يتحلَّقون حوله كصنمٍ جاهلي ، يتلمّسون البركةَ التي يتوهّمُونها ، ينسجون قصصا وحكايات عنه كنسّاجٍ ماهرٍ يتلقّف الزبائنُ أثوابَه ، يهتفون بملءِ أفواههِم كما لو كان عمرُ بن الخطاب قد مثُل منتصبًا بين أيديهم .. كما لو كان صلاحُ الدين الأيوبيّ قد بُعِثَ من مَرْقدِه فصَلّى بهم (!!)

تخلَّل الهواءُ الباردُ صدرَ الأستاذِ الكبيرِ مع هُتافاتِ الثناءِ والمديحِ فازداد نشوةً وهُيامًا ، وتلويحا بيديه إلى المهووسين المفتونين به . يعشقُ التقريظَ مُذْ كان طفلا ، يستخفه طرب الثناء ، يودُّ لو يمكثُ ألفَ سنةٍ قُدَّام المسجد يلفعه الهواء الباردُ فلا يصلَى عرقًا ، وتداعب أذنيه عباراتُ الثناء فلا يعدم مديحًا وتمجيدًا .. يدلف إلي سيارته ، تلك السيارة التي أهداها له أميرٌ خليجيٌّ هاتفه ذات مرة وهو على الهواء في برنامجه الأسبوعي فأوَّل له الأستاذُ رؤياه وأبشره بخير، فلما أنْ جاء الأميرَ الخيرُ نفحَ الأستاذَ الكبيرَ بسيارة (جاجوار xf) موديل السنة لا مثيلَ لها في مصر .

على المقعد الخلفي استوى ، وإلى جواره زكي فاضل .. يتأملان ذوبانهما وسط أمواج البشر الهادرة ، والأستاذ الكبير لا يني يُشير بيديه كقائد لا يؤوبُ إلا بالظَّفَرِ .. ينظرُ إلى زكي :

- كُنت رائع النهاردة يا زكي ، مين اللي كتبلك الخطبة ؟

- تلميذك يا شيخنا .

يبُصّ نحوه ساخرًا :

- أنا باتّكلم بجد ، مين اللي كتبهالك ؟ دا انت ساقط إعدادية ياد يا زكي ، وبتقول : ها أنا ذا ، وعلى دربه سرت ، و يرُمن العفَّة ... عُمر الكلام ده مايكون بتاعك يا سااااقط !!

يتصنَّعُ زكي ضحكةً باهتة كالتُّراب :

- واللّٰه يا شيخنا دَا واد مُدرِّس عربي في شبرا عندنا ، إنما إيه حكاية !!

- بدأت تِنْضَف أهُو يا زكي ، ابقى هاتهولي في مرَّة كده عشان أشوفه، حاكم اليومين الجايين دُول، محتاجين فيهم شوية كلام لزوم الضحك ع الدقون !!

- هايكُون قُدّامك وقت ما تحِب يا مولانا .

في تلك اللحظةِ شخَص بصرُ الأستاذِ الكبير متأمِّلا لوحةً إعلانيةً كبيرةً تحملُ صورته ببدلةٍ أنيقة وابتسامةٍ متألِّقة ، وعلى يساره لُوجُو قناة «تواصَل» : الثلاثاء من كل أسبوع وعلى الهواءِ مباشرة انتظروا برنامج «ظلالُ الإسلام» للأستاذ الكبير سامح سعيد حسَّان .

-٢-

مَنْ ذا الذي لا يعرف سامح سعيد حسَّان ؟!

البدايةُ مع أبيه ..

الشيخِ الأزهريِّ المعمّمِ سعيد حسّان ، قطبِ الإخوانِ المسلمين ، وعضوِ مجلس الشعب لدورتين متتاليتين ، وصاحبِ فتوى « جواز تغطية المرأة شعرها بالباروكة إنْ هي سافرت إلى بلادٍ غيرِ إسلاميةٍ يضيّقون فيها على المحجَّبات» ، وصاحبِ فتوى « تجارة العملة حلال، وليس للدولةِ سلطانٌ بقوانينها الوضعية على البيعِ عن تراض» !!

« رُوز اليوسف» الثمانينيات استهوتها فتاوى الشيخ ، وأحاديثه تحت قُبَّة البرلمان ، فشرعت في تتبّع أخباره ، ولمَّا كَشَفتْ عن الجنسية الأمريكية لزوجه الحاجة نازلي الزُّمر التي سافرت إلى الولايات المتحدة ابتغاءَ قضاء إجازة قصيرة مع ابنها المهندس وفيق الذي يحمل الجنسيةَ الأمريكيةَ هو الآخر ربَكَه الخبرُ ، ولم يتمالك الشيخُ نفسه ، فأرْغَى وأزْبد ، وسبَّ ولعنَ الصحافةَ ومَنْ يعمل بها ، وأعدّ مشروعَ قانونٍ يقضي بجلدِ الصحفيين قياسًا على عقوبةِ القذفِ ، ودوّى صوتُه وانتفخت عروقُه وهو ينادي بتقنين القوانين الوضعيةِ لتُطابقَ الشريعةَ الإسلاميةَ المهجورةَ في مصرَ !!

هدأت الأمورُ قليلا واختبى أُوَارُها ثم استعرَ مرةً أخرى لما كشفتْ «رُوز اليوسف» عن نشاط الشيخ التجاريِّ الذي يقوم على تجارة العملة التي أفتى

الشيخ بشرعيتها من ذي قبل ، فقامت ثورتُه مرة أخرى ولم يسْكن غضبُه إلا بعدَ ظهورِ خبر :

« تنعي مجلة روز اليوسف ببالغ الأسى فقيد الصحافة الوطنية الأستاذ/ خالد هـلال صاحب التحقيقات والانفرادات الجريئة الذي لقي مصـرعَه إثرَ حادثٍ مروري فظيعٍ على طريق القاهرة – الإسماعيلية الصحراوي- ، وإنا لله وإنا إليه راجعون» !!

ثم خبر :

« براءة الشيخ سعيد حسَّان في قضية مقتل الصحفي خالد هلال وإلزام مجلة رُوز اليوسف بالتعويض وأتعاب المحاماة» !!

فهدأت الأمورُ تمامًا .

***

ميراثُ أبيه يطارده !!

لم يُدرك شأوَ أبيه في العلم والفقه ، إلا أنه فاقه في الأتباع والمريدين والمهووسين به ... والدبلوماسية .. كان أبوه يختلف مع أحدهم فيقطع كلَّ علاقةٍ معه ، أما سامح ابنُه فلا يُغلِق السفارةَ أبدًا ، ولا يستدعي سفيره للتشاور ، ولا يقطع علاقةً قطّ ؛ حتى إنه وافق على طلب حزب من الأحزاب الليبرالية التي ظهرت بعد ثورة ٢٥ يناير فاشترك في كتابة برنامجه ولائحته الداخلية ، بل إنَّه اشترك في العام ٢٠٠٦ كمُنظِّر سياسي وقانوني في ندواتِ

حزبٍ يساريٍّ اغتصبه رئيسُه وشلّته فألقوا به جثَّة هامدة تحت أقدامِ أمنِ الدولة لتهتكَ به عِرضَ اليسارِ ، وتمسحَ به بلاطَ السياسةِ !!

تخرَّج في كلية الحقوق ، وامتهن المحاماة حتى صارَ محاميًا بالنقض. يمتلك مكتبًا فخمًا بالمهندسين تغدُو وتروحُ فيه سكرتيرةٌ حسناء ، صاروخ أرض جو ، يتفجَّر جسدُها أنوثةً تعجز البنطلونات الجينز والباديهات اللِّيكرا عن كبحِها . تلفّ رأسهَا بحجاب spanish لتخفيَ شعرَها حسْبَ الشرعِ الذي علّمه إيَّاها الأستاذُ سامح !!

- أهم حاجة ما تكشِفِيش شَعْرِك يا رباب !!

جسدُها البضّ تحت ملابسها المستفزّة يخمشُ بأظافره الشهوةَ ، ويُزكي جمْرَ الشبقِ ، ويلهبُ خيالاتِ زكي فاضل المحمومةَ كلما حلَّ بالمكتب !!

لم يكن محاميا مشهورًا كفريد الديب أو محمد بهاء أبوشقة أو مرتضى منصور بل كان نجمًا تليفزيونيا يتنقّل بين الفضائيات متحدّثا عن تعديل قانون الأحوال الشخصية تارة ، وتعديل قانون الجمعيات الأهلية تارة ثانية ، وتقنين القوانين الوضعية بالشريعة الإسلامية تارة ثالثة .. يتلاعب بالألفاظ والمفاهيم .. يقرأ الآية القرآنية أو الحديث النبوي أو القصة من التوراة فيسبح بمشاهدي برنامجه الأسبوعي في بحورٍ عميقةٍ من القصص والحكايات ، تأسرهم ، تفتنهم ، تخوضُ بهم في عوالمَ بعيدةٍ فاتنةٍ كما تخوض عذراءُ الأساطيرِ في عصيرِ العنبِ (!) منجم حكاياتٍ لا ينضب .. يطلّ عليهم ببدلة سِينييه فاخرةٍ مرَّة ، ثم يأسِرُ قلوبهم وأنظارَهُم بجلبابٍ أبيضَ ملائكيٍّ مرَّةً أخرى .

يناور ويلاوع ، يضحك ويبكي ، يثور ويخمد ، ينافح ويهاجم ، ولولا الملامة لقال : أنا المهدي المنتَظر ، بل أنا السيّد المُخلَّص !!

ملكُ القلوب والأرواح ، يفتن بحديثه الأسماع فتنتشي وتصيخ له ، وينسى كلٌّ نفسه !!

« واثقُ الخطوةِ يمشي ملكًا» ..

- « اللّٰه عليكِ يا ست ! كأنها تغني لي وحدي» !!

لا يشِي وجهُه بعبقريةٍ أو نبوغٍ ؛ وجهٌ مستدير طفلي بلحيةٍ بيضاءَ مهذَّبةٍ ، وفوْدَين اشتعلا شيبًا وجبهةٍ عريضة وأنفٍ قانٍ جميلٍ ، وعينين ضيقتين ، وشفتين رقيقتين على فمٍ دقيق .. رغم تخطيه الخمسين بسنتين مايزال يحتفظ ببريقِ الأربعين وألَقِه ، ولولا بنكرياسٌ يُقصِّرُ في وظيفته فأحْوَجه إلى الأنسولين لكان صحيحًا ، لكنَّ إبرةَ الأنسولين كفيلةٌ بإصلاح الأمر وترميمه ، كما لو كانت خلايا (جُزُر لانجرهانز) تعمل بكفاءة . تُغرس الإبرة في فخِذِه وبعدها يأكل مالذّ وطاب .. ويبقى ، يبقى الشيءُ الذي يؤرِّقه ، يقضّ مضجَعَه ، يهدم كِيانه كلَّ ليلة ، الشيءُ الذي ينطبق عليه المثل : « لا يُصلحُ العطَّارُ ما أفسدَه الدهر» ، أو ينطبق عليه مطلع أغنية محمد عبد المطلب :

« ... عُمْر اللي فات ما هايرجع تاني» !!

وبين أوانٍ وآخرَ يشرعُ مع زكي في ملء أسطوانة مشروخة ، مكرورة، مكذوبة :

- الموتور عطلان يا زكي ، إيه العمل ؟!

يردّ بحسم :

- نفوّقه يا ريّس !!

يردُّ بغيظٍ :

- حبوبك اللي بتجيبهالي كلها زيّ الزفت ، زيّ وِشَّك !!

يردّ بثقةٍ مصنوعةٍ :

- المرّادي أنا موصيلك الدكتور على بتاع الأجزخانة على حاجة اِكسترَّا !!

يردّ متنهِّدًا كمن خابَ رجاؤه :

- أمَّا نشوف ، أما نشوف يا سي زكي !!

حوارُهُما ..

فيلم قديم قتله التليفزيون إعادةً راتبةً مُملَّةً ؛ فلا الموتور يلين لصاحبه ، ولا الشباب المهراقُ يعود ولا الحبوبُ الزرقاء والحمراء والخضراء و ..... التي يسفّها تنفخُ الروحَ في الميتِ .. الميتِ الذي يرفعُ رايةَ الهزيمةِ السرمديةِ كلَّ ليلة .

***

تستغرقُ جَلْسته مع زكي فاضل ، ساعده الأيمن ، وجبةً دسمة وحجرَ معسل « قصّ « ، وسيْلَ حكاياتٍ عارمًا عن وصفات طبية وشعبية لتقوية الباءة وتهييجها ، وتليين الموتور الذي عصى صاحبه فغوى، وخُططا في السياسة وجمعِ الحشود للنصرةِ والتأييد ، إلى أن يزحفَ الملُ كحيّة خبيثة فيثقل الكلام وتضيق النفس به ، وتخْفت البهجة التي تصنعها طقوسُ الطعامِ والدّخان وأحلام السياسة !!

كانت الساعة قد تعدّت الرابعة عصرًا حين همّ سامح بمغادرة مكتبه الذي اعتاد الذهاب إليه مع زكي بعد كل صلاة جمعة . يكتسحان بأجسادهما وطعامهما وشرابهما وأحجار معسلهما « القصّ» غرفةً ملحقةً بغرفة مكتب سامح .. الغرفة واسعة ، تتوسطها منضدة تحمل وجبةَ لحوم مشوية ، وأطباقَ مشهيات وصلطة خضراء وطحينة ، وبضعَ زجاجات من مشروب شعيرBarbican لزوم الهضم ، يتحلّقان حولها فيما ذؤابات الدخان فوقهما .. يعجز الشفَّاطُ الوحيدُ الذي في الغرفة عن تبديدها . يسحب زكي نفسًا عميقًا فيمتصّه إلى الأعماق ويكتمه كمحترف تحشيش قَراري ثم يقولُ وهو يُصدر صوتًا له خُوَار :

- وأخبار الست لارا مع جنابك إيه يا فخْم ؟!

امتقعَ وجهُ سامح وتشاغل بالعبث بأرنبة أنفِه :

- واللّه يا زكي هي آية في الجمال والأدب ، بس لو الموتور متليِّن كانت تبقى الحكاية زي الفل !!

- ياريّس بعون الله الأمور هاتبقى عال العال ، ماتقلقش فيه نوع ممتاز هايكون عندي النهاردة أو بكرة بالكتير ، الدكتور علي بيتمنى الرضى !!

كمَنْ لسعه عقرب :

- يخربيتك يا زكي ، اوعى تكون بتقول لحد ع الكلام ده ، ودِيني أدبحك !!

كمن يتظاهر بالرضا :

- وأنا أقدر يا فخم ، هو يعرف إن الحبوب دي باخُدها ليا ، لاستعمالي الشخصي عشان المكَنَة السورية الجديدة اللي عندي !!

ما زكي فاضل إلا (كاليبان) ذلك الشيطان منحطّ الرغبات ، حيوانيّ السمات .. وكما استخدمه الساحر (بروسبيرو) لقضاء حاجاته اليومية فكذا يستخدمه سامح حسَّان ... هو كاليبان / الجديد الدّنيء – إذن– بدون (آريل) ، ذلك المخلوقِ اللَّطيفِ ، رمزِ الخير !!

خَبَتْ جمرةُ غضبٍ التهبت في صدر سامح ثم انطفأت ، وفي تلك اللحظة دقَّ جرسُ محموله بنغمة إسلامية خليجية :

- السلام عليكم ، واحشني والله يا باشمهندس .. لا ماتقولش كده .. انت عارفني ، في الخدمة دايمًا، طبعًا في أي وقت .. خلاص اتفقنا .. في حفظ الله يا باشمهندس .. مع السلامة .

نَقَرَ الفضولُ رأس زكي فاضل كما ينقر الكتكوتُ جدارَ بيضته للخروجِ ، اقترب من سامح مُخفضًا صوته :

- اوعى يكون اللي في يالي يا شيخنا ؟!

- هوّ يا زكي اللي في بالك .. الباشمهندس خيري أمين .

قالها وهو ينهض واقفًا هربًا من استرسال زكي في الكلام ، وإلحاحه في الفضول ، فتبعه زكي متسائلا مُلْحِفًا كببغاء :

- مش خير برضه ؟!

بنبرةٍ واثقةٍ ثابتةٍ كشجرةٍ امتدت جذورُها وتشابكت :

- طبعا يا مغفَّل ، كل خير !!

تنزلُ بردًا وسلامًا على قلبه .

كلُّ مكالمةٍ تليفونية مع خيري أمين ، رجلِ الجماعةِ القوي ، كلّ لقاء معه ينزل بردًا وسلامًا على قلبِ سامح حسَّان ، يُمنّي نفسه بشيء يرومُ تحقيقه ، يدركُ مع كل مكالمة أو لقاءٍ أملا يعتملُ في نفسه ، يبني أحلامَه وأمانيه ، يُشيّدها كناطحة سحاب تفوقُ ناطحةَ سحابِ شنغهاي نفسَهَا ، هاهو ذا يقترب . يدنُو من الاتحادية .. مِن قصرِ الحُكمِ .. مِن رئاسةِ مصرَ !!

- ٣ -

القاهرة ..الساعة ١٥ : ١١ صباحًا ..

السماءُ بلُّورةٌ نقيةٌ ..

جريدةُ «الشَّرْق» ..

المسافة من مكتبي بالجريدة إلى مكتب رئيس التحرير استغرقت نصفَ سيجارة ، حاولتُ جاهدًا إتمامها قبل الدخول على رئيس التحرير الأستاذ أنيس شيرين العليمي ، أو أنيس بك كما يحبّ أن نلقّبه بذلك ، هو بالفعل بك ، ابنُ ذوات ، عملاقٌ ، خمسيني أنيق، ذو وجهٍ كبيرٍ مستطيلٍ ، متورّد الخدّين حتى إنَّ الدمَ لينبجسُ منهما، يرتدي كل يوم بدلة يُعادِلُ ثمنُها مُرتَّبَ خمسة صحفيين تحت يديه ، ويحرق كعربة البطاطا كل يومٍ عددًا ليس بقليل من السيجار الدومينيكي الفاخر الذي يفتح ثمنه نصف بيوت روض الفرج الذين يطل عليهم من برجه الشاهق فيحدجهم بنظره قبل أن يسعى إلى النافذة الأخرى فيزيح أستارها ويرنُو متأملا صفحة النيل البديعة .

ناس فوق .. وناس تحت .. بل تحت الأرض !!

تستقبلني السكرتيرة التي كانت تعبث بأوراق وملفَّات بابتسامة رائقة تكشف عن أسنانٍ بيضاءَ نضيدة .. ليت تلك الحسناءَ بالداخل فتحلّ محلّ ذكرِ وحيدِ القرن الهندي (..) الذي لايني ينفث دخانَ سيجاره الضخم كقطارٍ بخاري في فيلم أبيض وأسود قديمٍ ... ولجتُ الباب الجرّار الذي فتحته الحسناءُ

الصاروخُ كما تفتح العاشقة أحضانَها لعشيقٍ طال انتظارُه .. بالداخل كان أنيس بك على مكتبه ينقر بأنامله المُدبَّبة على لوحة مفاتيح الـ laptop .. مكتبه فخم، تُزيِّن جدرانَه أخشابُ البلّوط .. معبَّق برائحة دخان سيجاره الدومينيكي .. دخانٍ يقدمه كقُربانٍ لإلهٍ في مذبحِ البخورِ .... يتوسَّط المكتبَ طقمُ جلد إنجليزي كلاسيكي شسترفيلد فاخر ، على الجدران صورةٌ كبيرةٌ لأنيس بك وهو يلقي كلمة على منصّة بين جمهورٍ كبيرٍ متعددِ الأعراق ، وصورة ثانية تحمل لوجو الجريدة ، أما الصورة الثالثة التي هي خلف مكتبه فتحوي منظرًا طبيعيًّا بديعًا .. تلك الصورة سبقتها صورة أخرى كانت هي واسطة العقد في مكتبه .. حمل المسمار قبلها صورة أنيس بك وهو يصافح مبارك ، الذي كان رئيسًا ، بحرارةٍ وابتسامةٍ صافيةٍ ... بعد الثورة ، رُفعت من مكانها الأثير إلى غير رجعة .

كلُّ وقتٍ وله آذان ، والتكيّف مع البيئة يقي من عوامل الانقراض !!

رمقني بعتاب مكشوف قبل أن يُشير :

- اتفضل يا رائد .. أُقعد ..

فيما يمدُّ يده مصافحًا في حرارة لم أعهدها من ذي قبل ؛ إذ ما تكاد تسلّم عليه بيدك فلا تجد منه سوى ملامسة رقيقة كعذراء ناعمة تُسلِّم عليك في خَفَرٍ وحياء .. جلست إزاءه :

- خير يا أنيس بيه ، طمني ؟

هذا الـ « أنيس « بك طبعةٌ فاخرةٌ أنيقةٌ لرواية تافهة أو لديوان شِعر ركيك مُبتذل !!

ببرودِ الثلج ، وقد لوى بُـوزَه قليلا :

- طبعًا يارائد انت تعرف معزّتك عندي قدّ إيه ، وتعرف كمان إني باعاملك في الجورنال هنا غير أي واحد !

من صفات وحيد القرن أنه يتميّز بحاسة شم ممتازة ..

لعلّه أدرك ، أو تناهى إلى سمعه من مريضٍ نفسيٍّ (!!) في الجريدة أنني أنطّ في فترات الراحة على مكتب سكرتيرته الصاروخ فأتجاذب معها الحديث ، وأصل معها ما انقطع .. يفرض سياجًا حول مكتبه ، لا يجرؤ أحدٌ على ولوجه إلا بميعاد مُسبق أو استدعاءٍ ضروريٍّ ، ولولا أن الصاروخَ يهشّ إلى لقائي ، ويهفو إلى حديثي لما دلفت مكتبه قط .

في تلك الجريدةِ الحمقاءِ كرئيسِ تحريرها ، واحدٌ يحبّ وعشَرة يكرهون أو يحقدون أو يحسدون !!

ثُلّةٌ من المرضى النفسيين يذوبون حقدًا وعَفَنًا !!

حاولتُ إخفاءَ قلقٍ بدأَ يزحفُ على قسمات وجهي :

- ما تخُش في الموضوع يا فندم ، خير ؟!

صَمَتَ للحظة ، ثمّ أردف :

- مقالك الأخير أنا ماقدرش أنشره يا رائد !!

دون تردد :

- ليه ، عشان طويل شوية ؟ ممكن أختصره حضرتك !!

يسحب نفَسًا من سيجاره الضخم ويُرخي نظّارته على أنفه كفيلسوف الغبرة (..) ثم يحدجني بنظرة نارية :

- ماقدرش أنشره عشان جريء أكتر من اللازم .. حاسِس فيه بريحة شيوعية يا رائد !! تلك هي المرَّة الثانية التي يمنع فيها أنيس بك مقالا أو تحقيقًا لي ؛ أما المرَّةُ الأولى فكان تحقيقًا في ربيع العام ٢٠١٠ عن مخالفات جسيمة، شابت أصول بيع بعضٍ من شركات قطاع الأعمال العام وخصخصتها، و عمليات سمسرة بالملايين أفاد منها بعض رجال الحكومة والحزب ، ووضْع ملفات تلك المخالفات في قبْو الصمت المظلم تحت سمع وبصر الجميع !!

وقتها هاج ذكرُ وحيد القرن الهندي ونَزَا عليّ بعبارات وجُمَلٍ لا محلَّ لها من الإعراب عندي ؛ أما هي فمحلّها عنده الخوف .. الخوف فقط .. الخوف الذي استشعرته باديًا على هيئته العملاقة .

- هيّ الحقيقة دايما بتخوّف كده يا أنيس بيه ؟!

- صدّقني يا رائد يا حبيبي ده مش خوف ، احنا جوّه شبكة مصالح ، حكمانا ، ومانقدرش نتغاضى عنها بأي شكل !!

مُقوِّسًا حاجبيه :

- بس اللي أعرفه إن الحقيقة ملهاش دعوة بالمصالح ، الحقيقة حقيقة ، لازِم توصل للناس بأي شكل !!

بصبر نفد نهض أنيس من مقعده ، فتبعه ، واقفًا ، رائد فأشار إليه بالجلوس مرة أخرى ثم قعد قُبالته ، وبَدَا كحكيمٍ قائلا :

- أنا باعتبرك زي ابني يا رائد ، ومعترف ومؤمن بموهبتك وثقافتك ، وعشان كده أنا هاقولّك : الجريدة اللي كلنا بناكل منها عيش شركة مساهمة ، رأس المال القطري فيها أكتر من ٤٠ ٪ ، فلما انت تتكلم عن علاقة قطر باللي بيحصل في مصر تبقى بتدخلنا في متاهات اِحنا في غنى عنها !!

رانَ صمتٌ كثيف بينهما ، مع دهشةٍ بادية على وجه رائد ، فيما يسحبُ أنيس نَفَسًا من سيجارِه الضخم الذي لا ينتهي أبدًا مُتحفِّزًا لانقضاضة !!

صوت رائد يشرخ الصمت قائلا :

- والمطلوب ؟!

- خِفّ شوية !! قصدي خفّف أسلوبك شوية ، اِبعد عن سيرة قطر وسياساتها .. بُص : بلاش تجيب سِيرة أي بلد خليجية من الأساس ، البلاد دي مصالحنا ومطبوعاتنا بتوزّع فيها كويِّس جدا .. يا رائد انت عارف إن الناس في مصر مابتقراش ، بتسمع بس !!

ويُشير إلى شحمة أذنه ، ثم يرجع بظهره إلى الكرسي واضعا ساقا على الأخرى .

- بس أنا يا فندم ماقدرش أكتب غير اللي أنا مقتنع بيه ؟

قالها رائد بنبرة واثقة رشقت ببريقها أنيس في عينه .

- بس أحب أفكرك إنك بتاكل عيش من هنا ، من الجورنال ده !!

ابتلع ريقه ، وازدادت ضربات قلبه الذي استقبل لحظتئذ آلاف السنتيمترات المكعبة من الدم وانتصب واقفا كنخلة سامقة :

- خلاص يا أنيس بيه اعتبرني من دلوقتِ باكل عيش من حتّة تانية!!

وإلى الباب اتّجه موليا ظهره لأنيس الذي عقدت الصدمةُ لسانَه للحظة ، فيقف مُناديًا برجاء :

- رائد .. رائد .. اسمعني أرجوك .. اسـ اسـ !!

واختفى رائد من أمامه إلى مجهول ، فيما بُهِت أنيس قبل أن يرتمي على كرسيه الوثير تتقاذفه الأفكار وتلعب به ويحدوه الأمل الفسيح في عودة رائد بعد يومين أو ثلاثة كما حدث في مرةٍ سالفة .

لكن هذه المرّة ليست كسابقتها ؛ فوجهُ رائد ينبض بشيء ما .. ينبض برُوحٍ جديدة .. كالوترِ في سرعته .. كالبرقِ في لمعته .. كالحبِّ في بهائه ..

ينبض بالتحدي الصارخ .

***

أفصح أنيس عن هُويّته ، أبان عن مكنونه ، كعاهرةٍ تنضُو ثيابَها أمام مَن يدفع قبل أنْ يركب (!!) مِن ذي قبل أحاط الكتمانَ بسياسته في تحريرِ الجريدة وتمويلها .. طُول عُمري أقول عنه : دعِيّ .. زجزاج(!!) لا يُعرف له اتجاه أو هدف ، أعترف بجريان ريقي على المرتب الضخم.. سالت رِيَالتَي مع أول مكافأة ، لكنني لم أفعل شيئا على الرغم من أنفي ، وهذا هو عزائي الوحيد ، حتى تحقيقي الذي حجبه من ذي قبل نشرته على صفحة سياسية ساخرة على الـ face book اسمها (لمُون يهدّي أو عنَّاب يرخّي !!) .. بعد الثورة كشفتُ عن نفسي كأدْمِن لها !!

إنَّ أصعبَ معركة في حياتك عندما يدفعك الآخرون إلى أنْ تكونَ شخصًا آخر ، كما قال شكسبير ، فإذا نجح الآخرون في أن تكون شخصًا آخرَ غيرَ نفسِك ومبادئك فذاك هو الفشلُ بعينه .. لقد انتصرتُ على أنيس العليمي ، وعلى نفسي .. لقد انتصرت على الفشل .

ما إن غادر رائد الجريدة لا يلوي على شيء حتى وجد نفسَه قُبالة مقهى (زهرة البستان) ، لا يدري كيف جاءت به قدمه إلى هنا ؟!

الرِّجْل تدِبّ مطْرح ماتحِب (!!)

وكيف لا يحبّ زهرةَ البستان ، ذلك المكان الأثير إلى رُوحه وفؤاده .. فعَلَيْه ، يعدِل دماغَه بكُوب شاي أو فنجانِ قهوة سادة بعد إذ يبتاع ساندويتشات الشاورما من (القزَّاز) ثم يفتح الـ laptop ويكتب مقالا أو تحقيقا صحفيًّا أو تعليقا في الـ face book يجمع به مئات أو آلاف الإعجابات .

فليذهب أنيس وجريدته إلى الجحيم ...

ليذهب .. بسيجاره الضخم ، وبلزوجته ، وبغروره ، وببرودته ، و ....

بسكرتيرته الصاروخ !!

يُخرج من حقيبته ورقة فلوسكاب قديمة قد تثنّت وتغضّنت غيرَ مرةٍ .. أمسك بالقلم وأنشأَ يكتب :

(استقالة)

السيد الأستاذ / أنيس العليمي – رئيس تحرير جريدة الشرق المحترم :

تحية طيبة ، وبعد :

أرجو من سيادتكم التكرم بالموافقة على قبول استقالتي وذلك لأسبابٍ خاصة .

وتفضَّلوا بقبول الاحترام والتحية .

مقدمه : الصحفي / رائد حسين إبراهيم

تحريرًا في ١١ نوفمبر ٢٠١٢

لا يستأهل سوى ذلك ؛ لا (بك) بعد اسمه ولا يحزنون ، ولا ورقة مطبوعة أنيقة ، هذا مقامه عندي .

الاحترام والتحية والتبجيل ، كلُّ أولئكَ خسارة فيه وفي اللي جابوه من الأساس !!

***

الآن .. والآن فقط ، ليس لي مكانٌ أو موطِىءُ قدمٍ في تلك الجريدةِ القبيحةِ ..

فما أنا فيها إلا كمن هو على ظهر سفينة متهرّئة في بحر مصطخب فيما ربّانها أحمق قدير (!) يطوي العُباب ويتواثب فوق أعراف الموج المتناوح علّه يصل إلى جزائر الذهب التي هي في خياله وحده !!

يأتيه كوب الشاي مع كوب آخر مُترعٍ بأوراق النعناع الأخضر .. لا شيء يضبط مزاجه سوى ذلك الكوب ، بل لا شيء يضبط مزاجه سوى الجلوسِ إلى طاولة في مقهى (زهرة البستان) .

-٤-

شُبرا .. ميدان فيكتوريا .. الساعة ٤ عصرًا ..

الشمسُ تنثرُ دفئًا خفيفًا على الأرض ..

الشركة الإسلامية للتجارة والاستيراد ..

مكتب زكي فاضل ..

تكاثفت وتراكبت ذُؤاباتُ الدُّخانِ الأزرقِ صُعودًا إلى السقف مُكوِّنةً فيما يشبه ظُلّة فوقَ رأسِ زكي فاضل الذي يسحب ، بضميرٍ وذِمَّة يُحْسَد عليهما ، نفَسًا تِلْو نَفَسٍ من الشيشة التي عمّر حجرَها بقطعةِ حشيشٍ « ولا كِلْمة ، حاجة بلدي اِكِسْتِرَّا أصلي .. ما بتطّيرشِ زي الحشيش المغربي « !! .. سَحَبَ نَفَسًا أخيرًا فابتلعه قبل أنْ يلفَّ خرطوم الّليّ بمهارةٍ حول عمودِ الشيشة ، وقبل أنْ ينفثَ بقايا الدخان في وجه ذلك الطراز البشري القديم الجالس أمامه !!

طراز محترم ، ساذج الملامح ، شابّ في العَقْدِ الثالث اسمه مصطفى عامر ، طويل ونحيف ، بعينين عسليتين تشتكيان من قِصَرِ نظرٍ خلفَ نظّارة طبيةٍ .. هي الأخرى من طراز قديم كصاحبها .. هو ذا كلمة السر إذن في بلاغة ورصانة الخُطب التي يُشنّف بها زكي الآذان ، ذلك الطراز مدرس لغة عربية بإدارة الساحل التعليمية ، حُجّة في علوم العربية ، يلجأ إليه زملاؤه في المهمَّات ، التقطه زكي ليكون لسانَه الذي يتكلم به فيجمع بفصاحته الأتباعَ الأغفالَ ممّن تسحرهم الألفاظ دون المعاني .

عقد مصطفى حاجبيه وهو يتابع تمايُلَ سُحب الدُّخان في صعودها فعاجله زكي فاضل قائلا بعد ضحكة باردة :

- انت سيد العارفين يا أستاذ مصطفى إن الحشيش مش حرام !!

وقبل أن ينطق مصطفى ببنت كلمة استرسل زكي قائلا :

- دا أنا قريت إن مشايخ المالكية في مصر كانوا بيحلِّلُوه للناس ، وكانوا شرّيبة .. آه .. اتعلموه من الطلبة المغاربة المجاورين للأزهر زمان ، وكمان كانوا بيحلِّلُوا الأفيون ، كانوا بيستحلبوه زي الأيام دي ، خلي بالك يا أستاذ مصطفى دا بيعمل شغل زي العسل في السرير !!

امتقع وجهُ مصطفى ، وجزّ على أسنانه قائلا :

- عِلْمي علمك يا عم زكي ، بس انت بتتكلم عن المالكية ليه ، هوّ انت مالكي ؟!

- لا مالكي ولا حنبلي يا فندي ، أنا مسلم ، مسلم وبس !!

- قصدي إيه رأي بقية الفقهاء في الحشيش والأفيون ؟

- بُص ، أنا مليش دعوة بحد منهم ، اللي أعرفه إن شيخي قال لي : يا زكي الحشيش حلال لأنه مش مُسْكر ولا بيذهب بالعقل بس الظروف الاجتماعية هيّ اللي حيْشانا عن الكلام في تحليله للناس !!

ساخرًا :

- بيذهب بيه فين يا عم زكي ، سكة اللي يروح ما يرجعش ؟!

غاضبًا :

- أستاذ مصطفى انت شكلك بتتريق على كلامي ، كده أزعل منك !!

بتلطف مصنوع :

- ماتزعلش يا عم زكي ، المهم إيه الأخبار العسل اللي كلّمتني عليها في التلفون ، خير ؟

- ابسط يا عم ، الأستاذ سامح حسَّان بنفسه عايزك قُدَّامه في أقرب فرصة ، حظك يابن الذين !!

تورّد وجهه فأردف قائلا :

- مش معقول يا حاج زكي ، وحياة أبوك بتتكلم جد ؟!

- لك حق ماتصدقش ، بس اللي باقولهولك هو الصح يا مصطفى .

- خدّامك يا حاج ، وخدّام مولانا ، مش برضه بتقولُّه كده ؟!

اقترب زكي منه :

- مولانا ، وشيخنا ، وأستاذنا ، وريّسنا ، هوّ كل حاجة لينا يابني في الدنيا ! اوعاك ، اوعاك يا مصطفى الكلام معاه لازم يكون بحساب ، بالخردلة ، آه ، دا راجل دماغه متكلفة !!

سكت مصطفى لثوانٍ معدودات عاجبًا ، وقال خاضعًا :

تؤمرني يا حاج ..

ثم متردّدا :

- طب هاقابله امتى .. قصدي هانقابله امتى يعني ؟!

يقطع حديثهما دخول الساعي أو « أستاذ الشيشة والمزاج » كما يُسميه زكي فاضل وفي يده حجر المعسل المشحون بالحشيش المُسعَّر بالفحم .. يستبدله بالحجر الذي اغتصبه زكي بوحشية وسادية مُفرطة ثم يسحب أنفاسًا متتاليات لزوم تحضير وتقويم الحجر قبل أنْ يغتصبه زكي بلا هوادة مرة أخرى .. وما إن يفارقهما ذلك الأستاذ (!) حتى يقول زكي :

- خليك مستعدّ في أي وقت ، هاحدّد مع الكبير الميعاد وأقولّك ، اتفقنا .

قالها وهو ينفخ دخان الشيشة الكثيف في وجه مصطفى الذي اشتدّ سعاله فطفق ناهضًا من مكانه متعللا بحصة خصوصية .

- طب بالإذن أنا يا عم زكي ، أصل عندي حصة .

استشعر تململه فأردف :

- وهْوَ كذلك .. استنى .. بلاش حد يعرف بالمقابلة دي يا مصطفى.. خليك كتُوم !! استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان .. ماشي يا أستاذ ؟!

- تؤمرني يا حاج .. سلامو عليكو .

- السلام والرحمة يا خويا .

يخرج مغلقًا الباب من ورائه .

***

وما هي إلا لحظاتٌ يسيراتٌ ويدفع البابَ بلا قرعٍ عليه أو استئذان.. كائنٌ !!

كائنٌ مسلولٌ كعصا .. تضطرمُ فيه حرارةُ الشبابِ .. قمحيّ البشرة ، مجعّد الشعر .. في جِيدِه سِلْسِلةٌ فضيةٌ غليظةٌ ، وحول معصمه النحيفِ حظّاظة ذاتِ ألوانٍ متنافرة .. كائنٌ عليه غضبُ اللّٰه ، والملائكةُ والناسُ أجمعين .. كائنٌ ينادي زكي فاضل بـ (يابابا) أو (يابا) أو (ياحاج) ، لم يكن ذلك الكائن سوى جمال .. الذكر الوحيد الذي أنتجته ملايين الحيوانات المنوية التي دَفَقَها زكي في أرحامِ سبعِ نساءٍ ممَّن عقد عليهن ونكحهُنّ .. فيما أنتجت الملايين الأخرى ثماني إناث تمّ سترهنّ في بيوت أزواجهنّ ولما تبلغ إحداهن الثامنة عشرة ..

- جواز البنت سُترة ، وقبل ما عُرْف الدِّيك ياكلها في بيتي ياكلها أحسن وهي في عِصْمة راجل !!

يدلف الكائن / جمال إلى أبيه :

- ازيّك يا حاج .. ثم يملأ ، منتشيًا ، رئتيه بالدخان الأزرق الذي يعبق المكتب :
- أصلي ، وربنا أصلي يا سِيِد الناس !!

بنفاد صبر :

- انت شرّفت يا حيلتها ؟!

هزَّ جمال كتفيه استخفافا فقال :

- دا أنا اللي حصلّي الشرف يا كبير !!

ينفخ دُخانه عاجبًا من ذلك الكائن السّمج :

- انت ابن حرام ياله ؟!

- يابا أنا ابنك والله مش ابن حرام .

صاح زكي قائلا :

- ابني ؟! هوّ انت لو ابني صح مش لازم تكون جنبي ، في ضهري، لكن ازاي .. ماهو انت عملي الأسود .. وربنا المعبود أنا حاسس إن نهايتي هاتكون على إيدك يا جمال !!

- وهوَّ أنا يعني كنت عملت إيه بس عشان كل الرصّ اللي رصتهولي ده يا حاج ؟!

بصوت هاديء واضح :

- عملت إيه ؟! مش أنا قلتلك لايمها شوية اليومين دول .. أبوك بقى سياسي و النهاردة غير امبارح .. لكن إزاي ؟! تعليم وفشلت ، تجارة وبتخربها .. لكن بلطجة وتامول و نسوان ساقطة تبقى عال العاااال !!

مقاطعًا :

- ماهو يا حاج ..... !!!

ينهض زكي واقفا مطوّحا بخرطوم الشيشة التي نهكها شُرْبًا :

- حاج إيه وزفت إيه بس ، مش أنا قلتلك أكتر من مرَّة مالكش دعوة بولاد المتولي .. قلتلك ولا لأ ؟!

ينكس رأسه :

- قلت .. قلت يا حاج !!

- طب واللي بيحصل كل ليلة قُدَّام عمارة المتولي نسميه إيه ؟!

بوجهٍ شاحب :

- اِنت عرفت ؟!

أجاب في مرارة شديدة :

- عارف كل حاجة عنك وبصلّح وراك من غير ما تحسّ يا عديم الإحساس ، إياك تتكرر يا جمال .. وربنا المعبود لأنا اللي هاخلّص عليك بإيدي لو اتكررت تاني !!

***

لم يستطع جمال إتمامَ تعليمه .. لفظته المدرسة الثانوية ، فعانق أسفلتَ الشوارع ، واختلف إلى المقاهي والغُرَز ، وخادَن المومسات والبغايا .. ولأنه « ديك البرابر» على ثماني إناث فقد تم تدليله .. وكانت إحدى رفيقاته ابنة الحاج عِليان المتولي أشهر تاجر موبيليا في شبرا ، وعضو الحزب الوطني السابق .. هو ذا الرجل الذي كان «واصلا» أيام مبارك إلى عِلّيين (!!) ثم انداح هيلمانه وتلاشى .. هو ذا الرجل الذي خادَنت ابنتُه الصغرى « الدّلّوعة» جمال .. هو ذا الرجل الذي قام جمال بتصوير ابنته وهي ترقص وتتثنّى.. وهي تتعرّى وتنضو ملابسها قطعة قطعة .. وهي تغيبُ في متاهة الشَّبَقِ السحيقِ.. وهي تحطِّم معه أسوار اللَّذَّة ، هو ذا الرجل الذي أضحت سيرته مُضْغة في أفواه الناس .. هو ذا الرجل الذي أصابته الجلْطة لما بانَ الأمرُ وانفضح ، هو ذا الرجل الذي وارُوه التراب بعد أن كَرَثَته الفضيحة وعصفت به .

أما أولادُه فقد استيأسوا من فساد جمال وتهتّكه فذهبوا إلى أبيه الذي تميَّز غيظًا أول الأمر ثم لامهم على ترك حبل أختهم على غاربه ، ثم تفتّق ذهنه عن تعويضهم ماليًّا ، ولما أصروا على زواج جمال من أختهم سترًا للفضيحة ، ولمَّا للدور ، والقيل والقال والجُرْسة رفض زكي فاضل رفضًا قاطعًا وتذرّع إلى ذلك بقوله :

- البنت اللي قبل الجواز تتساهل ، وترضَى تنام مع واحد مش جُوزها لا يمكن تبقى أمينة مع أي راجل بعد كده أبدًا ، واللي تعرف سكّة الحرام ياولاد عِليان لا يمكن تِسلاها أبدًا !!

رشقت كلماتُ زكي في قلوبهم كالسهام المسمومة فلعنوا الأيامَ السُّود التي جعلتهم يقفون متذلّلين لصبي العجلاتي .. صبي العجلاتي (الذي كان) !!

- ملعون أبو الزمن الأسود ، ملعون أبوك يا زمن الهفايا .. اِسْفُخس على الزمن !!

- انتم بتسبّوا الدهر قُدَّامي يا كفَرَة ؟! وديني لأربيكم يا أنجاس ، برَّه يا ولاد عِليان .. برَّه .. جايين ترموا بلاويكو عالناس الأشراف ، روحوا شوفوا أختكو نامت مع مين .. برَّه ، برَّه !!

***

بعد نحو أسبوع .. تناقلت شبرا نبأً انتحارِ ابنة المرحوم الحاج عِليان المتولي بعد تجرّعها السُّم ، فواراها إخوتُها الترابَ بجوار أبيها و لما يمرّ على وفاته أربعون يومًا !!

***

ولأنَّ الكائنَ / جمال رذيلٌ ضليلٌ بامتياز فقد كان يقصد إلى أرضٍ مملوكة للدولة أمام عمارة المتولي كانت خلاءً قبل الثورة ثم استحالت بعدها إلى غُرْزة من البُوص والأخشاب تضمّ السرسجية والمومسات والبلطجية الذين أغدق عليهم جمال أموالا وشرابًا وبغايا ليكونوا طوْع بنانه ، ورهْن إشارته ، واتخذوا صُور الفتاة العارية المنتحرة موضع سمرهم كل ليلة .. فتناقلوها على تليفوناتهم المحمولة عبر البلوتوث ، ومنهم من عرضها عن طريق flash memory على شاشة التلفزيون لتتأجّجَ رغبته ، أو ليستثيرَ بها المومس التي تضاجعه فتُلْهبه.. وكانوا يقرقعون بالضحك ، ويتبادلون النكات القبيحة ، فأنشأوا جلبةً وصغائرَ عطّلت تجارةَ أولاد المتولي الذين اشتبكوا معهم غيرَ مرَّة فما زادهم ذلك إلا إصرارًا وفجورًا .. ضجّ أولاد المتولي وجأروا

بالمسؤولين فتتالت شكاواهم وتلغرافاتهم إلى الداخلية ، فلمَّا اطّلع زكي على الأمر من عيونه المبثوثة في الوَزارة استبق الأمرَ فحشد طائفةً من أنصاره الكُثُر واستعدُّوا بسلاحهم وعِصيِّهم وقصدوا إلى تلك الغُرْزة نهارًا فهدموها وأزالوا أثرها !!

(قناة الجزيرة – مباشر مصر)

« في إطار جهود حزب الرسالة الذي يترأسه الأستاذ سامح سعيد حسَّان قام شبابُ الحزبِ المتطوِّعُون في اللجان الشعبية بحملةٍ مشتركة مع قوات الشرطة لإزالة الإشغالات المقامة على الأراضي المملوكة للدولةِ في منطقة شُبرا بحيِّ الساحل ، كما قاموا بتشجيرها لتكون متنفّسا لأهالي شبرا» !!

- وربنا المعبود يا جمال لو اتكررت تاني لأخلص عليك بإيدي ، اعمل أي حاجة بس مالكش صالح بولاد المتولي ، احنا ما صدقنا نخلص من موضوعك مع بنتهم ، كفاية كده يا جمال ، ولما تحب تنطّ ابقى نطّ على حد مانعرفوش يا روح أمك !! ما النسوان الرِّمم كتير حواليك ، حبكت يعني بنت المتولي يا نجس ؟!

تنفَّس جمال الصُّعَداء فطفق يقول :

- عَسَل .. وربنا المعبود انت عَسَل يا سِيِد الناس !!

زمجر زكي قائلا :

- طب امشِ غُور يلّه من قُدَّامي ، أُدخل شوفلك شغلانة مع الرجالة في المكتب ، أُدخل يا حيلتها !!

طقطق جمال أصابعه مُبديًا ابتسامة صفراء كشفت عن أسنان طمستها الكيوف ، وبقايا النيكوتين :

- أوامرك يا كبير !!

وفيما هو ينصرف من قُبالته يحدجه زكي بنظرة قاسية عاجبة يعقبها ببصقةٍ يتطاير رذاذها عن يمينه كشظايا زجاجٍ رديء .

-٥-

غرفةُ نومٍ سامح سعيد حسَّان ..

الواحدةُ بعد منتصفِ اللَّيلِ السَّاجِي ..

ضبابٌ يخنقُ الشوارعَ وما فِيها ..

يالهذا الجسد الشاميّ الرّخص !!

يالهذا الجسد العاري الراقدِ مستسلمًا كطاقةِ وردٍ في يدِ بُسْتانيٍّ خَشِنةٍ !!

جسدٌ منحوت بامتياز .. جسدٌ كقطر الندى ، أو كنغمةٍ حُلوةٍ تنطلق مِن وَتَر .

الوجهُ .. سجَّادة عجمية افتنَّ ماهرٌ في نسجها بيدين يلفّهما الحريرُ.. صنية كنافة (نابلسية) خرجت لِتَوِّها من الفرن .

عينان نجلاوان يظلّلهما حاجبان هلاليان .. بينهما أنف دقيق مُنَمنم .. جبين مشرق وضّاء .. خدٌّ أسِيل كورق الورد .. شعر عسْجدي متهدِّل فوق كتفين عاجيين بديعين .. فم رقيق تتلمّظُ الشفاه افتراسه. وذقن دقيق مستدقّ .

الثديان .. حُقَّان .. بارزان .. ناضجان .. مُترعان باللذّة ورحيق الحياة .

فخذان مُلتفّتان ، ممتلئتان ، مقدودتان من المرمر .. تُلْهبان الشهوة، وتستدعيان الرَّغبة .

جسدٌ يفيض جمالا وسحرًا للناظرين .. ويغلي من داخله كغلْي الحميم !!

الجسدُ هو لارا أبو أسعد ، ولارا أبو أسعد هي الجسد !!

زوج سامح حسَّان .. السورية البائسة .. اللاجئة .. من ريفِ دمشق الخصْبِ التجأت إلى ريفِ الأستاذ الكبير البلْقع !!

الجسدُ اللاجىءُ يتململ دومًا تحت جسدِ سامح حسَّان ذي الموتور الذي لا يلينُ أبدًا !!

جسدٌ يعاني تقلّبَ الخريف وكآبته فيما ينتظر بردَ الشتاء وصقيعه المسموم .. مِن همّ إلى همّ يا قلبي لا تحزن !!

كلّ ليلة ، أو نحو ذلك .. يكتنفها :

طقسُ عذابٍ يوميٍّ ،

عينان تَموران بدمعٍ جافٍ ،

ألَمٌ غامض يجتاحُ دُرُوبَ أعماقِها ..

تتململُ .. تبتغي وضعًا مريحًا تحت جسده ، تبتغي موتًا (!!) ريثما يفرغ سامح من مهمته التي يفشل فيها ، فينزل من فوقها مدلدلا أذنه و ... عُضوه !!

تحته ..

تتأوّه ، لا من نشوة بل من مَرارة .. ترتعش ، فينبض قلبُها بعَبَراتٍ تنثالُ كاللؤلؤِ المنثورِ !!

يداه تعبثان بجسدها ، تمرحانِ فيه .. صوتُ فحيحه يُلاحق أذنيها فتتمنّى – لحظَتئذٍ – الصَّمم .. يُقلّبها ، يُقبّلها ، يلعقُ وجهَهَا ، يمصّ رقبتها ، شفتيها ، يلتقمهما .. يمسحُ وجهَه بثدييها .. يهصرُهُما .. يدفن رأسه بين أُخدودِهِما العظيم .. يسيل لعابُه اللَّزج ، ولا فائدة.. فذَكَرُه عصيٌّ عليه .. ما يزال متهدّلا كخرقةٍ باليةٍ .. يتعب، تعلُو أنفاسه فيستلقي على ظهره يتصبَّب عرقًا باردًا فيما هي إلى جواره تحاول أن تكون جثّة مستغرقة في نومٍ عميق ، نومٍ يُنسيها كل شيء في حياتها .. كل شيء خلا أبيها وطفولتها التي كانت !!

(نوستالجيا) تهزّ الأعماق .. تُريح القلبَ الملتاعَ .. تبلّ الفمَ الظاميءَ بقُبلة الحياة ، أو رشفة الحُبور .

***

في ريفِ دمشق حَبَتْ .. درَجَتْ .. سَعَتْ .. خَطَرَتْ .. مَرَحَتْ .. حَلُمتْ ، ولم تحتفظ بلادُها بذلك الحُلمِ !!

بين مطرقةِ ميليشيا الجيش السوري الحر وسندان كتائب بشَّار انسحقت كل الأحلام ، امَّحت الأماني ، ولم يبقَ سوى سحائبِ الدخانِ الأسودِ المتصاعدِ برائحةِ الشواءِ الآدميِّ ، وبحورِ الدمِ القاني المتجمد ، وأكوامِ اللحم البشري اللاجيء المسكون بالهمّ والشقاء ، وبالأمل والرجاء .

نهشت الحربُ أُمَّهَا وأخاها ، ولم يبقَ سوى الأبِ / الملجأ / الحلمِ الجميلِ في الليالي السُّودِ .. أبو أسعد الطيب .

-إلى مصر سنذهب .. ففي مصرَ الملجأُ .. علَّنا نفرحُ تحت سمائِها الضَّحُوك !!

- وهل في مصرَ الآنَ سماءٌ ضحوكٌ يا أبي ؟!

- في مصرَ سماءٌ ضحوك ، وأرضٌ خضراء ، ونيلٌ بديع ، وفجرٌ ندي ، ومساءٌ ذو أسمارٍ وألوانٍ !!

- فماذا تركت لسوريا إذن ؟!

- تركتُ دعاءً يطرق أبوابَ السماءِ كلَّ حين ، وأنينًا مكتومًا يتردّدُ في ريفِها الأخضرِ !!

- يالك من شاعرٍ يا أبي !! حديثُك آية عجبًا !!

- للقدرِ ألاعيبُه ، مقالبُه البائسة ، يطوي الإنسان طيًّا .

حاوٍ .. مهرِّج .. متهكِّم .. مُوجع .. مُحرِّض .. ساخر .. بألفِ وجه .. غَرُور .. مجنون !!

في طريق سامح حسَّان ارتمت ، وبنظرة مِلْؤُها الاستحواذ انطبع الجسد الرخص في مخيلته المريضة ، وبمطعم شاورما فاخر في ٦ أكتوبر وشقة أنيقة فوقه تمَّ تمليك الجسد السوبر لوكس بلَهْ الديلوكس للأستاذ الكبير عالمفتاح !!

بعثتْ شمسُ نوفمبر في الجوِّ دفئًا لذيذًا أغرى سامح حسّان بتناول فطوره في حديقة قصره بالتجمع الخامس ... كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف من صباح اليوم التالي لتلك الليلةِ التي رفع فيها سامح راية هزيمته السرمدية المكرورة على سريره وفي غرفة نومه ، ومع كل لقمة يدسّها في فمه يسترجع حوادثَ ليالي الهزيمة ليلة تِلْو ليلة ، يسترجع ويعبس حين يتراءى ، أمامَ عينيه ، عجزُه كماردٍ جبَّار يفترسه بلا هوادة أو رحمة .. حين يختلس النظرات إلى الماكينة السورية فيجدها موشّاة بالحسرةِ والخجلِ .. تجترُّ كلَّ ليلة أحزانًا يلحظها .. يلعن بصوتٍ خفيٍّ زكي واللي جابوه ومرض السكر الذي ألمّ بجسده فأرخاه بعد إذ كان مشدودًا .

لم يكن مسموحًا لزوجه لارا أن تخرج إلى الحديقة دون نقابٍ ؛ فالقصر يغصّ بالخدم والحشَمِ والحُرَّاسِ فآثرت أن تتناول فطورها داخل غرفتها/ محبسها ، وآثر سامح السلامةَ حتى لا تلتقي عيناهما ، كان يتحاشى ذلك الالتقاء ففي العين يكمن الكلام ، وفي العين يبِينُ ما هو مخبوءٌ تحت اللسان ، وعينا لارا ليستا كأي عين !!

عينان تذهبان بك إلى البحرِ ثم تؤوبان بك عطشان !!

يمسك بالموبايل وينتقي اسم زكي فاضل :

- اِنت صحيت .. مفيش فايدة .. اللي بتجيبه كله هباب زيّ وشك.. ماقلقش إزاي يا بهيم!!... كل مرة بتقول كده يا زكي وفي الآخر جردل التلج بيندلق على قفايا أنا وبس .. أمّا نشوف يا زكي ، أمّا نشوف ... مع السلامة .

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة والربع ، وبعد أن شربَ فنجانًا من القهوة التركية التي يدمنها كل صباح .. نهضَ مسرعًا ودلف القصرَ متوجهًا إلى غرفة نومه التي ما انفكّت لارا بداخلها تتصفّح نسخةً قديمةً من جريدة (الأخبار) كانت قد أجْرت حوارًا مع الأستاذ الكبير / زوجها في صفحتين متقابلتين ، ترتدي بيجامةً حريرية بيضاءَ تبدو فيها كزهرةِ نسرين تشعّ جمالا وتتأرَّج عبيرًا .

- صباح الخير يا لارا . كان نفسي تفطري معايا .

يتشاغل بانتقاء بذلة يرتديها .

- بالنقاب ؟!

يردُّ في تراخٍ وهو يضع بدلته الفاخرة على السرير :

- كنا نفطر عالسفرة جوّه وخلاص ؟!

- نفسي أشوف بابا سامح .

دون اكتراثٍ وهو يرتدي قميصَه :

- بلاش النهاردة ، عندي مشاوير كتيرة ، خليها بكرة ، بكرة هابعت معاك العربية .

- وأكيد انت راح تبعت الحارس تبعك معي ؟!

يدنو منها وهو بنصف ملابسه ويحيط وجهها بيديه :

- يا حبيبتي صدقيني ، أنا شخصية مشهورة ، عامة ، والوضع الأمني في البلد زي الزفت !!

تتراجع خطوة كمن لفحتها ريح صرصر باردة :

- طيب ، طيب سامح .

تخرج الكلماتُ من فمها ميتة ..

فتبدُو كتفَّاحةٍ معطوبةٍ !!

يشرع في ارتداء ملابسه الفاخرة بعناية فائقة غير عابيءٍ بمشاعرها ، كعادته !!

ارتدى بدلة سِينييه أنيقة كحلية اللون دكْناء ماركة Pierre Cardin تحتها قميص لبني وكرافتة بنفسجية اللون مقلّمة بلون بنفسجي أقل درجة . حرص أن تعقدها له لارا لتضع لمسةً ساحرةً أنثويةً عليها . نثرَ عطرًا من ماركة DOLCE & GABBANAعلى ملابسه . حريصٌ على هيئته ، كَلِفٌ بها !!

(شيزوفرينيا)

في إحدى حلْقات برنامجه الأسبوعي « ظلال الإسلام « ، الذي يحقق أعلى نسبة مشاهدة وكذا أعلى حصيلة رسائل SMS وإعلانات تجارية ، سألته إحدى المشاهدات :

٠ ربنا يعزك يا مولانا ، أنا عندي سؤال ... ؟!

- اتفضلي يا أختاه ... !!

- أنا عارفة يا مولانا إن البرفان والعطور محرمة على النساء خارج البيت .. لكن إيه الحكم في استعمال العطور اللي فيها كحول وخصوصا المستوردة اللي مصنوعة في بلاد الكفر ؟!

- جزاك اللّٰه كل خير .. أنا قلت غير مرة : استعمال الطيب ، العطور يعني ، سُنَّة عن الرسول – صلى اللّٰه عليه وسلم – ولكن أي طيب ؟ وأي عطر ؟ عطر الياسمين .. العنبر .. الفل .. المسك طبعًا ، وغيرها من العطور والأدْهان الشرقية اللي مافيهاش نسبة كحول ، لأن العطور اللي فيها نسبة كحول يحرم استعمالها أو ... ممكن نقول : مكروه استعمالها فهي مما عمَّت به البلوى !! لأن الواحد لو أسرف فيها فمن الممكن أن يكون حاله كالسكران ، والرسول – صلى اللّٰه عليه وسلم – يقول : « ما أسكر قليله فكثيره حرام « .. لذا ينبغي الاحتياط سدًّا للذرائع . واللّٰه أعلم !!

فاصل إعلاني ونعود بعد قليل بإذن اللّٰه .

ثم ينهمر سيلُ إعلاناتٍ تجارية جلّها عن المنشطات الجنسية التي تُعيد الشيخَ إلى صباه ، والتراكيبِ العُشبية التي يجزم مخترعُها ذو اللحية والجلباب الأبيض و الطاقية الشبيكة أنها تذهب بفيروس الالتهاب الكبدي C إلى غير رجعة .. فقط عليك أخي المسلم أن تأخذ ذلك التركيبَ العجيبَ المخلوطَ بعسل النحل الطبيعي والحبة السوداء ومطحون الحِلْبة لمدة شهرين متتابعين وبعدها ستبرأ – بإذن اللّٰه وحوْله – من ذلك الفيروس !!!

***

كان يومُ سامح يعجّ بالأعمال واللقاءات .

ففي الساعة الواحدة ظهرًا سيكون على الهواء في برنامجه « ظلال الإسلام « في موسمه الثالث الذي تدور حلْقاته حول (تفسير القرآن والتوراة والعلم) ، وفي الساعة الخامسة سيكون بمقر حزب (الرسالة)، ذلك الحزب الذي أنشأه سامح حسَّان بعد الثورة فاجتذب به عددًا ضخمًا من السلفيين وأنصار السنة وعددًا غير قليل من الجماعة الإسلامية ، أما في العاشرة مساءً فسيكون مسك الختام .. سيكون على موعد مع السعادة .. مع الرجل القوي في الجماعة .. سيكون مع المهندس خيري أمين في فندق كونراد ، ومع وجبة العشاء الفاخرة ستكون الأماني ، الأشواق ، المصالح ، المجاملات ، المناورات ، المداهنة ، الاستهبال .... سيكون القدَر الذي يرسمه بعناية لنفسه !!

« قدَري وأنا الذي أرسمه ، أُخططه ، وأنا عليه قدير» !!

في السرير فأرٌ مذعورٌ ، وبين الناسِ ، وأمام خيري أمين أسدٌ ، ليثٌ، غضنفرٌ !!

لقد عزم على شيء يخبر به خيري أمين ، شيء لن تستطيعَ قوةٌ أنْ تُثنيَه عنه !!

- بعد الحمد والثناء على الله تعالى بما هو أهله ، وبعد الصلاة والسلام على النبي وصحبه ، وبعد أما بعد تتدفّق الحكايات كالماء المنهمرِ ويفيض القصص وتُقرأ الآيات وتُروى الأحاديث ، وتنتفض العروق ، ويسيلُ اللِّسانُ بكلِّ غريبٍ .. وتتسرَّبُ الحكاياتُ من فمه إلى العقول والقلوب كسائلٍ سحريٍّ .. هو مدرسةٌ في التفسير .. هو كلُّ شيء في تلك المدرسة : ناظر . معلّم . إداري . ساعٍ .. عامل !!

« مع احترامي لجميع المفسرين ، القدامى والمحدَثِين ، كلهم على رأسي من فوق ، لكني صاحب مدرسة ، رؤية خاصة في التفسير ، ومع احترامي للمرحوم الشعراوي فأنا رجل أكاديمي ، ولست مفسِّرًا للقرآن كتفسير المصاطب !!

« وفي حلْقة اليوم كلٌّ جديد ؛ فلسوف أتناول التوراة ككتاب مقدس نالته بعض التحريفات إلا أنَّه يعضّد ماجاء في القرآن وليس ما أتى به علماءُ الكفر التجريبيون ليشغبوا على قرآننا ونصوصنا المقدَّسة باسم العلم التجريبي !!

« يقول اللّٰه في القرآن : « وكان عرشه على الماء» ويقول العهد القديم : « في البدء خلق اللّٰه السموات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية ، والظلمات تغطي اللجة ، وروح اللّٰه يرف على المياه» ، وهو ما يتوافق مع الآية : « الحمد لله الذي خلق السموات والرض وجعل الظلمات والنور» إيه رأيكم يا سادة فيه توافق أم ليس هناك توافق بين القرآن والتوراة ؟! لا نريد أن تعمينا العصبية وكره أبنا ء صهيون عن كتابهم وما فيه من آيات تدعم قرآننا ، أنا لا أعترف بالعلم التجريبي لكني أعترف بكتب اللّٰه المقدّسة ومنها التوراة !!

العلم التجريبي بتاع الكفار بيقول : إن الليل والنهار من صنع الشمس والقمر ، وإنهما من صنع الأرض التي تدور حول نفسها كل يوم مرة ، شايفين الخيبة ، كفر وتكذيب للقرآن ، يا سادة التوراة اللي بيقولوا عليها بتاعة اليهود أفضل من العلم بتاعهم ؛ لأن الظلمات والنور أي الليل والنهار من صُنع ربنا الواحد الأحد وهو ما تقول به التوراة حيث خلق اللّٰه الشمس والقمر في المرحلة الثالثة من مراحل الخلق يعني في اليوم السادس أما الليل والنهار فقد خلقهما اللّٰه في أولى المراحل» .

طب قبل ما نطلع فاصل خذوا هذه الآية : « هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نورًا وقدّره منازلَ لتعلموا عدد السنين والحساب» هل تعرفون حضراتكم أن هذه الآية تتوافق مع نص في الاصحاح الأول من التوراة يقول : « وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل ، وتكون علامات للأعياد والسنين ، ولتكن أنوار في جلد السماء لتضيء الأرض وكان كذلك ، وعمل الله المنيرين العظيمين ؛ المنير الأكبر لحكم النهار ، والمنير الأصغر لحكم الليل ، والنجوم جعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض ، ولتحكم على النهار والليل ، ولتفصل بين النور والظلمة ، ورأى الله ذلك أنه حسن وكان مساء وكان نهار اليوم الرابع» !! ...

علم تجريبي قال ؟!! ...

ثم بصوتٍ هاديءٍ واضحٍ : اِطلع بنا يا ابني فاصل!!

في تلك اللحظة ، كانت عروقُ جبهته تدقُّ دقًّا متواصلا ، وتفيض نفسه اضطرابًا واصطخابًا فأنشأ يعبث بصفحات كتابٍ أمامه ذي تجليد فاخر أنيق فيما يده الأخرى ترفع كوبا من الماء إلى فمه . لم يكنْ ذلك الكتابُ الأنيقُ سوى التوراة !!

***

دقّت الساعة الخامسة والنصف ثم السادسة ثم السابعة وسامح حسَّان ما يزال ثابتًا في مكانه على كرسيّه الوثير كصخرة ومِن حوله رموزُ ووجهاءُ حزبه يسترجع معهم ماتمّ إنجازه في الأسبوع الفائت ، ذلك الأسبوع الذي شهد موجات اعتراض متتالية على قرارات الرئيس ودعوات للاعتصام في

التحرير والمحافظات ومقاطعة أية انتخابات تتم بإشراف حكومته التي تخبط خبط عشواء . وأخيرًا .. نهض من مكانه وقصد إلى ثلاجة صغيرة ثاوية في ركن قصيٍّ من غرفة الاجتماعات ففتحها وتناول زجاجة عصير وشرع يشربها ابتغاءَ ضبط مستوى السكر المنخفض في دمه إذ لم يتناول وجبة طعام منذ الصباح في محاولة منه لإفراغ معدته من كل طعام استعدادا لما سيُلقى بها في العاشرة مساءً من عشاء ساخن شهي مع المهندس خيري أمين الذي يتفنّن دومًا في قائمة طعامه ما بين لحوم ساخنة وباردة وأسماك مدخّنة غنيَّة بالفسفور .

- عموما أنا عاوز مجهود أكتر من حضراتكم في الأيام القادمة ، اعملوا ندوات في الأحياء ، انزلوا القرى ، الأحياء العشوائية ، وزّعوا مطبوعات وبروشورات ، اعملوا قوافل طبية مجانية ، اعملوا توعية لمساندة الرئيس ، اتكلموا عن الغزو الصليبي اللي الأحزاب المدنية بتحاول تعمله ، اِلْعبوا على هذا الوتر . النصارى أيضًا ممكن يكونوا في الصورة ؛ حاولوا تربطوا دائما بين الأحزاب المدنية بكل اتجاهاتها الليبرالية واليسارية والقومية والناصرية وبين نشاط الكنيسة ومحاولة جرّ البلد باتجاه مُعاكس للدين . الوتر ده رائع التأثير وبالذات في الأقاليم والقرى والمناطق الشعبية والفقيرة . أما الشرقية فسيبوهالي ، أنا إن شاء اللّٰه نازل مركز هِهْيَا قريبًا ، الإخوة هناك بيجهزوا لمؤتمر كبير جدا ضخم . المؤتمر ده هايكون أكبر دعم للرئيس .. ممكن تتفضَّلوا الاجتماع انتهى .

ينهضون من مقاعدهم وقبل أن يغادروا غرفة الاجتماعات يرفعون أيديهم بدعاء ختام المجلس مردّدِين وراء سامح حسَّان الذي ما يزال واقفًا بجانب

الثلاجة :

- « سبحانك اللهم و بحمدك ، أشهد ألا إله إلا أنت ، أستغفرك و أتوب إليك . بسم اللّٰه الرحمن الرحيم . والعصر . إن الإنسان لفي خُسر .إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوْا بالصبر» !!

ويغادرون جميعا خلا واحد ...

خلا زكي فاضل الذي يبثه سامح حسَّان همَّه ، ويروم منه المساعدة .

ويبدآن – كعادتهما – في ملء الأسطوانة المكرورة . المشروخة . المكذوبة :

- الموتور عطلان يا زكي .. إيه العمل ؟!

وينطلق لسان زكي :

- الدكتور علي هايجهزلي علبة كباسيل أمريكاني أصلي اسمها ماكس مان ... أأأأو مان ماكس ، حاجة كده يعني إنما إيه يا ريّس ... حكاية..... !!

وبوجه شاحب لا ينبس سامح ببنت كلمة مكتفيا بمطِّ شفتيه مردِّدًا في نفسه :

- « اللّٰه يخرب بيتك يا زكي انت وعلي بتاعك» !!

ويبقى مُلازمًا صمته !!

- ٦ -

القاهرة .. الساعة ١٥ : ١٠ مساءً ..

النجومُ في قُبةِ السَّماء تنتثر ..

فندق كُونراد .. المطعم ..

لا شيءَ بينهما سوى مائدةٍ عليها صِحَافُ طعامٍ شهي وشمعدان ، و... بصيصِ مناورةٍ تتسلّل !!

قاعةُ المطعم ذاتُ الضوءِ الخافتِ تخلو من زبائنها .. فالليلة غير أي ليلة ؛ ليلةٌ محجوزةٌ من أسبوع فائت . بأمرٍ من المهندس خيري أمين وبمبلغٍ يشمل ضريبةَ الخدمة والبقشيش وخلافهما حُجز مطعمُ الفندق الفاخر لتكون في مكان قصيّ منه مائدةٌ يجلس عليها خيري أمين أقوى رجال الجماعة نفوذًا وأموالا وسامح حسَّان أقوى رجال هذا الزمان تأثيرًا وجمهورًا . لم يكن ذلك اللقاء بالأول أو الثاني أو الثالث ؛ فكم من لقاء جمعهما لا ثالث لهما فيه ؛ فكلامهما ليس كأي كلام ، ومناوراتهما ليست كأي مناورة . يعتبره خيري أمين رجل المواقف الصعبة يلجأ إليه كلما احتاج حشدًا أو قوة ، لا يرفض له طلبا ، يضرب على أوتار ضعفه فينشيء لحنًا من المصالح بين الجماعة والأستاذ الكبير !!

إن أنت دقّقت النظر في ملامح خيري أمين فلن تجد ملمحًا واحدًا ينطق بتربة أرض مصر ورصانة تكويناتها التي شكّلها النيل وأوقدتها الشمس

وأنضجتها كما أنضجت سنابل قمحهم . ملامحه شامية بامتياز: رأس كبير ضخم .. شعر قوقازي مموّج .. عينان ثاقبتان كسهمين من لهب .. أنف روماني تحته فم صغير لا يتناسب مع ضخامة رأسه وتكوينات وجهه .

من إحدى قرى الدقهلية ارتحل مع أسرته إلى الإسكندرية فالتحق بكلية الهندسة بجامعتها ثم انضمَّ إلى الجماعة في سبعينيات القرن الفائت ثم طاب له المقام في السعودية مهندسًا فمقاولا فصاحب شركة عقارية من الباطن فحلْقة اتصال وتنسيق بين المخابرات السعودية و الجماعة إبّان الحرب الأفغانية / الروسية .. إلى أن عاد في أواخر الثمانينيات يلتحف بالثروة والجاه والنفوذ .

عاجبًا ، يقول سامح :

- إيه الحكاية يا باشمهندس ، هوَّ مفيش حد غيرنا في المطعم ولا إيه ؟!

بضحكة مصنوعة :

- تقدر تقول كده يا شيخ سامح .. ولا أقول : أستاذ أحسن ؟! الليلادي بتاعتك انت وبس !!

يحفظه سامح عن ظهر قلب .. قيُبادله ضحكة مصنوعة صفراوية هو الآخر :

- انت بالذات يا باشمهندس تقول اللي انت عاوزه ... احنا مش هانتجدد على بعض ، دي عِشْرِة عمر يا خيري بيه !!

- طبعا .. طبعا .. عِشْرة عمر .. إزي أخبار مدام لارا يا سامح ؟!

قالها وهو يقطع بسكينه اللامع شريحة لحم بارد أمامه .

- عال العال .. البنات السوريات دول يا أخي لهم مذاق تاني خالص!

- انت هاتقوللي ؟!! مجرَّبينه يا كبير !!

كانت الزوجة التاسعة لخيري أمين سورية وبعد إذ بنَى بها بنحو عشرة أشهر وضعت طفلةً أسماها رُفيدة وما انفكّ خيري يتفاخر بفحولته أمام غيره .. تلك الفحولة التي نفخت بطنَ الزوجة السورية التي تصغره بثلاثين سنة ولما يمر على زواجهما عشرة أشهر !!

يعقد سامح مقارنة سريعة بين فحولة خيري أمين وبين ضعفه الذي يؤرقه ويجعله في رُبع هدومه قُدَّام « المَكَنة» ! السورية اللاجئة التي اقتناها ، فتضطرب الملعقة والشوكة في يديه اضطرابا يلحظه خيري أمين فيُتمتم سرا بالمعوذتين اتقاءًا للحسد . وبيد مضطربة يضع سامح قطعة لحم في فمه ويردف قائلا :

- المهم يا باشمهندس ، خير ؟!

لم يُبدِ خيري تعبيرًا .. يضع الشوكة أمامه بهدوء ، وبأناة يلوكُ مُضْغةَ لحمٍ في فمه كمن يستحلب أفيونا :

- كل خير طبعا .. دائما نجتمع على الخير يا أستاذ سامح ..

يرنو صمتٌ يسيرٌ بينهما فيقطعه خيري بقوله :

- شوف يا أستاذ سامح ، انت عارف إنك راجلنا وواحد مننا والوالد اللّه يرحمه كان من أقطاب الجماعة المخلصين و .... !!

يبتسم سامح فيبدو كطفلٍ غريرٍ ويقطعُ حبلَ كلام خيري وديباجته المملَّة قائلا :

- يا باشمهندس أنا عارف كل الكلام ده .. دا غير إنك – ماتآخذنيش – بتكرره في كل مرة نتقابل فيها .. خُشّ في الموضوع على طول وماتِنكسِفْشِ مني .. انت لسه قايل إني واحد منكم !!

مُغمغمًا :

طبعا طبعا .. !!

وبعد أن يجمع أشتات نفسه التي فرّقها سامح كالشظايا بكلامه يتابع قائلا بنبرة ثقة غير محدودة :

- شوف .. من غير لف ودوران .. انت عارف طبعا إن المحكمة بعد كام يوم هاتحكم في قضايا تخصّنا قصدي تخصّ الجماعة .. وانت عارف إن القضا مُسيّس وبيننا مشاكل من يوم ما الرئيس مِسِك .. فالمتوقع أن تكون الأحكام صادمة وفي غير مصلحتنا و ....

يقاطعه سامح :

- أنا عارف يا خيري يا خويا إن القضاء بتاعنا مسيّس ومش ميّال لحكُمكم بس إيه المطلوب مني تحديدا .. أنا مش محاميكم في القضايا دي ؟!!

يُدرك خيري يقينًا أنَّ سامح يستعبط ويعمل فيها واحدًا أهبل فيبسم له ابتسامة بلون صفار بيضة ويقول وقد بانت ملامحه كلها :

- أنت لمَّاح يا أستاذ سامح ، وتفهمها وهيّ طايرة ، ودومًا نلجأ إليك في المُلمَّات والنازلات !!

يرجع بظهره إلى الوراء قليلا وكيانه يفيض ثقة لا نهائية :

- أكيد محتاجين مني دعم ع الأرض ، حشد ، جمهور ... !!

مقاطعا :

- بالظبط .. ومش كده وبس . احنا محتاجين تأييد في برامجك ، في القنوات اللي بتظهر فيها !!

يدرك سامح أنه سيكون الرقم الصعب في تلك المعادلة ؛ فهاهي ذي الجماعة بجلالة قدرها و استوائها على السلطة تغذّ السير إليه . تلج عتبته . تخطب ودّه . وها هو ذا يتدلَّل ويضع ساقًا فوق ساق ويصيخ السمع لخيري أمين الذي يأتمر بأمره كل مَنْ في الجماعة ، وهاهو ذا خيري أمين ينفخ فيه ؛ فيبالغ في مديحه وإطرائه ويقول :

- تسلم يا كبير ، والله الذي لا إله غيره أنت رجلنا المخلص الحبيب!!

لحظتها ، ولحظتها فقط ينتشي سامح وينتفخ كمنطاد ويشرع في تناول الطعام الفاخر مرة أخرى ثم يردف قائلا :

- العفو . العفو يا باشمهندس . فما أنا وأنت وكل المخلصين إلا جنودًا في خدمة المشروع الإسلامي !!

لقد بدأ المديح يؤتي ثماره .. إلا أنَّ مناورةً وابتزازًا من سامح لا مفرَّ منهما ؛ فهو يفهم أنَّ لعبة السياسة ليست سوى مصالحَ متبادلةٍ «شيّلني وأشيّلك ، نفّع واستنفع» !! .. وما هي إلا لحظاتٌ يسيراتٌ ويُغمغم سامح بعد تنهيدة :

- مممممممم ... بس يا خيري بيه .. !!

بَدَا شحوبٌ مُخيف على وجهِ خيري فقال بصوت متقطّع مضطرب وقطعة سمك مدخّن في حلقه :

- بس إيه يا كبير .. قول كل اللي في نفسك .. انت عارفني أنا بحب الصراحة !!

رمقه سامح بنظرة طويلة ثم تنهد وقال منًّا وأذى :

- انت عارف إني بأضحي كتير ، وباخسر كل يوم .. اوعى تفتكر يا خيري بيه إني باخسر جمهور .. بالعكس أنا كل يوم باكسب جمهور من كل الفئات والطبقات . جمهور يملى استاد القاهرة .. بس في المقابل باخسر مؤسَّسات الدولة كلها : شرطة . جيش . قَضَا . الأزهر .. !!

مقاطعًا :

- والمطلوب يا أستاذ سامح ؟!

سرَتْ لذّةٌ خفيةٌ ، بل لذّاتٌ متتابعات في نفس سامح فأحسّ برئتيه تتنسّمان نسيمًا عليلا لا يدري من أين جاءه . أحسَّ بأطيار تعزف على الأشجار النديّة لحنًا عذبًا أنساه كل شيء . كل شيء حتى عجْزه عن اختراق آفاق لارا الساحرة ، فقال كالمُختال في الربيع الناضر :

- الدورة الجاية أكون أنا الرئيس !!!

احتبس صوت خيري كمن حُبِسَ في حجرة محكمةِ الإيصادِ ، وارتجف برغم أنه حاول أن يضبط شعوره وقال :

- حقك .. طبعا حقك .. أنا عن نفسي هانتخبك لو رشّحت نفسك.. أنت من رجال المشروع الإسلامي وياما قدّمت خدمات جليلة لنا ولمشروعنا ....

فضحك سامح بصوت عالٍ وقال مقاطعا :

- أنا أعرف إنك طول عمرك مجامل يا باشمهندس لكن ماعرفش إنك مش صريح !!

بغضب يسير :

- قصدك إيه يا شيخ سامح .. والله أنا كتاب مفتوح أمامك !!

- ماهو علشان كده باقولك إنت مش صريح معايا الليلة !!

عابسًا :

- ازاي يعني . مش فاهم ؟!

حمْلَق سامح فيه قائلا :

- أنا لما با قولك عاوز أكون الرئيس الدورة الجاية ترد عليا وتقول: آه أو لأ .. أنا مش محتاج صوتك اللي أنا مقدّره طبعًا .. أنا أقصد إن الجماعة كلها تساعدني زي ماأنا بساعدها .. شيِّلني وأشيلك يا خيري بيه !!

امتقع وجه خيري وغيظ من كلامه واستشعر أنَّ سامح حسَّان «واخد الموضوع جد» ولن يتنازلَ عن حُلْمه القديم بدخول الاتحادية فأردف :

- وأنا باوعدك إن الموضوع ده هنناقشه في أول اجتماع للمكتب ، ولغاية ما نناقشه ، وده بقى وعد وسِيف على رقبتي ، ساعدنا وفي مساعدتك لنا أهو انت بتساعد نفسك كمان !!

فأجابَ سامح ضاحكًا :

- وماله يا خيري بيه نساعد بعض .. كل اللي أنا عاوزه منك .. قصدي منكم .. إن مايكونش لكم مرشح في الدورة الجاية غيري !!

تنهَّد خيري أمين وقال :

- أوعدك .. أوعدك يا أستاذ سامح !!

وأنشأ الاثنان يستكملان عشاءهما فيما يدُ خيري مضطربة ، وفي جوفه غُصّة أفسدت طيب الطعام . أما سامح فقد كان ثملًا بخمرة النصر .. مُنتشيًا كتاجر هولندي قديمٍ باع لتوِّه أبصالَ زنابق جبليةً نادرةً !!

- ٧ -

مقهى (زهرة البستان) .. وسط البلد ..

غُروبٌ بلونِ البرتقالِ .. وطعْمِ النّعْناعِ !!

يقول ، عاتبًا ، طارق الرفاعي رئيس تحرير (الجريدة) لرائد حسين بعد أنْ يرتشفَ كوبًا من الماء :

- مقالك وقلمك عالي قوي يا رائد ، قولتلك قبل كده تشتغل معايا بس انت اللي صلّبت دماغك ورُحت مع أنيس العليمي !!

أجابه رائد وهو يتذكّر ذلك اليوم الذي أغراه أنيس فيه بالخمسة آلاف جنيه التي سيتناولها في يده أول كل شهر :

- آدِينا بنتعلّم يا أستاذ طارق .. معلش .. كل يوم بنتعلم !!

طفق طارق يضحك ضحكا متواصلا كطفل بريء قائلا وهو يدسّ إبهاميه خلف حمَّالتي البنطلون التي يحرص على ارتدائها كل يوم حتى صار أشهر من يلبس تلك الحمالات الملونة في برِّ مصر :

- لا وانت الصادق يا حلو انت بس ريّلت على الكام ألف اللي أنيس كان بيدهوملك كل أول شهر لكن احنا يا عم غلابة ، كبيرك معانا كان هايبقى ألف ونص ألفين بالكتير !!

مغمغمًا :

- حصل خير .. احنا ولاد النهاردة .. ثم بنبرة خفيفة : بس ممكن أسألك سؤال يا أستاذ طارق ؟!

- اتفضَّل يا حبيبي .

- انت كنت تعرف إن جورنال أنيس بتشغّله فلوس من قَطَر ؟!

باسمًا :

- بُصّ يا رائد ، مهنة الصحافة زي أي مهنة فيها وفيها ، المهم لما حاجة تتعارض مع مبادئك تقف وتقول : stop !!

- أستاذ طارق انت بتتهرب من سؤالي !!

قالها وهو يُدقّق النظر في عين طارق الرفاعي اللتين تبدوان ضيقتين خلف عدسات نظارته السميكة محاولا استنطاقهما بما يحاول أن يخفيه . فعاجله طارق بضحكة صاخبة قائلا :

- طبعًا عارف يا فِتِك !! طول عمرك فِتِك وشاطر ، أشطر صحفي في جيلك بس المرّادي الخمستلاف يا حِلْو عمُوا عنيك !!

شحب وجهه ، وصمت للحظات ثم قال :

- أرُوبة يا أستاذ طارق واللّه .. طب مانبهتنيش ليه من الأول ؟!

كان لازم أسيبك تكتشفها بنفسك .. وكنت متأكد إن أيامك في (الشرق) معدودة . مفيش حدّ عنده مبدأ ومروءة يستحمل دمّ أنيس اللي عامل زيّ المربى ، وتعاملاته المريبة طب أزيدك من الشعر بيت ؛ أنيس العليمي كل سنة تقريبا بيغيّر أثاث قصره من لندن من محلات warin and Gillow ودي أفخم محلات أثاث يهودية في لندن، هايعمل إيه أهو بيقلّد شركاؤه في الجريدة ؟!! .. المهم كفاية كلام في سيرته . الراجل زمانه شرقان !!

ويُطلق ضحكةً زاعقة فيما ندت عن رائد نظرة ساهمة ؛ فلم ينطق بحرف واحد .

يأتيهما النادِل بكوبين من الشاي مع طاقةٍ من النعناع الأخضر في كوب من الماء البارد ، مُرحّبًا بالأستاذ طارق الرفاعي «اللي بيهلّ علينا في زهرة البستان زي البدْركل شهر مرة» ... يضع الصينية ثم ينصرف .

يقول بعد أن خلع عباءة الصمت :

- صدقت والله يا أستاذ طارق .. تعرف أنا مبسوط جدا لأني سِبت جورنال أنيس ومبسوط أكتر لأني قاعد معاك على زهرة البستان !! عارف إنك بتحب وسط البلد زيي تماما يا رائد .

- أنا باعشقها . باعشق شوارعها . ناسها . محلاتها . قهاويها . مكتباتها، مبانيها اللي بتفكرني بمصر الحلوة . اللي كنا بناخدها في التاريخ زمان!!

- لالالا .. دا انت شكلك بقيت بتقول شعر يا رائد ؟!

يقولها طارق الرفاعي وهو يغمس أوراق النعناع الأخضر في كوبي الشاي ، ثم يردف قائلا :

- اشرب يا رائد أحلى شاي بالنعناع . ماتتصورش أنا سعيد بوجودك معايا في الجورنال قد إيه !!

يحتسيان الشاي بالنعناع فيما تكتسي السماء فوقهما بلون البرتقال .

***

يومان بعد اللقاء مضيا .. يومان بطعم الفاكهة . بطعم النعناع !!

يومان أحسستُ فيهما بذاتي . صحفيو الجريدة زملاء مهنة لكنني أعرفهم واحدًا واحدًا . ويعرفونني .

الآنَ وقد رجعت إلى أصلي ، رُشدي . أتنسّم عبيرَ المروءة والمبدأ .

« ليتني اليوم أقرض شعرًا . قصيدةً أنفث فيها مواجع الفؤاد وتباريح القلب المتألم على أيام خلت .. لكن لا بأس ، فلن يضيع الوقت سُدى بعد الآن» !!

ولو قد كان شاعرًا لتدفّقت المعاني تترى ولَسالت الخواطر سيلانا تلوم النفسَ تارة ، وتعتذر لها تارة أخرى ، ولا يدري لمَ طاف بذهنه طائفٌ من شعر محمود درويش الذي يحفظ معظمه :

« حملتُ صوتكَ في قلبي وأوْرِدتي

فما عليك إذا فارقتَ معركتي

أطعمتُ للريح أبياتي وزخرفها

إن لم تكن كسيوف النار .. قافيتي !

آمنتُ بالحرف .. إما ميتا عَدَمًا

أو ناصبًا لعدوي حبل مشنقة

آمنتُ بالحرف نارًا .. لا يضير إذا

كنتُ الرمادَ أنا .. أو كان طاغيتي !!

فإن سقطتُ ... وكفِّي رافع علمي

سيكتب الناسُ فوقَ القبرِ :

لم يَمُتِ»

***

كان رائد قد اتفق مع طارق الرفاعي ، بعد انتهائه من سلسلة المقالات التي حجبها أنيس عن النشر ، على تقديم مقالات جديدة متتابعة عن اليمين الديني الذي تسنّم السلطة واستوى عليها عبر انتخابات لعب الدينُ فيها ورَتَع ، ثم إعلانات دستورية (..) فرضت أمرًا واقعًا وشطرت المجتمع شطْرين بينهما بون واسع وهوّة عميقة من الاختلاف القاتل والتربّص المستفز .
صادفت تلك الأفكارُ هوًى في نفس طارق الرفاعي وخاصة أنها تنفذ إلى داخل تيارات الإسلام السياسي في محاولة لكشف اللثام وإزاحة الأستار عنه

من الداخل بعد أن كشف عن علاقات ذلك التيار بالولايات المتحدة وحلفائها في أوربا والشرق الأوسط .

عكف رائد على إعداد مادة تلك المقالات آملا أن يتقبلها القراءُ بقبول حسَن . جمع كتبا ووثائقَ واستغرق في العمل . تصفّح مواقعَ بحثية متباينة ، جمع معلومات عن شخصيات تلعب في الظل وشخصيات تدور الأحداث حولها . وشخصيات ترتزق من دوران الأحداث حول شخصيات أخرى (..) شخصياتٍ لا ينطفيءُ اللهبُ المقدّسُ ، الذي يشعله أتباعهم الأغفال ، في معابدهم ولا يخبو .. فهُم كهنةُ ذلك الزمانِ !!

فتحتُ متصفّح Google وكتبتُ « سامح سعيد حسَّان « . طالعْت أخبارًا كتبها بنفسه أو أضافها محبّوه في الـ « ويكيبديا « كلها أخبار تصوره كإنسان فذّ . عبقري . مختلف . نصفِ إله . كلا ، بل هو كاهن ، هو كبيرهم .. معبودهم .. صور .. أخبار .. حكايات .. معارك.. حوارات .. و « التعلب فات فات وف دِيله سبع لفَّات « !! مقاطع مصوّرة على الـ You Tube . كلها تمدح ولا تقدح ، ترفع ولا تخفض.. أليس بشرًا مثلنا ؟! يالمصرَ وناسـها الطيبين !!

صورٌ لأبيه الأزهري المعمّم ، قُطب الإخوان الكبير ، ورفيق حسن البنّا ، وعضو مجلس الشعب في الثمانينيات . صورة عائلية قديمة .. أبيض × أسود .. الأب المعمَّم يقف شامخًا كنخلة وإلى جواره زوجُه جالسةً باسمةً .. على يسار الأب يقف وفيق الابنُ الأكبرُ الوسيمُ ، مهندس مِعمار ، هاجر إلى أمريكا منذ سنين طويلة ، وعلى يمين أمه يقف سامح يطوق جِيدها بذراعه . كان سمينًا وقتذاك لكن ملامحه الساذجة كطفل غرير ماتزال هِي هِي .

تملّكني القرف وألحّت عليّ القراءة بعيدًا عن اللاب توب ، هاهو ذا كتابي الأثير يرنو إليّ مشتاقًا . كلَّما قرأته أفدتُ جديدًا . فتناولته مشتاقًا وفي ذهني علامات استفهام كثيرة تتخذ شكلَ وهيئةَ ذلك الكاهن / سامح حسَّان .

مقطع من كتاب « لُعبة الأُمم « الأخلاقية في سياسة القوة الأمريكية.. تمرّ عيني على عبارة المترجم :

« تعني عبارة لعبة الأمم ذلك النشاط الذي بدأته وزارة الخارجية الأمريكية في واشنطن بُغية وضع المخططات المناسبة لبسط النفوذ الأمريكي على بلاد العالم عن طريق السياسة والخداع بدل اللجوء إلى الحرب المسلَّحة .

« وهكذا يقترب معنى هذه الجملة من التخطيط السياسي للصراع على مناطق النفوذ في العالم عن طريق الحرب الباردة» .

سأعكفُ على تحرير آخر مقالٍ في سلسلة مقالاتي : (في مصرَ الآن .. من يدفع للزمَّار) .

يستوي على كرسيّ مكتبه ويشرع في إشعال سيجارة . يكتب عدة سطور ثم يقصد إلى المطبخ لإعداد كوبٍ من الشاي . وضع فيشة الـ Kettle في الكهرباء وطفق ينتظر صوتَ تلك التكّة وانطفاءَ تلك اللمبةِ الحمراءِ الصغيرةِ التي تؤذن بوصول الماء إلى درجة الغليان وفي ذهنه تتوالى أفكار مقاله وتتصارع ... كانت سيجارته الثانية قد أوشكت على الفناء فسحب نفَسًا أخيرًا منها قبل أن يدفنها في كوبٍ على الحوض الاستانلس به ثُمالةُ شايٍ تضمّ رفاتَ عددٍ ليس بقليل من أعقاب السجائر . خرج قاصدًا إلى غرفة مكتبه حاملا كوب الشاي و ... أفكارًا شتّى انتهى في المطبخ من ترتيبها .

***

في تلك اللحظة ... كان الليل قد انتصف ، وبالخارج ضبابٌ وصقيعٌ ..

دلف سامح غرفة نومه فألفاها مظلمة ولارا تغطّ في نومٍ خُيّل إليه أنه عميق ، ينير أباجورة في جانب كرسي الفوتيه الذي ارتمى عليه ثم خلع جاكت البدلة وطفق ينتزع حذاءه ويسلخ شرابًا تلو آخر .. يلتزم بكلام الأطباء ؛ فمرض السكر صديقٌ خائن ، ألعوبان ، ومشاكل القدم السكري لا حصر لها ؛ فشرابان من القطن كفيلان بالحماية .. تبدو على صفحة وجهه وتحت عينيه آثار الإرهاق . يُخرج من جيب بنطلونه شريط حبوبٍ مُنشِّطة قد فُضَّ منه حبّتان. يتأمله وهو يمط شفتيه ثم يدسّه في جيبه مرة أخرى . يميل برأسه إلى الوراء وماهي إلا دقيقتان وتأخذه سِنَة من النوم .. يرى أباه في هيئته الأزهرية ونظارته الطبية الغليظة في حديقة غنّاء تُغرِّد فيها الأطيار ممسكا دراجة صغيرة عليها طفل سمين ، مكلبظ ، الطفل يبكي محاولا ركوب الدرَّاجة بمفرده فلا يستطيع ؛ حيث لا يستغني عن مساعدة ذلك الشيخ له .

- باقولّك اِرْكب يابن الكلب . ماتخافش .

- مش عارف يا بابا . هاقع . هاقع !! (وفي البكاء ، ينخرط) .

- اركب .. اركب يا جبان .. مانتاش فالح يا بْن أُمّك !!

ينهض فزعًا . يفرك عينيه . جبهته تتصبّب عرقًا . يُتمتِم بكلام خفيّ كاستعاذة . يدسُّ قدميه في شبشب طبي ماركة Scholl ثم يسعى إلى خارج الغرفة مغلِقًا الباب وراءه في هدوء . يهبط السلالم الداخلية للفيلا ... يلجُ حجرةَ

المكتب . الحجرةُ واسعة يتوسطها مكتب أنيق . يتهالك سامح على كرسيّ ومن خلفه مئات الكتب والمجلدات . يُخرج من جيبه شريط المنشط الذي يتأمله مرة أخرى ثم يضعه في درج المكتب . ينهض وقد استردّ جزءً من عافيته وينتقي من بين الكتب كتابًا ضخمًا ذا تجليد يدويٍّ أنيقٍ ، وأنشأ يتصفحه .. كان يقرأ في نهمٍ شديدٍ . ولمَّا أنْ بلغ صفحةً بعنوان : « الوعْي الجمعي وحكايات التوراة» مرّت إزاءَ عينيه الحكاياتُ الأثيرةُ إلى قلبه ، وطافت بعقله لذّةٌ غامضةٌ كبرى نسي معها الزمان والمكان . كعرائس الأحلام في مواكبها المُوشّاة المُزيّنة بالدّرّ مرّت أمام عينيه حكايات : الزنى المقدّس لابنتي لوط ، وتامار ويهوذا ، وصفورَة وموسى ، واغتصاب تامار في قصر الملك داود ومحظيَّات سليمان السبعمائة اللائي جمعهنّ لطموحٍ سياسي لا لمغامرات جنسية فحسب (..) ... « يالهذا النبي الملك سليمان ويالَفحولته .. بالتأكيد لم ينهشْ السكرُ الملعونُ أعضاءَه ولم يُضعضِعها ، ياليتني كنت سليمانَ الملكَ فأفوزَ فوزًا عظيمًا» !!

لم يكن ذلك الكتاب سوى كتاب بعنوان : (الإسرائيليات والإسلام – أصول وارتباط) تأليف الشيخ : جاسم بن عطية المرّي من نسختين : الأولى مع مؤلفه ، والأخرى مع سامح !!!

من ثنايا الحكايات هاجت شهوته ، واستغرق فيما يشبه الحلم وهو يجيل بصره و يشطح بخيالاته في صفحات الكتاب فلم يشعر بسهام الفجر الفضية وهي تهتكُ أستارَ الليلِ .

في الصباح .. سامح مع لارا يتناولان فطورهما ..

- ليش ما فيّقتني امبارح وقت ما وصلت ؟!

قالتها لارا وهي تمزج اللبن بشاي الصباح . فيبادرها سامح قائلا وآثار إرهاق بادية تحت عينيه :

- محبتش أقلقك وأنت نائمة .

- عن جد كتير كنت مزهّقة ، وبحاجة إني أرتاح .

استرجع سامح حاله معها عندما لا يستطيع اختراقها كذكر ، فقال بصوتٍ خفيضٍ وقد احمرّت وجنتاه لحظة :

- اعذريني يا لارا إني مقصّر معاك ، أنت عارفة إن السياسيين بتتأثّر حالتهم النفسية والجنسية بالضغوط والمود اللي بيعيشوه . بس أوعدك إني هاشوف حلّ للموضوع ده . كل شيء وله حل !!

كمن تحنو على وليدها :

- أهم شيء ادِّير بالك على حالك ، وكون على ثقة إنو ما بهمّني هاد الموضوع كتير ، يكفي إنك جنبي وموفّرلي كل شيء و ... بتعاملني منِيح !!

كمن وجدَ ما فقده :

- تسلميلي يا لارا .. يا أحلى لارا في الدنيا .

كانت لارا بحاجة إلى إسماعه تلك الوصلة الغنائية (..) حتى تتمكّن من رؤية أبيها ، ولسوف يكافئها سامح فقبل أن ينتهي الأسبوع ستذهب إلى أبيها في

مطعم الشاورما الذي نحله إيَّاه مهرًا لابنته ، ولسوف يطيرُ بها أبو أسعد الطيب على جواده الأبيض الجميل ، ولسوف تنعم بالقرب منه ولو للحظات ، ولسوف تدرك معه للحياة معانٍ ليست في قصر سامح الكئيب الكاسف ، كذلك سوف يأسرها بكلامه الذي هو في حقيقته شِعرٌ لذيذٌ ، ولسوف يُداعب أذنيها بحكمته ، ولسوف يقول لها :

- ليست مصرُ (سامح) أو مَنْ على شاكلته ، فمصرُ حديقةٌ غنَّاء ، وفجرٌ رائع ، ووجْهٌ ضاحك !!

التمستها لنا ملجأ يا أبي فلم أرَ فيها سوى سحاباتِ حزنٍ ووحْشة .

ما مصرُ سوى ليلةٍ جميلة سطع في حواشيها القمر فخرجت عفاريتُ الليل تتوهم إسقاطَ القمر !!

- لا تملكُ سوى شعرٍ يا أبي ، أما أنا فمباهجُ الحياة في عيني تنطفيء يومًا بعد يوم ، ثم تتلاشى ، والساعة تمرّ كدَهْر .

- ستغيمُ السماءُ في صباحاتك ، وسيزفرُ الوجودُ حولك بموسيقى الأحزان، وستبكين ، وستذهَلِين عن الحياة وزُخرفِها ، ثم ينبلج نورُ الصبح ، وتلتمس العفاريتُ الملاجىءَ في الكهوف والجبال ، ويعود الوجهُ الباسمُ إليك وإلى ... مصرَ !!

- أنبكي على حالنا أم حال مصر ؟!

- تبكينا مصرُ ونبكيها ، ونلوذُ بها فتحمينا !!

تأخذه لارا بين ذراعيها .. فتطبعُ قُبلتين على وجهه المتغضّن فيما عَبَراتُها تنسكب من مآقيها على رأسه .

- ٨-

شبرا .. ميدان فيكتوريا .. ليلا ..

صيدلية مكّة لصاحبِها ومديرِها الدكتور على عوض ..

الجوّ يشرعُ في بردٍ خفيفٍ ..

لم تكن صيدلية مكة كأي صيدلية أخرى في شبرا ؛ ولم يكن صاحبها ومديرها علي عوض كأي صيدلاني آخر ؛ أما الصيدلية فقد ذاع صيتها بين سرْسجية شبرا وضواحيها ؛ إذ كانت من الصيدليات القليلة التي يتكدّس مخزنه ا السّرّي ، و هو شقة سكنية كائنة بشارع دولتيان ، بشرائط الترامادول والتامول والألترادول والأبتريل ، وكذا شرائط وعلب ودهانات وبرطمانات المنشطات الجنسية المعروفة وغير المعروفة ، لذا لم يكن غريبًا أن ترى بين حين وآخر مدمنًا فشى خبرُ إدمانه بين الناس يتردّد ويختلف إلى الصيدلية ذا مساء أو ذا صباح يبتاع خُبز إدمانه من الحبوب المخدّرة ، ولم يكن غريبًا أنْ تصطدمَ عيناك ببلطجي يهابه الناس يربض على كرسي قُبالة الصيدلية وبين سبَّابته ووُسطاه سيجارةُ حشيش أو بانجو وفوق رأسه يافطةٌ فليكس ضخمة مكتوبٌ عليها :

بسم الله الرحمن الرحيم

«فِيِه شفاءٌ للنَّاس»

صيدلية مكَّـة لصاحبها ومديرها د . علي عوض

وأما الصيدلي علي عوض فهو شاب في الثلاثين من سِنِيه ، ذو بنيان ضخم ، وشعر كثيف ناعم يحرص على تلميعه بالكريمات والزيوت، ولحية صغيرة مهذّبة . تخرج في كلية الصيدلة جامعة الأزهر. يحفظ، بحكم دراسته الأزهرية ، بعضًا من القرآن الكريم، استهوته تجارة الحبوب المخدِّرة كسبيل سريع للمكسب والربح ثم استهوته السياسة كسبيل لدخول مجلس الشعب لتحقيق حُلم حياته بالحصول على ترخيص لمخزن أدوية وأذون استيراد مركبات كيميائية ومستخلصات طبيعية . ولما كان زوج أخته الدكتور شريف صابر اختصاصي الكبد والجهاز الهضمي الذي تعلو عيادته الصيدلية ويتجر معه في الأدوية المحروقة ، والأدوية غير المرخّصة التي يكتبها لمرضاه ، لما كان ذلك الطبيب ينتمي ، اسمًا ، إلى التيار السلفي فقد أوعز إلى عليّ بتقديم أوراقه والـ C.V إلى حزب الرسالة ليكون ذراعًا له في المجلس فيستطيع من خلاله كعضو في البرلمان الحصول على التراخيص الطبية والصيدلانية واستيرادها متى شاء .

لم يكن عسيرًا إذن أن يتعرَّف علي عوض إلى الشيخ زكي فاضل ، فهو جاره في شبرا ، وهو أمين عام حزب الرسالة ، وهو ساعدُ الأستاذ الكبير الأيمن ، وهو مَنْ أوصاه الدكتور شريف صابر عليه :

- الدكتور علي عوض ممتاز يا شيخ زكي وله مستقبل وهايفيد صدَّقني مش هايضُرّ ، ولسَّه شباب ، حُطّه في قائمة الحزب في الانتخابات الجاية واطّمن خالص أنا وهوَّ هانشيل معاكم في التكاليف وممكن كمان ناخد مقر للحزب في فيكتوريا !!

يُدرك زكي فاضل ما يرمي إليه ذلك الطبيب ؛ فسمعته في «البزْنَسة» مع شركات الأدوية تملأ شبرا كلها ، وأسفاره المتعددة على حساب شركات الأدوية تحت ستار حضور المؤتمرات الطبية يعرفها جيدًا ، وتجارته مع أخي زوجه علي عوض في الأدوية المحروقة أخبارها تحت يديه ، إلا أنه قد يجد ضالته في ذلك الصيدلاني :

- «مش مُهم ، أحيانًا بنحتاج الوِسِخ وابن الحرام ، السياسة عايزة كده، حبّة وساخة ماتضرّش» !!

اعتبره زكي فاضل منجمًا للأدوية المنشّطة التي يجلبها بين أوانٍ وآخرَ إلى سامح حسَّان الذي جرّب كل الأدوية الفاخرة المستوردة ولم تأتِ معه بنتيجة فلم يبقَ سوى تلك الأدوية الغريبة التي يجلبها علي عوض من مصادره الخاصة والتي جرَّب زكي بعضها ذا مرة فأثمرت وأيْنعت وآتت أكلها ، لكنها مع الأستاذ الكبير « ولا حبوب الأسبرين»!!

بعد صلاة العشاء ..

دَلَفَ زكي فاضل باب الصيدلية الزجاجي فألفَى علي عوض جالسًا إلى مكتبٍ صغير عليه شاشة كمبيوتر صغيرة وهاتف أرضي وجهاز باركود ومن خلفه مُلصقات ملوّنة أنيقة كدعاية لمنشط جنسي مع صورة لرجل مفتول العضلات بصدر ناهد يحتضن امرأةً عاريةً إلا من سِروال وسُوتيان ، ومُلصق آخر لرجل سمين أمامه صحاف طعام متعددة وإلى جواره زجاجة دواء مضاد للحموضة .. يسعى تجاهه ممسكا مسبحته الكهرمان مُبتسِمًا :

- السلام عليكم يا دكتور علي .

ينهض علي واقفًا مُتهلّل الأسارير :

- وعليكم السلام ورحمة الله ، وأنا أقول النور ده جاي منين . شرّفت الأجزخانة يا حاج . اتفضّل .

- يزيد فضلك يا دكتور .. أنا قلت أجيلك بنفسي آخُد شريط الحبوب اللي قلتلك عليه . هوّ جاهز ؟

- طبعًا يا حاج . بس لازم تشرب حاجة الأول . ويأمر شابًا معه بإحضار «حاجة ساقعة من السوبر ماركت بسرعة لعمك الحاج» !!

- مالوش لزوم يا دكتور ، مش عاوزين نكلّفك !!

- ماتقولش كده يا عم زكي ، دا احنا عنينا ليك .. ثواني يا شيخنا !!

كان زكي قد استقرّ على كرسيٍّ من الخيزران فيما ولج علي بابا صغيرًا بآخر الصيدلية فمكث غير بعيد فجاء حاملا بيده علبة مُربَّعة من الصاج الملون الأنيق عليها صورة رجل مفتول العضلات ذي صدر بارز وإلى جانبه سطور كثيرة بخط منمنم باللغة الإنجليزية :

- اتفضَّل يا حاج ، حاجة أوريجينال والله !!

يمسكها عاجبًا :

- إيه دي يا دكتور ، علبة سجاير ؟! ويُطلق ضحكة صغيرة .

- دي حاجة أصلي . اللي قُلتلك عليها قبل كده ، أحسن من أي حبوب أخدتها مني قبل كده ، اسمها ماكس مان ، أمريكي واللّه يا شيخنا ، بتخلّي الراجل سبْع في السرير لمدة تلتّيام !!

مدهوشًا فاغرًا فمه :

- تلتّيام !! مش معقول . ثم مغمغما : ممكن .. أمريكا دي بلد فاجرة فعلا !!

يجلس قبالته فيما كانت « الحاجة الساقعة « قد قُدِّمت :

- اتفضّل يا حاج .. دانا الود ودّي أجيب عشا واللّه !!

- ربنا يوسَّع عليك يا ابني .. بس أكيد يا علي دي حاجة هاتبيض وشّنا ؟!

بثقة :

- طبعا . أومال إيه .. باقولك أمريكي واللّه يا شيخنا ومجرّبة !!

- اللّه .. جرَّبتها إزاي يا عِلْوة .. دا انت أعزب لسه يَلَه ، ولا جربتها في الحمّام يا خلبوص !!

يقولها وهما يطلقان ضحكة صاخبة تعلو على صوت الشاشة الـ LED التي تصدح بالقرآن الكريم . ثم يردف زكي قائلا :

- بس قوللي قبلا .. الحبوب دي بتتاخد إزاي ؟

- قبل الجِماع بساعة يا عم زكي وعلى مِعْدَة مش مليانة .

- طب بتأثّر ع الضغط والسكر ؟!

- ملهاش دعوة لا بضغط ولا سكر .. بس انت يا حاج اللهم صل ع النبي لا عندك ضغط ولا سكر بتسأل ليه ؟!

عبس قائلا :

- هيا على قدِّي وبس ، مايمكن أهادي بها حد تعبان يا خفيف! ثم ينهض واقفا كمن استثقل المكان وصاحبه :

- هاا بالإذن أنا يا دكتور.. سلامو عليكو !!

كمن يتصنّع الكرم :

- مالحقناش نقعد مع بعض يا شيخنا !!

في خشونة :

- ورايا مية حاجة والله يا دكتور .. لنا قعدة مع بعض تاني .. سلامو عليكو ومتشكرين ع الحبوب .

بإلحاح طفل سئيل :

- طب وموضوع الانتخابات والقوايم . أنا جاهز والله ومن إيدك دي لإيدك دي !!

بَدَت على زكي أمارات الملل القتَّال فقال :

- اطمن .. انت معانا في الحزب .. وهاندخّلك قايمة من بتوعنا .

مُلْحفًا بسماجة :

- أنا كنت .. كنت عايز ..... !!

مقاطعًا بصبر قرب على النفاد :

- عارف يا سيدي .. انت عايز تكون على راس قايمة .. كله بوقته ، ماتستعجلش يا دكتور .

ران بينهما صمت قطعه زكي بصوت خفيض قائلا : - لو الواد جمال جالك الأجزخانة عايز منك خَرَة من اللي بيشربه ماتعبروش . ما تسألش في أمه ، مش عايزينه يضيع يا دكتور ، وما تخافش منه . سلامو عليكو !!

يُولّيه ظهره ويتيمَّم شطر الباب خارجا فيما يشيّعه علي بنظرة راجية قائلا :

- وعليكم السلام يا حاج .. خدّامك .

***

وفي نفس اللحظة الذي غادر فيها زكي فاضل الصيدلية يكون ابنه (الحِيلة) جمال في مقهى متواضع بشارع خلوصي يتحلَّق مع شابين تبدو عليهما سِيماء البلطجة حول طاولة فوقها ثلاثة أكواب من الشاي الحبر الثقيل و شريطا (تامول) مُغلَّفان بورق فضي لامع عليه كتابة بحروف إنجليزية سوداء اللون ، وصُباع حشيش .. يتفحصه أحدهما ويقربه إلى أنفه كشمَّام درجة أولى ثم يُردف :

- أصلي يا برنس .. بلدي وربنا بلدي .. أموت وأدوب أنا في البلدي !!

ينتزعه جمال من يده بخفة قائلا :

- عيب عليك يا أسطى وربنا جايبه من كوم السمن رأسًا ومن الدولاب ذات نفسه مش من الدِّيلر .

الشاب الآخر يقول :

- برنس من يومك يا جيمي .. أومَّال .. ابن الحاج زكي فاضل صحيح

- لا يا روح ماما الحاج مالوش دعوة باللي باجيبه .. وبطَّل تنبيط زي المرَة !!

- ماتزعلش يا جيمي بقى .. عليَّا الطلاق بهزَّر .. طب قوللي بس الصنف ده اسمه إي ؟!

ابتسم جمال ، وقال وهو يترنَّم باسمه :

- قطرة العسل يا دغُفّ .. قطرة العسل .

- يا دين النبي .. عليَّا الطلاق برنس .. دا من قبل الثورة ييجي بسنتين كنا بندوخ عليه .. ماكُنَّاش بنلاقي غير البسكوتة المعفّن اللي مخلوط حِنَّة وبِنْج ، ويوم ماربنا يرضى عننا كُنَّا نلاقي بالعافية قِرْش صدَّام... اللّٰه يرحمه بقى !!

الشاب الأول متحفّزًا :

- المهم يا برنس دي عيّنة زي ما اتفقنا ، بقية الربع هاتجيبها امتى :

- أكيد يعني لما تخلّصوا اللي اتفقنا عليه .

الشاب الآخر متوجّسًا :

- أنا شايف إن العملية خِطْرة حبتين والمفروض مانستعجلش ونتكتك لها صح !

الشاب الأول يصطنع الهدوء :

- قول المعاد بس يا باشا وسيب الباقي علينا .

جمال وقد احمرّ وجهه وازداد غضبه :

- انتو هاتشقطوني لبعض بروح أهلك انت وهوَّ .. المعاد حدّدناه خلاص واستلمتو عربونكو الأسبوع اللي فات .. وبقية الفلوس والربع حشيش جاهزين بعد ماتخلّصوا .. يبقى إيه بقى لزوم الكلام ده ؟!

الشاب الآخر عابسًا :

- كده فَرَطْتْ منك يا برنس .. انت اللي محتاجنا ولازم نتفق على معاد يناسبنا !!

ينهض جمال واقفًا وقد تملَّكه الغضب وبان على ملامحه :

- نعم يا روح أمك ؟! بصباعي وفلوسي وحشيشي أجيب عشرة أنتع منك ولا الحوجة لشكلك الزِّفِر !!

يقف غاضبًا مواجها جمال ، ويده تتحسّس مطواة قرن غزال خلف ظهره :

- كده مات الكلام بينّا يا خفيف !!

لا يجد الشاب الأول مفرًّا من الوقوف حائلا بينهما وريقه يجري على صُباع الحشيش ويتلمظه :

- الله .. ماتصلُّوا ع النبي يا أسطى منك له .. عيب عليكو وربنا انتو عيال !!

فأجاب جمال في مرارة شديدة :

- انت مش شايف البأف ده بيقول إيه يا أسطى ؟!

- معلش .. كل حاجة بالتفاهم يا ساحبي .. عليَّا الطلاق لتقعدوا وتروّقوا كده .. خلينا نتكتك صح وعلى رَوَاقَة للعملية .. ثم يتناول صُباع الحشيش المرمي على الطاولة ويُقبّله بشفتيه السوداوين وينادي قائلا :

- هاتْلِنا كوباية فاضية وحتة كرتونة صغيرة يا ابني خلينا نغتصب الصُّباع النار ده !!

يجلس ثلاثتهم وقد خبى غضب جمال والشاب الآخر فيما يقوم الشاب الأول بغرس قطعة حشيش في منتصف السيجارة عن طريق دبّوس ثم يشعلها ويضعها في الكوب الفارغ الذي يغطيه بقطعة كرتون .. ينتظر قليلا ثم ينزع غطاء الكرتون ويشرع في شدّ الدّخان فيما ينتظر الآخران دورهما في الشّد !!

***

في نفس الليلة ..

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف مساءً عندما دلفت سلمى عزيز مكتب رائد حسين بالجريدة يملؤها البِشر والسرور قائلة

- زيّ ما باقولّك كده يا رائد ، أنا كنت باعمل تحقيق عن السوريين اللي نزحوا لمصر بعد الحرب فمن حُسن حظي إني قابلت واحد اسمه أبو أسعد الطيب ، نُص كلامه شِعْر ، وعرفت منه إن بنته لارا اتجوزت سامح حسَّان مقابل محل الشاورما اللي فتحهولُه في ٦ أكتوبر!!

سلمى صحفية شابة .. دقيقة التكوين ، دقيقة الملامح كقطة.. متمرّسة في التحقيقات الخارجية ، رشيقة الأسلوب في التعبير والكتابة. عاجلها رائد بقوله :

- أنا أعرف فعلا إنه متجوز قريّب بنت سورية جميلة جدا ، بس ماكُنتش أعرف أي تفاصيل .

فابتسمت وقد ملأها الزهو كطاووس :

- أدِيك يا سيدي عرفت التفاصيل .

يهزّ كتفيه استخفافًا :

- تفاصيل ؟ تفاصيل إيه يا بنتي ؟ طب أنا استفدت إيه دلوقتِ ؟

- كفاية إننا عرفنا أصلها وفصلها ، بعد كده كل حاجة هاتبقى سهلة

صمت رائد هنيهة ثم حملق في سلمى قائلا :

- باقولّك إيه يا سلمى ؟

- خير ، أكيد عايز تعرف عنوان الراجل في ٦ أكتوبر !!

- لأ .. عايز أعرف بنت الراجل !!

فغَرَت سلمى فاها للحظات ثم قالت :

- انت اتجننت يا رائد . دي مْراتْ سامح حسَّان حتة واحدة ، بس قول أنا أعرف أقابلها ، دا لو جوزها عِرِف سيُقيمنَّ علينا الحدّ يا ولدي !!

وتستغرق في الضحك ساخرة .

- خلاص اتفقنا ، هاتقابليها امتى ؟!

- على طُول كده ؟ عموما بكرة أو بعده بالكتير . بباها هايكلمها ويخليها تقابلني . أبوها ده طلع عسل يا رائد بيموت ف حاجة اسمها مصر وناسها الطيبين . بيقول عني : لو ماكُنتيش طيبة يا بنتي ماكُنتش ساعدتك .

سُرَّ رائد لذلك الأمر وتنهّد . لقد عزم على شيءٍ ما .. شيءٍ لن يستطيع أحدٌ أن يُثنيَه عنه . يجب أن يكونَ محور مقالاته وتحقيقاته ذلك الأستاذ الكبير الذي يملأ مصر بأخباره ونوادره كما يملؤها بصوره وبوستراته وهلاوسه .

-٩-

بعد يومين ..الساعة ٠٠ :١١ صباحًا ..

شمسُ الخريفِ تقصُّ حكايتَها على الكائناتِ ..

كانت سلمى في صالون قصر سامح حسَّان تتأمّل فخامته وترنو إلى الأُبّهة الطاغية التي تشمل المكان . تدخل عليها لارا مُرحّبة :

- أهلين سلمى . اتفضّلي .

- جيت في ميعادي ولا اتأخرت ؟!

- في ميعادك حبيبتي ، هاد أنسب وقت . الأستاذ لِسّاته خارج . نوّرتي سلمى وآنستي .

- انت بتحكي مصري كويس قوي يا مدام لارا ؟!

- طبعًا . تصدقي لو قلتلك : إني بحب مصر وناسها الطيبين ، وتاريخها وحضارتها وفنها ؟!!

بزهو :

- وانت يا مدام لارا منوّرة مصر ، وزي ما انت فتحتيلي قلبك أنا كمان هافتحلك قلبي .

- خير .. شو في يا سلمى . بابا حكاني ووصاني فيك كتير بس ما فهمت منه كل التفاصيل .

قالت ضاحكة :

- بَبَاكِ ده راجل عسل . حتة سكرة . أول ما كلمته وأنا باعمل التحقيق قاللي أنا شايف في وشّك وفي ملامحك مصر ؛ بتاريخها الفرعوني والقبطي والعربي ، وأناشيد إخناتون وتوراة موسى وإنجيل المسيح وقرآن محمد .. وحاجات تانية كتيرة .. كلها شِعر × شِعر . أكيد قالّك إني صحفية ؟!

- بلى . هوّ حكاني عنك . وعلى فكرة أنت أول صحفية تدخلي ها البيت . ما تتخيليش أدِّيش سامح بيكره الصحفيين والصحافة بشكل مخيف .. يعني أنت هون على مسؤوليتي .

يضحكان سويًّا ثم تقول سلمى بصوت متقطّع :

- بُصِّي . عشان وقتك ووقتي أنا وزميل ليا بنعمل تحقيق عن السوريين اللي نزحوا لمصر في الفترة الأخيرة بعد الحرب ، حياتهم . مشاكلهم . اندماجهم في المجتمع المصري . وبصراحة طِلِعت انت نجمة التحقيق ده .

عاجبة وقد عقدت حاجبيها :

- شووووو .. كِيف يعني حبيبتي ؟!

- أنت يا لارا هانم مش أي واحدة والسلام ، أنت زوجة واحد من أشهر الناس في مصر ، واحد الكل بيعملُّه ألف حساب ، جوزك يا مدام لارا ممكن يقوِّم

البلد ويقّعدها بإشارة أو كلمة منه !!

ثم حملقت في ملامحها فقرأت عجبها من ذلك الكلام فاسترسلت : - ما تستغربيش يا مدام لارا ، أنا عارفة إنك يا دوب ماكملتيش في مصر ٦ شهور ، وكمان لسه ماعرفتيش مين هوَّ سامح سعيد حسَّان كويس !!

قالت لارا في وجوم :

- بيجوز . بس بابا حكالي كتير عنه . وأنا بدوري درست شخصيته شوي . وعن جد يا سلمى ما فيني أحكي مع الصحافة .. سامح ما راح يقبل ها الشي أبدا .

بصوت خافت :

- احنا مش هانجيب لحضرتك أي حوار في الصحافة .. ثم بصوت متقطّع : احنا عايزين منك شوية معلومات بس .

تنهض لارا من مقعدها واقفة مضطربة :

- معلومات عن شُو بالظبط ؟! ما عمْ أفهم شُو قصدك ؟!

بدورها تنهض سلمى وتقول بلهجة بائسة :

- مش تنخضّي كده يا مدام لارا . احنا عايزين معلومات عن حياته وسلوكه ، هل هو فعلا متدين ولا لأ ؟!

بحسم بالغ :

- آسفة . ما بقدر بالمرَّة . ما بقدر . صدقيني حبيبتي .

بأملٍ نحيلٍ ضئيلٍ يتسرّبُ حثيثًا :

- عموما معاك وقت تفكري و ..... !!

مقاطعة إياها :

- ما بوعدك .. أُعذريني .. شرّفتي يا سلمى . شرّفتي .

تناولها سلمى كارتا شخصيا لها :

- ميرسيه مدام لارا .. مش هاضغط عليك ، وده تلفوني لو غيّرت رأيك كلميني .

تتناوله لارا منها بشيء من حذر :

- ميرسيه إلِك .. مع السلامة . وتمدُّ يدها مصافحةً إياها .

وما تكاد سلمى تنسلّ من البوابة الحديدية الضخمة للقصر مغادرةً حتى تشرع لارا في تمزيق الكارت نُتَفًا صغيرة .

***

مرّت برائد ساعتان أو ما يقرب من ذلك وهو يكتب المقال الثالث والأخير من سلسلة مقالاته التي حجبها أنيس العليمي عن النشر : (في مصرَ الآن .. مَنْ يدْفع للزّمَّار ؟!) ، كان قد استعار ذلك العنوان من كتاب الباحثة البريطانية

فرانسيس ستونر سوندرز : « مَنْ الذي دفع للزمَّار ؟! – الحرب الباردة الثقافية « .. ساعتان شقى أثناءهما شقاءً لا مزيدَ عليه ؛ فالمقال الذي تستغرق قراءته دقائق معدودة لا تتجاوز بالكاد خمس عشرة دقيقة يشقى كاتبُه ويتجشّم في سبيله تجشّمًا ربما لا يدركه القارىء .. كلمات أنيس العليمي ماتزال في رأسه ثاوية .. محفورة بإزميلٍ من لهب :

(الجريدة اللي كلنا بناكل منها عيش شركة مساهمة ، رأس المال القطري فيها أكتر من ٤٠ ٪ ، فلما انت تتكلم عن علاقة قطر باللي بيحصل في مصر تبقى بتدخلنا في متاهات اِحنا في غنى عنها) !!

أحدث المقال الأول ثم الثاني ردودًا متباينة ؛ فما بين مؤيد ومعارض.. كان رائد قد مهّـد لسلسلة مقالاته بتلك السطور :

« لم تكن الحروب التقليدية هي السلاح الوحيد للهيمنة الكونية الأمريكية ؛ بل إنَّ الثقافة كانت هي ساحة الحرب الباردة التي استطاعت الولايات المتحدة ، من خلالها ، تدجين وتسييس عددٍ ليس بالقليل من الكُتَّاب ، والشعراء ، والمثقفين ، بل المؤسسات الثقافية في الدول الشيوعية ، وكان غالبيتهم من المثقفين اليساريين الذين نقموا على سياسات الاتحاد السوفيتي ؛ فقد قامت المخابرات المركزية الأمريكية CIA في العام ١٩٥٠ بتأسيس منظمة ثقافية باسم منظمة الحرية الثقافية والتي قد تحوَّلت في العام ١٩٦٧ إلى مايُعرف باسم (الاتحاد الدولي للحرية الثقافية) ، والذي اضطلع بإصدار أكثر من ٢٠ مجلة ذات تأثير كبير ، وقد عمدت تلك المجلات الموجّهة إلى اختراق الثقافة الشيوعية وتفكيكها .

« ولم تكتفِ الولايات المتحدة بذلك بل خصّصت موارد هائلة لتمويل برنامج دعائي سري للثقافة في أوربا الغربية ، وكان منهجها يتمثّل في أنَّ (أفضل طريقة للدعاية ، هي ألا يبدو أنك تقوم بالدعاية) !!

« وبعد سقوط الشيوعية تفرّغت الولاياتُ المتحدة إلى منطقة الشرق الأوسط تفرّغا تاما فافتعلت حروبا جوّية ، وزكّت الخلافات العِرقية والإثنية ، واختلقت مشاكل باسم حماية الحريات ، وحقوق الإنسان، ومكافحة الإرهاب فيما إرهابها هو الأكثر وحشية ودموية بامتياز .. واستقطبت مبشّرين وسدنةً لهيكل الشرِّ الأبيض كمعاول هدم في بلدانهم لتتربّعَ من خلالهم على كرسيّ الكرة الأرضية السابحة في فضاء الله اللامتناهي !!

« ولم يكن غريبا أنْ ترتميَ قطر تحت أقدامِ سيدةِ العالم (..) بل تساعدها في دفع أجرة العازف ؛ طمعًا في ريادة لا تستأهلها ، أو خوفًا على عرشٍ آل إليها بالغدر والمخاتلة والقتل .. ومع كل حدث ساخن في فلسطين ، ومع كل دمٍ عربيٍّ يُراق بأيدٍ صهيونية لا ينفكّ كهنةُ الإسلام السياسي الذين يتخذون من تلك الدُّوَيْلة مقاما ومرتعا طيبا لهم عن الدعوة إلى الجهاد (..) ضد الصهاينة والأمريكان فيما هم يجاورون قواعدهم العسكرية ، و فيما بنات البحرية الأمريكية يروحون ويجيئون أمام أعينهم ، وفيما العلاقات التجارية بينهم وإسرائيل لا تنقطع .

« ليس غريبًا – إذن – أنّ من يدفع أجر العازف يخْتـر اللحن ، كما يقول المثل الإنجليزي ، فالولاياتُ المتحدة وربائبها في المنطقة يدفعون بسخاء ويتخيّرون الألحان ويرُومُون من غيرهم الرقصَ عليها» !!

***

في المساء ، مع سدُول الليل الأولى ...

رائد وسلمى يجلسان في مطعم على النيل ونسمات هواء بارد منعش تداعبهما ..

- متشكرة يا سيدي ع العشا ، بس بيتهيألي كده إنه رشوة !!

ساخرًا :

- يا شيخة اتنيلي ، رشوة إيه بس ، هوَّ انت كنت فلحتِ في حاجة ، جاية من عند المزّة إيد ورا وإيد قُدّام !!

تهزّ كتفيها استخفافا :

- وأنا يعني هاعمل إيه ، دا كفاية إني دخلت بيت سامح حسَّان ، يابني بيته ده عامل زي القلعة بس إيه يا رائد أبهة وفخفخة إيه ، ماقُلّكش !!

- يا بنتي انت فِكرك إيه .. الناس اللي زي سامح حسَّان دي بتاعة دنيا مش آخرة ، همّ بس يوهموا أتباعهم المغفلين بأن الفقير بيدخل الجنة الأول قبل الغني وإن الحور العين جاهزين ليه على سنجة عشرة وهمّ اللّٰه ينور فخفخة وجاه ونعيم ونسوان وكله بشرع اللّٰه !!

قالها وهو يرمي الشوكة التي بيده قرفًا .

- معلش يا رائد . البنت متحفظة جدا جدا . وبصراحة عندها حق ؛ هيّ غريبة ومش من هنا وحالها ما يعلم بيه إلا ربنا ، وأبوها راجل غلبان قوي ، وبعدين سامح حسَّان ممكن يطيّرها في لمحة بصر !!

- طب والعمل ؟!

عاجبة :

- نفسي أعرف انت مهتم بسامح حسان واللي زيّه ولا بسلسلة مقالاتك عن أمريكا وحلفائها وتدخلهم في مصر ؟!

- بُصِّي يا سلمى .. الاتنين اتجاههم واحد ، أنا شايف إن أمريكا هيّ اللي بتلف صندوق الدنيا وبتفرجنا على اللي هيّ عايزاه ، وقطر واللي زيّها ، و سامح حسان واللي زيه خدّامين عندها ، همّ العمود اللي بيلف صندوق الدنيا .. وزي ما قطر بتَّاجر وبتدفع بسخاء عشان تكون قوة إقليمية في المنطقة زي ما بتحلم فسامح حسَّان واللي زيه بيتاجر بالدين والشرع ، اوعي تفتكري إنهم بتوع مشروع إسلامي أو حتى في دماغهم مشروع من الأصل ، دول يا سلمى تجار بيدوّروا على مصالحهم وبس !!

سكتت وتورّد خدّاها وعبثت بها نسمات هواء باردة فقالت وهي تبتسم :

- اللّٰه عليك يا رائد .. شكلك مذاكر كويس قوي !!

- اوعي تكوني بتتريقي .. أزعل منك ؟!

- وأنا أقدر أتريق ع الأستاذ رائد حسين برضه !! ثم تستأنف كلامها قائلة : بس واحد زي سامح حسان بقاله شعبية رهيبة وفي وقت قياسي أكيد عنده مواهب يا رائد ؟!

يرجع بظهره إلى الوراء قائلا :

- ومين قالّك إني بابخسه أو بجرّده من مواهبه ، هوّ فعلا موهوب . موهوب في النصب والدّجل واللعب بالدين انت مابتسمعيهوش بيقول إيه يا بنتي في برامجه ؟!

مدهوشة :

- وهوَّ اللعب بالدين موهبة يا رائد ؟!

- طبعا .. موهبة ونص . إنك تكسبي من ورا الدين تبقي تاجرة شاطرة بس للأسف تجارة مابيقتنعش بيها غير الأهبل اللي هوَّ أصلا معندوش ثقافة دينية كويسة .

تحاول سلمى أن تُدير دفّة الكلام فتقول :

- بس عارف .. ابن الذين ده مراته السورية الجديدة زي القمر ، ملكة جمال يا رائد ، موديلز فعلا .

يميل بجذعه نحوها :

- أموت أنا !!

ويطلق ضحكة صاخبة تقابلها سلمى بعبوس مصطنع :

- خلِّي عندك دم يا أخي وراعي إن معاك واحدة زي القمر برضه !!

- أكيد . قمر والله يا سلمى ، هوّ فيه أحسن من بنات بلدي وخفة دم بلدي وأكل بلدي !!

قالها وقد تورّد خداها مرة أخرى .

- وشرعا يستكملان عشاءهما فيما القمر الشاحب يتدلّى خلف العمارات والأبنية المطلّة على النيل .

***

في ذات التوقيت ..

سامح حسَّان منفردًا مع زكي فاضل في مكتبه بالحزب .. زكي يناوله علبة الـ MAX MAN التي جلبها من علي الصيدلاني والأمل يحدوه أن تأتي تلك المرّة بنتيجة مع الأستاذ الكبير الذي رَشَى عُضوه غير مرة بحبوبٍ وتراكيبَ ودهانات متعددةٍ لعلّه ينعظ ويتصلّب ولا ... فائدة!!

- اتفضّل يا زعيم .. صنف اكسترا .. أمريكي . الدكتور علي شكّرلي فيه أوي .

بيأس قتّال :

- أما نشوف يا سي زكي آخرك إيه معايا انت والدكتور علي بتاعك !!

بابتسامة صفراء :

- إن شاء المولى المرّادي أنا متفائل يا ريِّس ، الحبوب دي زي العسل .

يتأمل العلبة الصفيح الأنيقة ويُقلّبها عاجبا ثم يغمغم :

- أما نشوف .. أما نشوف ..

- إن شاء الله خير .. خير والله .

بصوت واضح قوي :

- أخبار الناس بتوعنا اللي هايحاصروا المحكمة إيه يا زكي ؟!

- كلّه تمام يا ريَّس .. منتظرين إشارة ويكونوا قُدَّام باب المحكمة !!

- بُكْرة بعد اجتماع الحزب يكون الولد مدرس العربي اللي بيكتبلك خطبك عندي .

- أوامرك يا كبير .. هايكون تحت رجلك بكرة .

- خليه يجهزلي كلمة أقولها قُدّام المحكمة ، كلمة الناس كلها تحلف بها ، أنا عايز أشغل الكل قبل ما أسافر !!

عاجبًا :

- تسافر ؟! على فين العزم يا شيخنا ؟

- تركيا .. تركيا يا زكي .

- مش خير برضه يا شيخنا ؟!

فجفل وأجاب :

- ما انت عارف يا زكي كل ما السكر بيتعبني باسافر تركيا ، بارتاح جدا مع الدكتور اللي هناك !!

- ربنا يشفيك ويعافيك يا ريِّس . وترجع لنا سالم غانم يا رب .

ينظر إلى ساعته الـ Vacheron Constantinالتي يفخر بأنَّ نابليون بونابرت كان يرتدي مثلها فيبتسم ثم يقول في هدوء :

- باقولك إيه يا زكي .. اسمع .. أنا عايز رجالتنا يكونوا قدّام المحكمة من كل اتجاه بعد ساعة . يحاصروها من الليلة .

دون تردّد :

- أوامرك يا كبير .. وحياتك نص ساعة وهايكونوا قُدَّام المحكمة!!

- تمام يا زكي .. واكرمهم شوية في المعلوم والعَلْفة .. لازم تغذيهم كويس يا زكي .

يقولها ويُطلق ضحكة صاخبة يقابلها زكي بضحكة مماثلة ثم يقول :

- اطمن يا كبير . كله هايبقى تمام والله ، وبعدين كفاية الدعم المعنوي اللي جنابك هاتدهولهم لما تخطب فيهم !!

- دعم معنوي ؟ يظهر الواد بتاع العربي ده مظبطك قوي يا زكي ؟! يكون عندي بكرة .

- هايكون بُكرة تحت رجلك بكرة يا فخم ومعاه كلمة لجنابك كمان!!

يتأمل العلبة الصفيح مرة أخرى ثم يردف قائلا :

- وعلي بتاعك قالّك الحبوب دي بتتاخد إزاي ؟

- لا مؤاخذة يا فخم .. قبل النوم بساعة كده وعلى مِعْدَة مش مليانة قوي .

***

بعد ساعتين ..

غرفة نوم سامح حسان ..

بعد تململ ، وشهيق وزفير ، وأنَّات مكتومة .. وجردل ماء بارد ينصبُّ على القفا ..

سامح ، شاحبًا ، على السرير ونصفه الأعلى عاريا وبشرته تلمع عرقًا، ولارا إلى جواره نصف عارية .. تدنو منه وتنشىء تعبث بشعره ثم تمسك بيديه وتضمهما إلى شفتيها :

- معلش حبيبي شكلك مطفّي الليلة !!

متوترًا :

- مين اللي كانت معاك النهاردة الصبح هنا ؟

بارتباك وفرائصها ترتعد :

- واحدة .. واحدة صحفية .. مبتدئة وبدها تعمل شغل !!

عابسًا :

- وجتْلِك إزاي لغاية هنا ؟!

تتصنّع هدوءً ، وتقول في بساطة طفل بريء :

- ما بعرف .. الصحفيين دايما متعبين !!

- وكانت عايزة إيه منك ؟!

- كان بدها تعمل حوار معي باعتباري زوجة أهم رجّال بمصر الحين، بس طبعا رفضت . فغادرت بدون أي كلام بَنتْنا !!

بصوت هاديء واضح وهو يشير بسبّابته إليها :

- مفيش حد يدخل القصر وأنا مش موجود . سامعة يا لارا ؟!

كزهرة سحقتها الأقدام :

- أكيد سامح . ما تقلق حالك . والله كل كلامك راح أنفذه .

نهض واقفا وطفق يرتدي الروب دي شامبر ثم ألقى بنفسه على أريكة بالغرفة :

- أنا مسافر تركيا بعد يومين ، ومش هاوصيك مفيش حد يدخل القصر في غيابي .

كزهرة نمَتْ وتفتّحت أوراقُها باسمة للربيع :

- عن جد ، تركيا ، أكيد راح تتفسح هناك ؟!

يتفرّس ملامحها :

- لأ .. رحلة علاج .. من يوم ما جاني السكر وأنا باتابع هناك مع دكتور كويس !!

- غريبة !! ما بعرف إن تركيا متقدمة بالطب بهاد الشكل !!

متململا ، عابثًا بخاتم ذي فصٍّ فيروزي في خنصره :

- باقولك مرض السكر .. فيه هناك دكتور مشهور بعلاج أعراض السكر بالمواد الطبيعية .

ترجع بالسلامة إن شالله وتكون أحسن .

بعد دقائق معدودة نهض ساعيا إلى الحمّام الملحق بالغرفة ، وما إن يدخل حتى يقول في نفسه وقد اعتصره اليأس واستبدّ به القلق:

« بِظهر مفيش فايدة .. اللّٰه يخرب بيتك يا زكي اِنتَ و السُّخام اللي بتجيبه » !!

-١٠-

النَّسيمُ ، بالخارجِ ، يُداعِبُ ضوْءَ الشَّمسِ ..

في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي كان سامح حسَّان يتوسّط مائدةَ اجتماعات مستديرة بالحزب وبين يديه زكي فاضل وخمسةٌ من وجوه حزبه المرموقين ممَّن يتناثرون في استديوهات مدينة الإنتاج الإعلامي كل مساء في برامج التوك شو . كان الاجتماع يدور حول إعداد الحزب للحشود التي ستحاصر المحكمة التي ستنظر في عدة قضايا تخص الجماعة وكذا في جُملة قرارات اتخذها الرئيس أخيرًا فعكّرت الصفوَ العامَ وألَّبت الجماهير . كانت الحشود قد وصلت بالفعل واكتملت قُبيل الفجر واتخذوا أماكنهم أمام المحكمة وخلْفها، وعن أيمانها وعن شمائلها فأحاطوها كما يحيط السوارُ المعصمَ أو الزندَ ، ونصبوا الخيام واصطنعوا متاريسَ تقيهم هجوم الشرطة ، إن هو تمّ ، وعلَّقوا لافتات تندّد بالقضاء والليبراليين ، وعملاء أمريكا وإسرائيل !!

هيئاتٌ متشابهةٌ لجموع بشرية غليظة الملامح خشنة الطباع . جموع بشرية كأنها من عالمٍ آخرَ . عالمٍ انقرض وفَنَى . أنقاض تاريخ شائهٍ. نظرات مِلْؤها الشرّ والوعيد . وجوه عابسة تتلمّظ الشر . نياترندال العصر الحديث . يرفعون أعلامًا سوداءَ كالتي يرفعها الطالبان و تنظيم القاعدة في الباكستان وأفغانستان مكتوبًا عليها بخط بُدائي قديم : محمد رسول الله . و أعلاما أخرى خضراء كأعلام السعودية التي يقطعها بالعرض السيف تعلوه الشهادتين بخط الثُّلُث .. يافطات قماش وبانرز ملون أنيق يحمل عبارات : (

الشريعة خـط أحمر.. الشعب يريد تطهير القضاء .. نعم لدستور إسلامي .. العلمانيون والنصارى إيد واحدة .. إدّينا إشارة واحنا نجيبهوملك في شيكارة) !!

كان التلفزيون في غرفة الاجتماعات ينقل على الهواء مباشرة تلك الوقائع ، و بين حين وآخر كان زكي فاضل يقلِّب القنوات لاهثا وراء الأخبار وفي داخله طاووس يزهو بقدرته الخارقة على تنظيم الحشود وتعبئتها في لمح البصر .

- سيبك من الـ cbc ، و دريم ، والقنوات الفاضية دي يا زكي ، خليك ع الجزيرة مباشر مصر أحسن !!

ثم أضاف بنبرة قوية : - مش هاوصيكم يا رجَّالة ، عاوز كل الأمور تسير كما لو كنت موجودًا بالضبط ، وسيكون أخوكم زكي نائبًا ومُفوّضًا عني ، نلقاكم على خير . ونفتقر إلى دعائكم .

وفي صوت واحد تقريبًا يقول المجتمعون :

- تروح وترجع بالسلامة يا ريِّس .. في حفظ الله وسلامته . وينهضون واقفين رافعين أكُفّهم بدعاء ختام المجلس .. ينهض سامح متثاقلا يسلم عليهم .

- دعواتكم يا جماعة ، مش هاوصيكو .. نلتقي على خير .

ويسعون خارجين فيما زكي فاضل قاعدًا أمام التلفزيون يتابع عن كثب حصار المحكمة .

يلتفت إليه سامح قائلا :

- جِبت الواد بتاع العربي يا زكي ؟

ينتصب واقفا :

- مستني برّه يا كبير ، رهْن الإشارة .. كان بيكتب الخُطبة .. أدخّله لجنابك ؟

- هاتُه وتعالَ يا زكي .

يغادر زكي الغرفة فيما يتهالك سامح على كنبة جلد شسترفيلد ممسكا بالريموت ضاغطا على زرّ Mute كتمًا للصوت . يمدّد رجليه، اللتين زحف التنميل عليهما زحفًا ، أمامه . وما هي إلا ثلاثُ دقائق ويدخل زكي وفي عقِبِه مصطفى عامر مدرس اللغة العربية الذي لا تبدو عليه علائمُ الرهبة .

- الأستاذ مصطفى يا ريَّس .

يتفرّسه سامح ويحملِق في ملامحه :

- أهلا أستاذ مصطفى .. اتفضّل .

يجلس هو وزكي دون أن ينبس ببنت كلمة فيستأنف سامح كلامه قائلا :

- عمّك زكي بيشكّرلي فيك قوي ، انت جاره ولا إيه ؟

فقال زكي :

- والده – اللّٰه يرحمه – كان مدرس عربي برضه قدّ الدنيا عندنا في شبرا زمان يا ريِّس ومصطفى ابنه بابغة زيُّه بالظبط ، ومحترم .

فصاح سامح بصوت حادّ :

- يووووه يا زكي ، سيب الراجل يتكلم . عاوز أسمعه . ماتخُدْش القعدة لحسابك يا أخي !!

في بساطة وصوت خافت :

- عم زكي بيتكلم صح حضرتك ، احنا طول عمرنا جيران في شبرا، وعم زكي راجل محترم !!

تهلّلت أسارير زكي وانتفخ عجبا كمنطاد ، ولو أنَّ مصطفى استرسل في الكلام فقال ما في نفسه : - وكان ابن كلب زبالة ساقط إعدادية ، وفِضِل صبي عجلاتي رِمَّة ياكل بالقِلام على قفاه ، ويتسبّ له بالدين هوّ واللي جابوه ، ومكنش حد بيعطف عليه غير أبويا اللّٰه يرحمه وله ابن عامل زيّ ولاد الحرام سرسجي و بلطجي وبتاع نسوان .. لو أنَّ مصطفى عامر أذاع كل أولئك لانخسفت الأرضُ بزكي إلى الأبد ، لكنه آثرَ السلامة واكتفى بما قال !!

- عشان كده بقى انت بتغذّيه دايما بالخُطَب والكلام الحلو ؟!

يُجامل بتصنّع يدركه سامح :

- أنا تحت نظرك دايما يا ريِّس وفي خدمة جنابك !!

فنظر سامح إلى زكي ضاحكا ثم قال :

- اللّٰه يجازيك يا شيخ زكي ، انت علّمت الراجل النفاق من أول قعدة ؟!

فيتضاحكون . ثم يستأنف سامح كلامه : - جهّزت خطبة ولا لسه ؟

يدسُّ مصطفى يده في جيبه ثم يُخرِج ورقة يناولها لسامح في أدب جمّ قائلا :

- اتفضّل حضرتك ، كتبتها وأنا قاعد برّه واللّٰه .

يأخذها سامح ثم يفتحها مُلقيًا نظرة عجلى مبتسمًا ثم يقول :

- عظيم . عظيم . ومشكولة كمان .. فعلا أهم حاجة قواعد النحو هيّ اللي بتضبط الكلمة فتخرج من الفم إلى القلوب مباشرة !!

يُكْمِل زكي وصْلة النفاق قائلا :

- وانت يا ريّسنا ما شاء اللّٰه عليك .. صوتك هاديء رخيم ، وإحساسك عالٍ رفيع !!

يقف سامح باسما :

- اللّٰه اللّٰه يا زكي . مش باقول برضه : الأستاذ مصطفى غيَّرك وخلاك ولا المتنبي في زمانه ؟!

يقفان بدورهما ويتضاحكون بصوت صاخب . يستأنف سامح كلامه :

- بالتوفيق يا أستاذ مصطفى . أنت مكسب كبير لنا . واعتبر نفسك أخونا الصغير .

- تِسْلم يا ريِّس تِسْلَم ، وإن شاء الله أكون عند حُسْن ظنك . بالإذن أنا حضرتك .. بالإذن يا عم زكي .

قال زكي مودّعًا :

- اتفضَّل . مع السلامة .

ويمضي مغادرًا ، فيما يُحملق سامح في زكي قائلا :

- الليلة بعد صلاة العِشا هانكون قُدَّام المحكمة يا زكي ، الليلة هاقول الخُطبة . الليلادي !!

مدهوشًا :

- دمااااغ . والله العظيم دماغ يا كبير المقام !!

بزهو وانتفاخ :

- السياسي الصح هوَّ اللي يستغلّ عنصر المفاجأة يا بهِيم . المناورة أداة من أدوات السياسي الذكي يا ... زكي !!

- أستاااذ .. وربنا المعبود أستاذ .. على قول الواد بتاع الإعلانات !!

- فاكر . فاكر ياد يا زكي لما هددنا السنة اللي فاتت إننا هانحاصر قسم الأزبكية قامت الداخلية والجيش كلهم راحين هناك قُمنا احنا رايحين على قسم الوايلي وعملنا مع العساكر والظباط هناك أعلى واجب !!

- دا كان يوم زي العسل والله يا ريِّس ، طول عمرك أستاذ وكبير كمان !!

***

أمام المحكمة .. ليلا ..

كاميرات القنوات والشبكات المحلية والأجنبية تنقل الأحداث . المراسلون يجولون بين المتظاهرين . يحاورون ويصوِّرُون . بعض القنوات يكتب مراسلوها ورقة ويدفعها إلى أحدهم مع ورقة بنكنوت خضراء أو حمراء فيحفظها ثم يأتي بالكاميرات ليُفرِغ ما حفظه أمام المشاهدين. المتظاهرون / النياترندال لا يملُّون تكرار الشعارات المناهضة للمحكمة وهيئتها اسمًا اسمًا ، والقضاء و بعض رجاله رجلًا رجلًا . والليبراليين العلمانيين واحدًا واحدًا .

وما هي إلا دقائق معدودات ويأتي سامح حسَّان في حُلّة فاخرة أنيقة وقد تضرّج وجهه بحُمرة الانتشاء والخجل . يقصد إلى المنصّة التي أقامها المتظاهرون . يشير بيديه في حركات مسرحية إلى المتظاهرين الذين يتصايحون ويرددون :

- أهو .. أهو .. مولانا هايتكلم أهو . ويصدح ميكروفون المنصة : «الله أكبر .. الله اكبر .. يحيا سامح .. يحيا سامح .. ريِّسنا ، ريِّسنا» !!

ينتشي سامح ، يكاد يطير من الفرحة التي تغمر كيانه ، يختال تيهًا بأنصاره الذين لو أمرهم بإلقاء أنفسهم في البحر لما تردّدوا لحظة .. وهاهو ذا يشير إليهم ، ويُوزِّع القُبل يَمْنَة ويَسْرَة . يتناول الميكروفون وبصوت رخيم قوي يقول :

- «أحبابي . إخواني . السلام عليكم أيها المؤمنون ، المرابطون على الحق . المنافحون عن الشريعة والشرعية . الصابرون في البأساء والضرّاء. السلام عليكم وعلى من اتبع الهدى .. أما بعد :

فاعلموا أنَّ اللّٰه معكم ولن يتِرَكم أعمالكم ؛ لأنكم أهل الإيمان ومَنْ عداكم فهو من أهل الكفر والضلال وكم افترى علينا قضاؤهم ، أقول : قضاؤهم ؛ لأنهم صنعوه على أعينهم ، وساسوا أحكامه لتكون على هواهم وجعلوه فوق شريعة اللّٰه وشرعية الجماهير ، وإرادة الناخبين .. إننا هنا في هذا المقام لا ننصر أنفسنا ، ولا ننصر رئيسنا الغالي الذي انتخبناه بإرادتنا ، إنما نحن هاهنا لننصر شريعة رب الأرباب ، ومانح العطايا والهبات الذي يقول وقوله الحق : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ « فنحن المنتصرون ، ونحن الناصرون ، ونحن الماحقون للضلال والبهتان .. أيها الأحباب : إنَّ مع العسر يسرا ، فاصمدوا وصابروا ورابطوا ، فالحق معنا وبنا .. وإني معكم أينما كنتم ، والرئيس معكم حيث كنتم ، وفوق كل ذلك فالله معكم .. وإني لأحذِّر الجميع وعلى رأسهم وزير الداخلية و ضباطه وجنوده .. إياكم أن تمسُّوا أهل الحق بسوء فتدور الدائرة عليكم مرة أخرى ، وما أحداث ثورة ٢٥ يناير عنكم ببعيد .. العلْقة إياها ...»المتظاهرون / النياترندال

يهتفون بحميَّة وانفعال وقد أمسك بعضهم بالعِصيّ والهرّاوات والسكاكين والجنازير :

الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر !!

***

في تلك اللحظة ..

يقول ، باسمًا ، ساخرًا ، رائد حسين وهو يوجّه كلامه إلى طارق الرفاعي وهما ما يزالان في الجريدة يتابعان وقائع خُطبة سامح حسان:

- ابن النصَّابة ، تصدّق إني صدَّقت كلامه ؟!

ضاحكًا بملء فيه وهو يعبث بحمّالتي بنطلونه الملوّنتين بعد أن يرجع بظهره إلى الوراء ويقول في تؤدة :

- دجَّال ليس إلا يا رائد .. وكل كلامه نصب في نصب زي الهلاوس والحكايات اللي بيهذي بها في برنامجه ، شُفت كهنة المعابد زمان ، أهُو سامح ده حاجة زي كده ، كاهن !!

بصوت يرنّ بالأسى :

- طب والعمل يا طارق بيه ، أنا بافكّر أكشّف الكتابة عن الشخص ده ، عاوز أعرّيه !!

سكت طارق الرفاعي لثوانٍ يسيراتٍ ثم أردف وقد أمال رأسه بابتسامة :

- عزّيه .. عزّيه يا رائد ، الأشكال دي لازم تكون مكشوفة قُدَّام الناس، بس وانت بتعزّيه خُدْ بالك من الوحوش الآدمية دي ، خلّي بالك .

ابتلع رائد ريقه بصعوبة ، واستغرق في التفكير .. التفكير في مقالٍ يصلحُ لتعريةِ سامح سعيد حسَّان .. الكاهن !!

***

قبل ساعة أو نحوها ..

لارا تتابع أمام شاشةٍ عملاقة خُطبةَ سامحٍ أمام المحكمة تغشاها علائم الذهول و الدّهش ، تتجهّم حينا فتعقد حاجبيها ، وتضحك بملء فمها حينا آخر فيبين اللؤلؤ النضيد . . تعرف سامح جيدا ، تعرف قدراته وإمكانياته . على السرير صفرٌ كبيرٌ تامّ الاستدارة ، صفر ولا كلمة (!) أما خارجه فسبع ، شديد ، جسور ، هركليز (!) لكنها لم تكن تعرف أنه مهرِّجٌ مثل القدَرِ الذي رماها في طريقه فتلقّفها ولم يستطع فكّ شفرات جسدها العاجي حتى تاريخه !!

تذْهلُ عن خُطبته التي تعيدها قناة الجزيرة مباشر – مصر في مربع صغير أعلى يسار الشاشة .. أول مرة صادفت سامح يتكلّم كان بعد دخولها قصره بنحو أسبوعين ، وقتها كانت كاميرات الجزيرة داخل القصر وكان سامح بهيئة بديعة أمام تلك المذيعة القطرية التي ترتدي الحجاب . تنسى لارا اسمها دائما ، لا تتذكّر سوى صوتها الذي يخرج من أنفها مُدغما فيبدو رائقًا تارة ، ويصمّ الآذان تارة أخرى . لا تتذكّر لارا من ذلك الحوار الطويل المملّ

الذي أذاعته الجزيرة على حلْقتين متتاليتين سوى سؤالٍ واحدٍ وجّهته تلك المذيعة بصوت مُدغم إلى سامح :

- أستاذ سامح ، هل تأذن لي في سؤال أخير ؟

فيرُدّ سامح وقد افترّ فمه عن ابتسامة صافية :

- بكل سرور . اتفضلي حضرتك .

- ماذا لو كنت رئيسًا لمصر وقد اشتدّت المعارضة المُغْرِضة التي تتصيّد الأخطاءَ من حولك ، أقصد : ماذا سيكون ردَّ فعلك تجاههم ؟!

فما كان من سامح إلا أن ردّ عاجلا بلهجة رقيقة حالمة :

- أنا مبسوط جدا إنك سألتيني هذا السؤال . أنا فعلا بافكّر أدخل انتخابات الرئاسة القادمة ، أنا مبسوط جدا بسؤالك والله !!

لحظتئذ انفجرت لارا في ضحك متواصل وهي تتابع الحوارَ الذي جرى تصويرُه في بهوِ القصرِ من وراء ستار فتناهى صوت ضحكها إلى مسامع سامح وطاقم التصوير فاعتذروا إلى سامح بإعادة ذلك السؤال... بعد انصرافهم فتح سامح تحقيقًا سريعًا مع لارا قائلا في جفاف :

- اللي عملتيه ده ما يتكررش يا لارا لو سمحت . لولا إنك جديدة هنا و.... لِسَّه بتطَّبَّعي بطبعنا كان هايبقى ليا معاك تصرف تاني خالص . وما إن تركها حتى انفجرت في الضحك مرة أخرى !!

تذهلُ لارا عن خُطبته فتطفئ التلفزيون ثم تمضي إلى غرفة نومها تتخيَّل نفسَها في مكانٍ بعيدٍ ... بعيدٍ عن سامح .. ترتمي على سريرها. تغمضُ عينيها وهي تتحسَّسُ بأناملها الرقيقة نعومةَ مفرشِ السريرِ.. السريرِ الذي يجمعها بسامح كل ليلة مُذ لجأت إلى مصر .. السريرِ الذي يشهدُ على هزائمه السرمدية المتتالية .. يستولي على جسدها خدرٌ لذيذ .. خدرٌ يُنسيها الزمانَ والمكانَ . ثم تذوب روحها في عوالم الأحلام .

-١١-

في تمام الحادية عشرة مساءً من نفس اليوم الذي ألقى فيه سامح خُطبته بين أنصاره كان جمال ابن زكي فاضل قد دَلَف صيدلية الدكتور علي عوض كفأرٍ يتسلّل كفأرٍ بحثًا عن بقايا وليمةٍ أو قطعةِ جُبنٍ .. أحسّ علي بغتةً بذلك الكيان السخيف يدفع في أناةٍ البابَ الزجاجي ثم بابًا حشبيًّا صغيرًا يُغلق نحو نصف متر تفصل مابين الفاترينة الزجاجية التي تعرض الشامبو والكريمات و جل الشعر والصبغات الحريمي ومعاجين الأسنان المختلفة وبين الأرفف الخشبية .. الشاشة الـ LEDالمعلَّقة في مدخل الصيدلية ما تزال تعرض أحداث الاعتصام أمام المحكمة ووقائع حصارها . يتشاغل علي ، وكان بمفرده بالصيدلية، بالعبث بجهاز الباركود فيما يزداد جمال لزوجة فيقول بصوت غليظ :

- مساء الفل يا دكطرة !!

بارتياب وقلق :

- مساء النور يا جمال . اتفضل .

- شكلك مشغول . عموما مش حاعطَّلك يا أبو التراكيب !!

يعمد جمال إلى تذكيره ببداياته عندما استأجر تلك الصيدلية من ورثة الدكتور فلوباتير بولس بعد أن أنهى خدمته العسكرية وتكليفه الحكومي ، ولاستعجاله المكسب السريع طفق يصطنع تراكيبَ مخدّرةً للبرشمجية

والمدمنين ؛ فكان يمزج حبوب الترامادول والأبتريل بالتسوفان إلى أن فاحت رائحته في شبرا فنصحه زوج أخته الدكتور شريف صابر بالابتعاد عن التراكيب والاكتفاء ببيع الحبوب المخدرة خِلْسةً ، وسرقة في سرقة بعيدًا عن التراكيب المخلوطة في معمل الصيدلية . ولمَّا أنْ جرت الأموال في يديه ابتاع الصيدلية العتيقة التي أسّسها الدكتور لويس بولس في العام ١٩٥٥من زوجه التي سافرت إلى ابنتها في لوس أنجلوس فأزال واجهتها الرخامية الأنيقة التي كُتب عليها بحروف نُحاسية ضخمة (صيدلية فيكتوريا) ليحلّ محلّها يافطة قبيحة من الفليكس الملوَّن المضيء باسم (صيدلية مكّة) !!

في تلك اللحظة يظهر في الشاشة زكي فاضل واقفا فوق المنصة ملوحا بعلم أسود فيحاول علي إلهاء ذلك الكيان اللزج ، إذ هو يعلم سبب تلك الزيارة الغبراء ، فيقول وهو يشير إلى الشاشة التي يوليها جمال ظهره :

- بُص . بُصّ ياد يا جمال . أبوك أهو يَلَه !!

غير مكترث بكلامه وإشاراته :

- مليش فيه يابَا ، هوّ في سوقه وأنا في سوقي !!

- ياباي عليك ياخي .. دا أبوك برضه ويشرفك إنه بيطلع في التلفزيون!!

- قلتلك مليش فيه . ما الكل دلوقتِ بيطلع في التلفزيون . يقولها وهو يسحب كرسيا ويرتمي عليه وما يزال موليا ظهره للتلفزيون . وكعزومة المراكبية أو تُجَّار دمياط يقول علي بصوت خفيض :

- تشرب إيه الأول ؟!

- ولا حاجة ، جهزت طلبي يا لورض !!

- عاجبا ، وباستعباط مصطنع وهو يعقد حاجبيه الكثيفين :

- طلب ؟! اللي هوَّ إيه ؟!

بغيظ :

- نعم يا خفيف !! انت هاتمثّل على أهلي ؟! مش أنا كلمتك في التليفون من يومين ووصيتك تجهزلي شريتين تلاتة ألترادول ؟!

مواصلا استعباطه ، الذي يدركه جمال من أول وهلة ، قارعا جبهته بأصابعه :

- أخّ .. نسيت والله يا جمال .. الشغل كابس عليا اليومين دول !!

- يعني ما جهزّتش الطلب ؟!

يقصد إلى مكتبه و هو مايزال واقفا فيفتح درجًا ويُخرج نصف شريط تامول ويدفع به ، مرتعشًا ، نحو جمال وهو يرى في عينيه حتْفه :

- وربنا المعبود مفيش في الأجزخانة كلها غير نُصّ شريط التامول ده. انت عارف يا جيمي إن الأدوية دي كلها جدول ولازم تنصرف بروشتة مختومة من الدكتور !!

ينهض واقفا بعصبية تتبدّى على ملامحه فيزداد مع اللزوجة شراسة تبين في عينيه اللتين تلتهبان غضبا . يصدِر شخيرًا قبيحًا بحدّة وابتذال ويقول :

- روشتة ؟!! روشتة إيه يا مـ (...) ، دا سيرتك برَّه زفت . ولا بكابورت المجاري اللي طافحة يا خفيف ، وقال إيه : سيدلية مكة اللي ساحبها ومديرها المسؤول علي أبو دقن ... دقن مين يا نجس يا معفن !!

كانت وصلة السفالة تلك كافية لترتجف أوصال علي وتسري في جسده رعشة ، فازدادت ضربات قلبه حتى إنه لينخلع من صدره خاصة بعد أن دنى جمال منه فاشتمّ من فِيِه رائحةَ كحول أزكمت أنفه ، ورمق ضربةَ مطواة بطول خده الأيسر حاولت يدُ طبيب التجميل إخفاءها لكنَّ بعضا من آثارها ما تزال تزيِّن خدّه ، وبالرغم من أن علي عوض ذو بنية قوية وجسد يفلق من جمال نصفين إلا أنه آثر السلامة ؛ لأنه يعلم أنَّ هذا اللزج يحترف استعمال السلاح الأبيض الذي يحمله في جنبه وإن كان نائمًا ، ولو قد تدرّب أحمد السقَّا على يديه قبل تصوير فيلم (إبراهيم الأبيض) لأحسن استخدام السلاح في الفيلم .. يضطرب علي فيقول :

- بصراحة كده يا جمال أبوك منبّه عليا مادّيلَكْش حاجة .. بصراحة الراجل خايف عليك يا أخي !!

تهدأ ثورته قليلا :

- قلبي كان حاسِس .. براحتك يا أسطى !!

- صدّقني يا جيمي أنا مليش ذنب واللّه . يصمت برهة ثم يردف قائلا : طب خُد النص شريط ده من عندي أنا .

بعبوس :

- انت عبيط يا ك (...) ولا بتستعبط ؟! النّسّ شريط ده حطّه لا مؤاخذة في .... ولا بلاش .. كفاية عليك كده الليلادي يا ضكطرة !!

يوليه ظهره ساعيا باتجاه الخروج و قبل أن يفتح الباب الزجاجي يلتفت إلى علي ويقول :

- عارف أنا لو قليل الأصل يا علي كنت أخدت كل البضاعة اللي في شقة دولتيان بس برضه أنا أسيل عنك يا وِسِخ . سلام يا معفّن .

كانت تلك الكلمات كفيلة بانخلاع قلب علي ، وإذ ذاك يرتمي بثقله على كرسيٍّ مُطرقًا برأسه ، وأطرافه كالثلج باردة .

***

بعد ***يومين ..الساعة ٠٠ : ٤ عصرًا ..***

مكتب الأستاذ سامح سعيد حسَّان

المحامي بالنقض

قبل أن يحتسيَ سامح آخرَ حُسْوَةٍ من فنجانِ القهوة التركية التي يعشقها تدخل السكرتيرة الصاروخ التي تغدو وتروح في مكتبه كالفراشة بالحجاب الـ spanish والبنطلون الجينز الذي يتساءل زكي في ذات نفسه كلما رآها به : « كيف تُدخله بساقيها المخروطتين كالمرمر»؟! تدلف غرفة المكتب كسِنْدِيانة ثم تقول بصوتٍ يلهب صدرَ زكي ، ويُشعِلُ نار الشهوة في نصفه الأسفل :

- أستاذ سامح أنا أكَّدت لحضرتك الحجز (VIP) بعد بُكرة على طيارة الساعة عشرة الصبح .

يسترقُ زكي نظرات متلمِّظة من تحت لتحت إلى مُؤخّرتها المكوّرة وهو يدحرج بحركة راتبة حبّات مسبحته الكهرمان مُغمغِمًا ، وقد سال لعابه : - « عليها قَعْر بنت الكلب .. تِعْدمه » !!

سامح في تراخٍ وبصوت عذب حنون :

- شكرا . ومش ناسي هديتك والله .. هاجيبهالك معايا أكيد !!

وهي مسبلة الجفنين بصوت رخيم دافيء :

- Thanks مستر سامح ، take care .

- وانتِ كمان .. ممكن تتفضلي .

تغادر الغرفة فيما يُواصلُ زكي استراق النظر إلى كَفلِهَا « اللي عامل ولا كَفَل الحصان » !!

كان سامح في ذلك اليوم رقيقًا حالمًا ، وكان زكي فاضل مُرهقًا تبدو تحت عينيه آثار السهر ؛ فقد قضى ليلته الفائتة ، بتعليمات من سامح، بين المتظاهرين أمام المحكمة . يقول وهو يقاوم جفنيه الثقيلين :

- بس إيه يا ريِّس . الله عليك . انت كنت امبارح حاجة تانية خالص . ماشاء الله عليك ولا ابن العشرين !!

يعتدل في جلسته :

- طول عمرك منافق يا زكي !!

بفتُور :

- إلا معاك يا فخم .. هوّ أنا أقدر برضه ؟!

- بس بصراحة الواد بتاع العربي بتاعك ده حكاية !!

منتفخًا :

- إيه رأيك في اختياراتي يا فخم ؟!

بتلقائية :

- زيّ وِشّك يا زكي !!

وينخرطان في وَصْلة ضحك صاخبة يقطعها زكي بكُحّة مصطنعة قائلا:

- انت هاتقعد في تركيا كام يوم يا كبير ، هاتوحشنا والله يا ريِّس !!

- أسبوع يا زكي . هاعمل شوية فحوصات وبعدها أقعد يومين نقاهة وتغيير جو ، وهارجع على طول .

- هيّ تركيا دي يا كبير فيها الطب بقى متقدّم على كده زي السياحة ؟!

متململا :

- مش أدّ كده يا زكي ، بس فيه هناك دكتور متخصص في علاج أعراض السكر فقلت أجرَّبه ، وأهو الواحد يشم هوا نضيف ويريّح أعصابه شوية !!

- ماتاخُدني معاك يا ريِّس ؟!

ضاحكًا وقد نهض يتأهّب للانصراف :

- المرَّة الجاية يا زكي .. نروح بلد غير تركيا الستات فيها مش حلوة، دا أنا أخاف تنطّ في الشارع عليهم وتبقى مصيبة .. !!

ينهض زكي واقفًا وقد انتعش قليلا لهذا الكلام ثم يقول :

- تروح وتيجي بالسلامة يا باشا ، وكل أحبابك وأنصارك هايكونوا في المطار في استقبالك وانت راجع أُمَّال إيه .. هوَّ يعني البرادعي أفندي أحسن منك في إيه ؟!

- خلاص يبقى يستقبلوني وأنا راجع . ثم يستأنف زكي كلامه قائلا بصوت هادئ : ما تجوزني يا كبير الصاروخ اللي برّه وتكسب فيَّا ثواب !!

بضحك متواصل :

- بتتكلم جد يَلَه ؟! انت يا زكي . هو الفيل ينفع يتجوز نملة يا بهيم ؟!

- لا أنا فيل ولا هيّ نملة يا فخم . و ربنا هاينوبك فيا ثواب كبير !!

- لا وأنت الصادق دا أنا لو عملت كده أبقى قلبت نظام الكون و ....

يقطع كلامه رنين تلفونه المحمول . رنين مكالمة ينتظرها من الليلة البارحة ..

« السلام عليكم يا خيري باشا ... كنت متوقع إنك هاتتصل والله... يا سيدي العفو ، أنا ابن الجماعة ، والوالد الله يرحمه ياما شالها ، وأنا على الدرب أسير ... طبعا طبعا ... الحمد لله ، آه ، رحلة سريعة كده للعلاج والراحة ... بإذن الله ، تحياتي يا باشمهندس .. في حفظ الله .. مع السلامة . مع السلامة» .

يحملق فيه زكي وملامحه مُترعة بالفخر :

- مش باقول يا ناس ، مفيش غير سامح وبس ، سامح الأسد ، تروح وترجع بالسلامة يا ريِّسنا !!

ثم خرج في عقب سامح الذي بدا – لحظتئذ – كنائمٍ مستمتعٍ بحُلم لذيذ .

***

في تلك اللحظة . كان رائد حسين يجلس في (جروبي – ميدان طلعت حرب) مع شابٍّ .

شابٍّ من طراز محترم ، ساذج الملامح ، في العَقْدِ الثالث ، طويل ونحيف ، بعينين عسليتين تشتكيان من قِصَر نظرٍ خلف نظّارة طبية.. هي الأخرى من طراز قديم كصاحبها .

لم يكن ذلك الشاب سوى مصطفى .. مصطفى عامر مدرس اللغة العربية ، وسر فصاحة زكي فاضل ومن بعده سامح حسَّان !!

كانت جريدة (الجريدة) قد أعلنت عن حاجتها إلى مدقق لُغوي يعمل بالقطعة ، ولما أنْ تقدّم مصطفى بأوراقه وحَضَرَ المقابلة الشخصية تمَّ قبوله . مُذ كان طالبًا تمنَّى أن يجتبيه القدر صحفيًّا ، لكنّ القدَرَ اجتباه وجعله مدرّسًا بإدارة الساحل التعليمية . وما إن قرأ الإعلان حتى بادر إلى التقديم والأمل بداخله يتجدّد أن يكون في يوم من الأيام أو ساعة من الساعات صحفيًّا وإن بدأ مدقِّقًا لغويا في جريدة !!

وما هي إلا أيامٌ وأسابيع وتتوثَّق علاقة رائد به ؛ فهو آنًا يجلس معه فيتجاذبان أطراف الحديث في اللغة وجمالها والسياسة و مقالبها والحياة وما فيها ، وهو آنًا يعزمه على ساندويتشات الشاورما من مطعم القزاز ثم يلتهمانها مع كوبِ شاي بالنعناع على (زهرة البستان) .

- يخرب بيت عقلك يا مصطفى ، إيه الكلام اللي البأف قاله امبارح ده . منك لله يا أخي !!

- كان لازم أظبّط الأداء يا عم رائد ، لازم يبان كل شيء إنه طبيعي !!

قالها وهو يلوك قطعةَ جاتوه في فمه .

- بس فعلا زكي فاضل ساقط إعدادية زيّ ما بتقول يا مصطفي ؟!

- زكي ماكمّلش تعليمه ، ظروفه كانت صعبة جدا ، واشتغل زمان صبي عجلاتي في شبرا ، وفاتت الأيام والسنين لغاية ما بقى ظل سامح حسَّان ، ودراعه اليمين ، وكاتم أسراره !!

يدنو منه مميلا بجذعه إلى الأمام :

- طب حياته دلوقتِ عاملة إزاي ؟!

قالها رائد وهو يحتسي القهوة ، وقد اختلس نظرةً من خلف الزجاج المجاور له على فتاة هيفاء بيضاء ببنطلون فيزون وجاكت جلدي قصير يتأبطها شاب طويل أسمر زبيبة ببدلة فاخرة ومن خلفهما شابين يلعقان بعينيهما مؤخرتها البديعة التكوين !!

قال مصطفى متنهدا وقد حمْلَقَ بدوره هو الآخر :

- عايش باشا .. بااشا !! بقى عنده شركة تجارية كبيرة بميدان فيكتوريا وبيستورد تكاتك وعجل وموتوسيكلات ومواتير ، وابنه الوحيد سرسجي كبير ومعرفش يكمل تعليمه هو كمان ، ودابر يلف مع النسوان ويبلطج على خلق اللّه !!

بفضول :

- طب احكيلي يا مصطفى ، احكيلي عن المرَّة اللي قابلت فيها سامح حسان ، كان إيه انطباعك عنه ؟!

- شوف . هوَّ شخص عِشَري . مجامل . بس ماعندوش ذكاء خارق من نوعية الذكاء اللي بيتمتع بيه أي قائد أو زعيم ، هو إنسان عادي جدا بس المريدين والمنتفعين اللي حواليه والفضائيات اللي بيظهر فيها مِدّيالُه حجم أكبر من حجمه ، ورسماله صورة خيالية عند أتباعه .

بعينين ناضحتين بالثقة :

- تمام كده . هوَّ ده انطباعي عنه أنا كمان برغم إني مااتقابلتش معاه فيس تو فيس . عموما لو حسّيت إن فيه جديد بلّغني على طول .

- أنا عرفت إنه مسافر تركيا يتعالج !!

مدهوشا عاجبًا :

- يتعالج ؟! وهيّ تركيا الطب فيها متقدّم للدرجادي ؟! فين ألمانيا، فرنسا ، كندا ، إنجلترا ، أمريكا . سايب كل ده ورايح تركيا ؟! غريبة فعلا !!

- يا عم رائد تلاقيه بيقول كده ، أهو رايح يتفسّح وخلاص وياخد راحته هناك بعيد عن دوشة أوربا وأمريكا و التضييق الأمني اللي هناك !!

- بالعكس يا مصطفي ، الأشكال اللي زي سامح دلوقتِ هي اللي ممكن تدخل مطارات أوربا وأمريكا من قاعة كبار الزوَّار !!

- عموما لو فيه جديد هابلّغك .

ساخرًا مُغمغِمًا :

- يشعللها بسلامته هنا وبعدين يروح تركيا يتفسَّح ، مش بعيد يكون رايح يعمل مصيبة هناك ؟!

- معاه فلوس بقى ، فلووووس يا عم رائد ، الناس دي الفلوس عندها زي الرزّ !!

- قالها وهو يفرك إبهامه بسبّابته . فيما يأكل الدهشُ من رحلة سامح إلى تركيا فُضول رائد .

***

بعد منتصف الليل بنحو نصف ساعة .. ورائد يخلو في غرفة مكتبه إلى كتابِ (باسوورد : الرئيس وأنا وبائع المانجا) الذي أهداه إيَّاه كاتب في بداياته كان قد رآه ذا مساءٍ في زهرة البستان فتقدّم نحوه وأهداه نسخةً منه إذا برنين تليفونه المحمول الموضوع في الشاحن بعيدًا يقطع فصل (يومياتي مع الرئيس) الذي بلغ فيه اليومية رقم ٨٣ . رنَّة عرف رائد صاحبها ؛ إذ خصَّصها لِذَكَرٍ وحيد القرن الهندي(!). لأنيس بك العليمي رئيس تحريره السابق . كانت رنَّة يتحاشى رائد أن يسمعها أنيس وقت أن كان في جريدته ؛ رنَّة بصوت الفنان الراحل محمد شوقي في مسرحية ٣٠ يوم في السجن يقول فيها : (يا ساتر يارب ، سلام قولا من رب رحيم ، اِبعد مأتك وغضبك عنا يارب ، النبي يارب تطلعنا من دار البَلا بَلا بَلا) !!!

تردّد رائد قبل أن يجيب ثم نهض متثاقلا وهو يغالب ضحكةً تقفز من فمه بإلحاح :

- مساء النور أنيس بيه . أؤمرني ؟!

أحدث مقاله عن تدخّلات بعض حكومات الخليج في الشأن المصري صداعًا في رأس أنيس العليمي الذي يُشارك بعض الخليجيين في رأسمال جريدته بنسبة ٤٠ ٪ فعَنَّ له أن يحاولَ إلجامَ رائد وكبحَ مبدئه الذي يفخر به .

- معلش يا رائد ، خايف أكون قلقتك ؟!

- ولا يهمّك يا أستاذ أنيس . خير !!

قالها وهو ينزع سلكَ الشاحن من تليفونه الـ Sony Xperia متيمّمًا شطر البلكونة فوَلَج بابها المُشْرع غير عابيء بلفحة الهواء البارد .

- لا .. الكلام مش هاينفع في التلفون يا رائد ، محتاج أشوفك وأتكلم معاك . ممكن ؟!

- طبعا يا أنيس بيه . تحب نتقابل فين ؟

- هاعزمك بكرة ع العشا يا سيدي ، إيه رأيك ؟!

- مش عاوز أكلفك يا باشا ، كفاية فنجان قهوة !!

- ما تقولش كده يا رائد . هانتعشى مع بعض بكرة الساعة عشرة في مطعم (سُولت salt) تعرفه ، اللي في صن سيتي مول مصر الجديدة. اتفقنا ؟!

- اتفقنا يا أنيس بيه . وهْوَ كذلك .

- تصبح على خير . مع السلامة .

- اللّٰه يسلمك .

حين دخل الغرفة مرة أخرى ارتاح على مقعد ، ولما يزل الكتاب في يده . جدار الغرفة من خلفه كانت تتوسّطه صورة لتشي جيفارا باسمًا وجها لوجه

مع زميله الثائر فيدل كاسترو . عن يمينه أباجورة ضخمة سوداء على شكل طبق ذات عمود طويل تُسعِّر الغرفة بنورها وتصليها بدفئها . بدأ يفكِّر في تلك المكالمة : « اللي لا كانت ع البال ولا ع الخاطر» نعم ! هو ذا المقال ! فقد أطلعني أنيس على أمر شركائه القطريين . هو ذا المقال الذي جعل أنيس شرين العليمي بخُيلائه ونفخته الكاذبة يُلحّ في طلبي ، وعلى عشاء فرنسي فاخر في مطعم (salt) الذي أسمع عنه فقط !!

بعد بُرهة ، لمعت خلالها في ذهنه أفكارٌ مضطربة ، أشعل سيجارةً وسحبَ نفَسًا ثم فتح الكتاب وأنشأ يقرأ ؛ يوميَّاتي مع الرئيس :

رقم (٨٣)

(العدالة الاجتماعية . رفع الأجور . ضبط الأسعار . منع الاحتكار.. كل أولئك كان أملا للمصريين قبل يوم ٢٥ يناير ٢٠١١ ، وبعد ذلك التاريخ ظنوا – وبعض الظن إثم – أنَّ الأمل قد اقترب تحقيقه ؛ فإذا بحكومة جنابك ، التي جاءت بعد طول انتظار ، تئدُ ذلك الأمل ؛ فترتفعَ الأسعار ، وتغيب العدالة الاجتماعية ، ويستمرّ الاحتكار ، وتتوالى الأنباء عن تقليص الدعم للفقير المطحون ، فلا تعجب جنابك ولا تُدهش إن خرج ذلك الفقير المطحون بثورة أخرى مناديًا بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية . ساعتها ، وساعتها فقط لن تُجدىَ معه خُطب الصبر (..) والتبشير بالجنة التي وعدها الله الفقير قبل الغني (!!) فيما الخطيبُ يرفُل في النعيم ويأكلُ ما لذَّ وطاب ، ويتزوّجُ مثنى وثلاثَ ، ورُباعَ) .

-١٢-

انقضى وقتٌ ليس بالطويل ، وإنْ لاح له أبديًّا ، حتى قال المخرج : ثري ، تو ، وان . ابدأ !!

كان سامح قد دخل الاستديو واستعدَّ لتصويرِ آخرِ حلْقة من برنامجه قبل السفر إلى تركيا . يُعوِّل كثيرا على تلك الحلْقة . يريدها قنبلة ينزع فتيلها ثم يرميها ويولي الدّبر ليترك آثار انفجارها وتساؤلاتها تنخر في نفوس وعقول مشاهديه ومستمعيه .

استعدّ سامح إذن لتلك الحلْقة ؛ فقد أنفق ليلته الفائتة بعد إذ غادر مكتبه في التحضير والقراءة ، ولم يخلد إلى النوم إلا قُبيل الفجر الذي خطف ركعتيه بعد استيقاظه في التاسعة !!!

لاح الوقت له أبديا لا ينقضي كدهْر ؛ إذ تنازعته الرغبة في إحداث دويّ يضمن له أن تكون حلقاته وأقاويله مثيرة للجدل فيضحى ملء السمع والبصر ، وها هو ذا في تلك الحلقة يطلّ على الناس ببدلةٍ أنيقةٍ فاخرة بُنيّة اللون من صوف إنجليزي ، وصناعة ألمانية ماركة Hugo Boss ، وخدّين متورّدين وإن بان تحت عينيه آثار إرهاق وأرَق!!

بعد المقدمة ، وبعد الابتسامة التي تكشف عن أسنان بيضاء كالشمع :

- « اليوم نتكلم عن أعظم آيات الله في الكون ، نتكلم عن الليل والنهار ، وكما خلق الله الشمس والقمر وجعلهما آيتين مستقلتين فكذلك الليل والنهار ..

والشيء الغريب إن الجماعة بتوع العلم التجريبي المغرق في الإلحاد والضلال بيربطوا بين الليل والنهار والشمس والقمر واحنا اللي اسمنا مسلمين ع الورق بس ننساق وراءهم – أعزّكم الله – كالبهائم (!!)

نترك القرآن ونترك آيات التوراة المؤيدة له ونترك أقوال علمائنا عبر القرون ونساير بتوع العقل والعلم التجريبي ونقول عليها إسرائيليات وهي والله أفضل وأوثق من علمهم هذا .

طب تعالوا كده نبحر مع بعض في القرآن ، ربنا عز وجل بيقول إيه عن خلق الليل والنهار ، اللي همَّ الظلمة والنور ، بيقول في أول سورة الأنعام : « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » أهو يا جماعة ، ربنا بيقول إنه خلقهم خلقا مستقلا ، سيدنا وهب بن منبه – اللي بيتهموه إنه بتاع إسرائيليات بيقول إن التوراة افتُتحت بهذه الآية . هوّ احنا ماقلناش قبل كده إن التوراة قالت : إن الظلمات والنور خُلقا في اليوم الأول أما الشمس والقمر فقد خُلقا في اليوم الأخير من أيام الخلق ، قلنا كده ولا ما قلناش ؟!

وعشان تعرفوا إن التوراة دي فيها كثير من الصدق أقولّكم آية في سورة الأنبياء ، قال تعالى :

«وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون» ، يعني الليل والنهار الأول وبعدين الشمس والقمر ، دول منفصلين عن دول يا جماعة الخير ، إذن أيهما أولى بالتصديق العلم التجريبي بتاعهم ولا التوراة اللي بيتهموها بالتحريف وهي كتاب ربنا المقدس زي القرآن ؟!

وعندما أقول : الليل والنهار آيتان مستقلتان فإنما أعني أن دوران الأرض التي يدّعون دورانها ليس مُحْدِثًا لليل أو النهار ، وكذلك الشمس ليست مُحْدِثةً لليل أو النهار ؛ ففي العهد القديم : « لتكن أنوارٌ في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون علامات للأعياد كما للأيام والسنين ، ولتكن أنوار في جلد السماء لتضيءَ الأرضَ » . اتفاق مع القرآن ولا مش اتفاق ؟! أي نعم اتفاق تام بينهما . اتفاق ونص كمان !!

يتناهى إلى سمعه صوت المخرج قادما عَبْرَ سماعة صغيرة يضعها في أذنه :

- اطلع فاصل يا أستاذنا بعد إذنك !!

فيصطنع ابتسامة باهتة ثم يقول :

- طيِّب وماله .. نلتقي بعد الفاصل بإذن الله .

وكالعادة ينهمر سيل الإعلانات إياها التي ينال سامح حصَّةً فيها تُقدَّر بـ ٣٠ ٪ !!

يستمر الفاصل نحو عشرين دقيقة يكون سامح خلالها قد بلَّ ريقه ببعض العصائر الـ light و مرَّ بعينيه على الورقة الفلوسكاب المشحونة وجهًا وظهرًا بالكلمات . يسترق النظر إليها بين أوان وآخر إذا هو نسى شيئا .

بعد انتهاء فاصل إعلانات : فكّ السحر ، وحلّ الربط ، جلْب الحبيب وتكربسه تحت قدم العانس ، و الكبسولة العجيبة التي تعيد الشيخ إلى صباه ، ثم الدهان العجيب الذي يجعل قضيب الرجل طويلا منتفخًا كإير الحصان أو

الحمار (..) ينهمر سيلُ المكالمات التلفونية التي تسأل وتستفسر وتبارك وتمدح الأستاذ الكبير عالم مصرَ قاطبةً ، وناصرَ القرآن والسنة و ... التوراة !!

وبعد أربعِ مكالمات ، وابتساماتٍ صفراوية ، ونحنحاتٍ متفرقات ، وتنفّجٍ وتزيّدٍ يبدأُ الأستاذُ مرةً أخرى قائلا :

- الجماعة بتوع العلم التجريبي بيقولوا : الأرض أصغر من الشمس!! يعني الأرض اللي فيها بحور ومحيطات وأنهار وجبال وغابات وبني آدمين وحيوانات أصغر عندهم من الشمس اللي ربنا خلقها بقوله : « كن فيكون » !! يا حلاوة !! تخريف تجريب وليس علمًا تجريبيًّا يا سادة والله . بسلامتهم عايزين يخلُّوا الأرض اللي ربنا خلقها في أربعة أيام أصغر من الشمس اللي ربنا خلقها بإشارة منه سبحانه في أقل من ساعة في سادس يوم من أيام الخلق !!

طب تعالوا نتكلم عن موضوع مرتبط بالشمس ، الشمس اللي عايزين بسلامتهم يعظموها عن الأرض ، الموضوع ده هو مكان وبيت إبليس ، عارفين يا سادة إبليس مكانه فين ، مستقره فين ، مستقره ومكانه تحت الشمس . أيوه تحت الشمس . مش فيه حديث مشهور في البخاري أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : « إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تبرو ، وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب ، ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها ، فإنها تطلع بين قرني شيطان » ... غلطان أنا ؟! الحديث في البخاري، يعني إبليس أفندي راشِق تحت الشمس عشان البهوات الكَفَرَة اللي بيسجدوا للشمس من دون الله ، البهوات اللي بيعظّموا الشمس ، بيدّوها أكبر من حجمها باسم العلم يبقوا بالظبط كأنهم بيسجدوا

للمعلّم إبليس (!!) يعني إبليس عرشه على الماء . طبْ عارفين عرش إبليس فين ؟ في المحيط الهادي (!!) زي ما ربنا عرشه على الماء فإبليس عرشه على الماء . طبْ أقولّكو حاجة تانية ؟! عارفين الطائرات اللي بتقع في المحيط الهادي أحيانا لما بتمر فوق منطقة معينة بتقع ليه؟! عشان مرَّت من فوق عرش الشيطان ، فوقّعها في دوَّامته اللي بيقولوا عليه دلوقتِ (مثلث برمودا) .. قال برمودا قال !!!

في المساء . وفي برامج التوك شو .. ستُزاحم حلْقة سامح حسان أخبارَ الاعتصامات والاحتجاجات والغضب من قرارات الرئيس وتمكينه جماعته !!

أمسى كلامُه محلَّ نقد . أثارَ ما ابتغاه ورمى إليه مُذ كان في الاستديو ردودَ فعلٍ متباينةٍ . سوف يترك نقاشًا و تساؤلاتٍ تشغلُ الرأيَ العامَ طوال رحلته إلى تركيا . كَلِف بالشهرة والمديح . مزهوّ كطاووس بكلام الناس عنه .

سيكون كلامُه موضع جدْبٍ من الدكاترة والمختصين بالعلوم الذين تعجّ بهم تلك الفضائيات التي تتسابق فيما بينها في إنتاج برامج التوك شو المتشابهة ، كما تتسابق في خطف المذيعين والمذيعات الذين يجذبون بمظهرهم ولَزَماتهم وثقافتهم وحياتهم الاجتماعية واستعباطهم – أحيانًا – الإعلانات والاتصالات التلفونية التي يتقاسمونها بنسبة معيّنة مع مالكي تلك الفضائيات ، كما سيكون كلامُه موضعَ مدحٍ وعِزّة من زملاء تياره ، المعروفين والمستورين ، الذي ينتمي إليه . فستجد واحدًا من أولئك المستورين ، كان يساريًّا في أواخر الستينيات قبل أن ينقلب إسلاميا بعد المدّ الوهّابي ، حليق اللحية ، يرتدي عباءةً بإطار مُذهب فوق بدلة أنيقة ، وفي يده مسبحة بلون البدلة ، يُثني على الأستاذ الكبير الذي يسبق بعلمه

علماء الطبيعة والفلك وسائر العلوم التجريبية التي هي في أصل منهجها من اختراع المسلمين (!!) وتراه يستشهد بكلام عن ابن تيمية من هنا ومن هناك ، وتراه يقدح في علوم الغرب .. « التي يوهموننا بها لنبتعد عن منهج الأصلين العظيمين القرآن والسنة ، الأصلين اللذين هجرناهما هجرًا فانخسفت بنا الحياة وأضحينا في ذيل الأمم « !!

وفي نهاية كل حلْقة تتناول حديث سامح القنبلة سيدبّ العراك بين الضيفين المتباينين في الفكر والمنهج واللغة ، وسيحاول المذيع أو المذيعة الإصلاح بين المتنازعيْن ولا .. فائدة !!

***

كان على رائد أن يغادر وسط البلد قرب الساعة الثامنة والنصف مساءً ليتسنّى له الوصول في العاشرة حيث موعد عشائه مع أنيس العليمي في مطعم salt بمصر الجديدة . ازدحام الشوارع وعشوائية المرور وتعطّل مطالع الكباري كل أولئك دفع به إلى التبكير بمغادرة وسط البلد ، حياته ، متعته الأثيرة التي يذوب فيها ذوبَ السائلِ السحري في السائلِ السحري .

يسمع رائد عن مطعم salt . لم يتشرّف بدخوله من ذي قبل ، يسمع أنه يُقدّم لزبائنه (المريِّشين) وجبات طعام فرنسية لكنه لم يحصل له الشرف بتذوق ذلك الطعام الفرنسي .

- بصراحة يا أنيس بيه أنا ماعرفش أصناف الأكل الفرنساوي ، محصليش الشرف بجد !!

قالها رائد بعد إذ اتّخذ موضعه من المطعم قُبالة أنيس بك الذي ما إن رآه يدلف المطعم الأنيق حتى نهض واقفًا مشيرًا إلى مكانه ، وبعد أن يُصافحه أنيس بحرارة ليست معتادة البتة منه يبادره بالقول:

- واحشني يا رائد بجد .. اخْص عليك ، طب اسأل عن رئيس تحريرك السابق ؟!

أجال في ملامح أنيس الجامدة وفي حوائط المطعم وسقفه البديع المكسو بالخشب ثم أردف :

- أُعذرني يا أنيس بيه ، واللّٰه انشغلت فعلا ؛ كتاب بألّفه حاليا وسلسلة مقالات عايزها تكون مُحْكمة وفي أفضل صورة .

تعمّد رائد أنْ يرمي إليه هذه العظمة ليتأكّد من صدق حدسه إلا أنَّ أنيس قد أخَّر اللهاث وراء تلك العظمة قليلا فبادره قائلا :

- سيبك من الكلام في الشغل ، ما قلتليش برضه هاتتعشى إيه الأول؟!

بزفرة ملل وضحكة شاحبة :

- مانا قلتلك يا باشا ، أنا ماعرفش أصناف الأكل الفرنساوي ، محصليش الشرف ، أنا أعرف القهوة الفرنساوي بس ، باشربها أحيانا لما باتزنق في قاعدة ، بس اللي باتكيّف منها بجد القهوة بتاعتنا ، القهوة أم وِشّ !!

- خلاص يبقى سيبني أختارلك أنا الأكل وثِق في ذوقي يا رائد . خلّي بالك أنا اختياراتي دايمًا لك كانت في صالحك ودايما هاتكون في صالحك!!

يُدرك رائد مرامي هذا الكلام وفحواه إلا أنه يكتفي بغمغمة لا تبين، غمغمة مع هزة رأس تشير إلى الإيجاب . يقف النادل الرشيق ذو الملابس الأنيقة وفي يده دفتر وقلم ويبدأ أنيس في طلب :

- ٢ رزّ أسود بالخرشوف والينسون ، و ٢ صدور بط مشوي بالبرتقال ، و طبق فُوَا جْرَا . مع السلطات اللي بتفتح النفس بتاعتكم ، وياريت تكثّر الأعشاب الجميلة اللي بتضيفوها ليا كل مرَّة !!

بأدبٍ جمّ يُدوِّن النادل الأنيق الطلبات ثم يستأذن منصرفًا راسمًا ابتسامة جميلة .

عاجبًا :

- اللي حضرتك طلبته ده هوَّ بقى الأكل الفرنساوي ؟!

- هوَّ يا رائد . تعرف إن كلمة السر في الأكل الفرنسي هي (البط)؟! ماتتخيلش قد إيه الفرنسيين عندهم من قرون طويلة فاتت ولع بأكل البط و صيده ؟! يعني البطّ هوَّ أساس المائدة الفرنسية !!

- سبحان الله !! البطّ ؟! أنا بجد أول مرة في حياتي أعرف كده !!

بغرور طافح وقد انتفخ ورجع بظهره إلى الوراء :

- طب تعرف الفُوَا جْرَا fois gra (ينطقها بلكنة فرنسية مُتْقنة) !!

بتلقائية وابتسامة :

- دي أعرفها بقى ، كبدة البط ، أسمع عنها بس ما أكلتهاش قبل كده برضه !!

- كبدة الوز يا رائد . بيسمّنوا الوز الفرنسي بطريقة معينة ، زي تزغيط البط البلدي عندنا كده وبياخدوا الكِبدة بتاعته اللي كلها دهون ودسم وبيعملوها بطريقة فعلا رائعة ، وعلى فكرة أكلها بيخليك زي البمب ، بيخليك يا رائد very strong ، بتديك power تعرف إنهم أخدوا اسم الـ viagra منها ؟!!

- سبحان الله !! خواجات فعلا يا أنيس بيه . وما إن يقولها ، وفي ذات نفسه يردد : - « راجل بأْف صحيح ، وأنا مالي ومال الهباب اللي بيلُكّ ويعجن فيه من ساعة ما قعدنا .. صبّرني يا رب على الراجل الملزَّق ده » !! ، حتى يتوالى رصّ صِحاف الأكل الفرنسي الذي ما يزال ذكر وحيد القرن الهندي (!) يُلقي فيه محاضرة .

- كُل يا رائد وادعيلي ، وعلى فكرة طبق الفُوا جرا ده بتاعك ، الكوليسترول عندي الـ level بتاعه is very highy !!

- ربنا يِدِّيك الصحة يا أنيس بيه !!

كانت رائحة الطعام بالفعل جميلة ، وما إن تذوّق رائد قطعةً صغيرةً، كاختبار ، من الفُوَا جْرَا حتى ألفاها حُلْوة المذاق شهية الرائحة ، إلا أنَّ جميع الفئران قد بدأت تلعب (كهربا – شِدّ الكوبس) وتمرح في صدره ، فبادر أنيس بقوله :

- مش معقول يا أنيس بيه إنك عازمني ع العشا الفرنساوي ده علشان تديني محاضرة في تاريخه وطعمه وفوايده ، أكيد الموضوع غير كده خالص ؟!

حملق أنيس في ملامحه وقال بعد أن دسَّ قطعة من صدر البط المشوي في فمه :

- عندك حق . عندك حق يا رائد . فاكر آخر حوار دار بيننا في الجريدة ؟

- طبعا ودي حاجة تتنسي يا باشا ؟!

- يومها أنا اعتبرتك زي ابني يا رائد ، ابني اللي ماخلفتهوش ، انت عارف أنا عندي بنتين اتنين بس .

مقاطعا بصوت مِلؤه الحنان والرقة :

- يا أنيس بيه ربنا يخليهوملم ويخليك لهم .

- يومها أنا قلتلك سر محدّش يعرفه في الجورنال يا رائد ، يمكن يكون فيه حد تاني برّه الجورنال من زملاء المهنة يعرفه لكن ما حدِّش يعرف أي تفاصيل عنه .

- قصْد حضرتك موضوع الشراكة القطرية في جورنال (الشرق) ؟!

- تمام تمام يا رائد . قالها وهو يرفع حلْقة برتقال فاحت رائحته اللذيذة إلى فمه .

- حضرتك زعلت من مقالات : من يدفع للزّمَّار ؟!

- الموضوع مش موضوع زعل ، على فكرة انت أحسن واحد بتكتب صحافة دلوقت في مصر ، بتكتب بحرفية ، بمعْلَمة ، كلها كام سنة وهاتبقى زي هيكل

!!

ابتلع رائد ريقه ثم قال :

- تبقى إيه المشكلة طيب يا أنيس بيه ؟!

بنظرة ماكرة :

- المصالح . المصالح يا رائد . سبق وقلتلك : إن الناس دي مصالحنا حاليا معاهم ، أنا عارف إنهم بيلعبوا و معظم لعبهم دلوقتِ dirty بس للأسف لازم نقف على رجلنا الأول وبعدين ننفضهم ، ناخُد مصلحتنا منهم وبعد كده يبقى good bay يا رائد ، صدقني هيا دي فلسفتي من غير تعقيد ، فلسفة سهلة تماما زي القصة اللي من غير عُقدة ، قصة مافيهاش غير شخصية واحدة وبس هيَّا المصالح !!

بفتور ممزوج بضيق بالغ :

- بس دي تبقى لعبة ميكيافيللية يا أنيس بيه ، وأنا للأسف مش باحبّ ألعبها ، أنا اتعلمت إنه يكون عندي مبدأ .. مانكرش إني ريّلت في وقت على الفلوس لأني فعلا كنت محتاج بس صدّقني دايما كنت بحاول أحافظ على مبدئي بقدر الإمكان . مبدئي اللي حسيت إنه ممكن يضيع في جورنال حضرتك !!

حملق أنيس فيه في ذهول و قد ارتجفت يداه وقبضتا على ذراعي مقعده وقال وقد اكفهرّ وجهه :

- يا رائد صدّقني ، صدّقني يا حبيبي احنا بقينا قُدّام أمر واقع، الإخوان في السلطة ومش هايتزحزحوا غير بانقلاب عسكري ، يعني بالدم ، ومصالحنا معاهم ومع حلفائهم . مين دلوقتِ بيساعدنا غير قطر وودائع قطَر ؟! ركّز في اللي باقولهولك ، بلاش تهوّر ممكن نندم عليه بعدين خِفّ شوية ، اتكلم واكتب بس بدون ما تزعل اللي مصالحنا بين إيديهم !!

فجفل رائد قائلا :

- أنا بجد مصدوم في كل الكلام اللي حضرتك قولته يا أستاذ أنيس، مصدوم ، مش عارف أقول إيه غير إن مبدئي لا يُمكن أغيّره أبدًا . آسف يا أنيس بيه ، ومتشكِّر جدا ع العشا الجميل ده والمعلومات اللطيفة عن الأكل الفرنساوي اللي عمري ما هاكله مرة تانية !!

وينهض واقفا . فيصيح أنيس قائلا :

- فكّر في كل اللي قلتهولك يا رائد ، فكّر أرجوك ، بلاش تِدّي حكم سريع متهوِّر ، أنا بحبك يا رائد والله !!

- بس بتحب مصالحك وفلوسك أكتر يا أنيس باشا !!

وينصرف بعد أن يرميَ بالفوطة البيضاء الزاهية طرْف المنضدة الدائرية التي كان يجلس إليها ، فيما يحمرّ وجهُ أنيس وينشيء يفرك جبينه المتغضِّن بأصابعه المُدبّبة سابحًا في بحر أفكارٍ واسع انتهت حدوده عند فكرة جهنمية لاحت له ، فكانت المرفأَ ، وكانت النجاةَ .

-١٣-

كان رائد حسين يدرك أنَّ الكتابةَ عن سامح حسَّان اختبارٌ عسير، ومنزلقٌ ليس بيسير ؛ فبإشارة واحدة من سامح يعيث أنصاره ومؤيدوه في الأرض الفساد ، أنصاره الذين يرفعون للداخلية ورُتبها من لواء إلى خفير لافتة (ممنوع الاقتراب أو التصوير) ، وبزفرةِ غضبٍ تمرق من فِيه أو تلتمع في عينيه يستلّ مهووسٌ من مهاويسه مطواة أو يُصوّب موتور منهم نيرانَ طبنجته أو سلاحه الآلي ليقضىَ اللّٰه أمرًا كان مفعولا وفي لحدٍ باردٍ يستقرّ !!

اختار رائد عنوانا لسلسلة مقالاته الجديدة عن سامح حسَّان باسم (الكاهن) ، كان طارق الرفاعي قد أوحى إليه بذلك الاسم . أصبحت لديه معلوماتٌ جيدة ومتسقة عن سامح ، معلوماتٌ يستطيع أن يستخدمها في إماطة اللثام عنه ، كشف حقيقته ، تعريته . و « ليكنْ ما يكُنْ ، فالعمر واحد والرب واحد » !!

حين عاد رائد إلى شقته كانت أفكارُ مقالاته التي نوى تجهيزها عن سامح حسَّان تتقاذفه كالكُرة . استهواه اسم (الكاهن) . تسلّلت معانيه إلى عقله ، ولمعت الفكرة الأولى وهو يدسّ المفتاح في باب شقته التي بلغها وعقارب الساعة تشير إلى الثانية عشرة والربع بعد منتصف الليل . دلف فتسلَّل صوت التليفزيون ، لقد نسي أن يطفئه منذ الصباح ، كان التليفزيون على قناة On tv ، وكان المتحدِّثُ طبيبَ باثولوجيا إكلينيكية امتهن الأدبَ فأنشأ روايتين ومجموعة قصصيَّة فخلعت عليه ثلثُ جرائد البلد لقبَ (أديب عالمي) فأصبح كاتبَ عمود في تلك الجرائد وأمسى خبيرًا سياسيا (..) لا يُشقّ له غبار في برامج التوك شو ليلا .. ارتمى على كنبة في الصالة ثم نزع حذاءه

وأنشأ يعبث بأزرار الريموت المطموسة متنقلا بين القنوات ، استقرّ أخيرًا على قناةٍ للرقص الشرقي . قال في نفسه ، متنهدا وحاله بين السخط والسخرية ، وهو يتابع الراقصةَ وهي تتثنّى وتهزّ أردافها وبطنها ، وتهوي بجذعها فيندلق ثدياها ككُرتي عجين مُختمرتين :

- « نتفرج على رقص حقيقي أحسن » !!

بعد سيجارتين أشعلهما وامتصّ دخانهما ثم دفنهما في طفّاية كريستال مُتخمة بأعقاب سجائرَ فانيةٍ كان رائد قد استجمع قواه وضاق ذرعًا بالبدلة التي يرتديها فنهض نشيطًا حاملا حذاءه إلى جزَّامة خلف باب الشقة ثمَّ دلف غرفة نومه وخلع ملابسه لاعنًا في سره أنيس العليمي وموعد عشائه الذي دفعه دفعًا إلى (الحبْسَة) في تلك البدلة منذ الصباح ليكون ذا مظهرٍ يليقُ بمطعم salt . الشقة كانت أنيقة ؛ صالة كبيرة من قطعتين وغُرفة صغيرة ، قطعة تضم طقم أنتريه أميركي يغوص الجالس عليه بين وسائده ، وقطعة تضم سفرةً من ثمانية كراسٍ تتحلّق حول منضدة بيضاوية يتوسطها طبق فاكهة من الكريستال بلا فاكهة ، وبار ضخم بمرآة بلجيكية . أما الغرفةُ التي يفتح بابها على الصالة فقد أعدَّها رائد لتكون مكتبا صغيرا له بعد إذ كانت تحوي صالونا فاخرًا من الطراز الإيطالي . وفي الداخل غرفتا نومٍ كبيرتان تنبثقان من طُرْقة طويلة ؛ غرفة نوم رئيسة ينام فيها وحيدًا ، أما الأخرى فكانت معدَّة للأطفال ثم كوَّم فيها الصالون الفاخر لتخلوَ غرفته لمكتبه وكُتبه و مع تينك الغرفتين مطبخٌ وحمام كبيران .

كانت تلك الشقةُ قد فُرِشت لتكونَ في استقبال عروسه التي اختارت بنفسها ذلك الأثاث من محلات Piere Furniture ... عروسه التي سلّمته الشبْكة في

علبتها القطيفة وهي تقول له باصطناع ممثلة مبتدئة :

- صدّقني يا رائد أنا هافضل أحترمك لآخر لحظة في حياتي ، معلش، كل شيء قسمة ونصيب !!

عروسه المذيعة داليا سليم أو دودي سليم التي تعجّلت الشهرة فزحفت كحيَّة جائعة إلى المنتج السينيمائي ومالك قنوات NBN هشام شركس . عروسه التي كانت وكانت .. ثم انتهت من حياته كنُكْتة بايخة مُملَّة !!

شعر بالجوع ينقر بطنه فقصد إلى المطبخ يلتمس عشاءً .. عشاءً برفقة نفسه لا برفقة أنيس ، فتح الثلاجة فوجد عُلبةَ بيتزا بالمفروم ما تزال تحتفظ بقطعتين كبيرتين فاستخرجهما ووضعهما في الميكروويف ثم أعدّ الشاي وسعى بطعامه وشرابه إلى غرفة مكتبه التي كانت في يوم من الأيام صالونا لدودي سليم !!

بعد نصف ساعة امتلأ إحساسا بالراحة ، إحساسا لم يعهده من ذي قبل . أشعل سيجارةً وأنشأ ينفث دخانها في مسارات دائرية ثم جلس إلى مكتبه الصغير وفتح الـ laptop . كان رائد قد طلب إلى مصطفى عامر أن يأتي إليه بنسخة من العهد القديم فلبّى مصطفى طلبه وأعطاه نسخة قديمة مشكُولة أشار مصطفى إلى مواضعَ كثيرة منها بالقلم الأحمر مع تعليقات يسيرة بخط يده . بدأ رائد في النقر على لوحة المفاتيح مكوّنًا الكلمات الأولى في مقاله الجديد :

« الكاهن هو مَنْ يدّعي معرفة الأسرار وأحوال الغيب والمستقبل ...

وسجع الكُهَّان : كلامهم غير المفهوم المزوَّق لاستمالة السامعين . وفي لهجات ريف أهل مصر : رجل كاهن أو (كوهين) أو (كهين) هو الرجل الخبيث الماكر الذي يتلاعب بالألفاظ للتمويه على العوام الغفال ، ولعلَّهم استلهموا هذه المعاني من الاسم العِبري (Chohen)...

وفي العِبرية : كوهين ؛ هو مَنْ أنبأ الناسَ بإرادة الله أو قضى بالغيب...

و (كهنا) بالكلدانية : رجل الدين الذي يقوم بخدمة الناس ويسعى في حاجتهم . وفي العهد القديم : الكاهن هو رئيس قومه . وفي سِفر (خروج ٢٨ : ١) : « وقرِّب إليك هارون أخاك وبنيه معه من بني إسرائيل ليكهن لي » . وعليه ، فالكاهن هو الذي ينظم العلاقة بين الخالق والمخلوق ...

ويحرم على الكاهن في اليهودية حلق لحيته ففي (لاو ١٩ : ٢٧) : لا تُقصِّروا رءوسكم مستديرًا ولا تفسد عارِضيك » !!

***

بدأت أشعةُ فجرٍ خافتةٍ تسري في تلك الليلة الكئيبة التي لم يذق فيها رائد طعم النوم . الليلة التي اضطربت فيها أفكارُه بشكلٍ متسارعٍ وتزاحمت في خياله صورٌ شتّى لأنيس شيرين العليمي ، وسامح حسَّان و زكي فاضل و طبيب الباثولوجي إيَّاه « اللي عامل فيها أديب وسياسي وثورجي » و ... دودي سليم ؛ عروسه التي هجرته بحثًا عن شهرة ومال مع هشام شركس ، ولمَّا يدخل بها .

كان الصداعُ قد افترس رأسه فأحاط يده بها ودفن وجهه بين راحتيه الساخنتين . أحسَّ كأنَّ بلْطة خشَّاب تفصلُ قشرةَ دماغه تكاد تطيرها إلى أعلى . وبعد دقائق نهض متثاقلا إلى الثلاجة فتناول شريـط Ketofan 50 وحرّر كبسولة منه فابتلعها برِيقه دون ماء . قصد إلى غرفة النوم وانهدَّ على السرير فانطمست كل ملامح البشر في ذهنه ، انقلب على بطنه دافنًا رأسه بين وسادتين ناعمتين ضاغطا بهما على جانبي رأسه فبرق وجه دودي سليم في عينيه المغمضتين اللتين تقاوما النوم فاستسلم لِطَيْفها الذي يداعبه فتذكَّر أحلامهما ، آمالهما ، آلامهما، شبابهما . داهمته دودي بجمالها وذوبانها لُطفًا ورِقَّة .

كانت دودي سليم معدَّة برامج في قناة دريم ، وكان جمالها الصارخ يؤهلها إلى أن تكون أمام الكاميرا لا خلفها ، ولما تعرّف إليها رائد وصار يلتقيها في الأستديو تارة وعلى العشاء تارة أخرى مال إليها ومالت إليه فاتفقا على الارتباط ، فكانت الخطوبة ثم كتْب الكتاب . ولما فكَّرت إدارة القناة في إنتاج برنامج من تقديم رائد حسين الذي نال شهرة واسعة بعد الثورة بفضل كتاباته وكاريزما بديعة يمتلكها وجد رائد الفرصة سانحة لتكون دودي سليم إلى جانبه في البرنامج كمذيعة فعرض شرطه ذلك على القناة التي وافقت من فورها ، وأخذ برنامجهما بعد فترة ليست بطويلة في الشهرة و النجاح إلى أن تعلّل رائد بالانشغال في الكتابة والصحافة فترك البرنامج لخطيبته دودي سليم التي أضحت نارًا على علَم !!

اشترى رائد شقة الزوجية وترك شأن تجهيزها لعروسه الجميلة التي ابتاعت كل ما هو غالٍ وثمين من أثاث وتحف وكريستال وستائر وبُسُط من أرقى

محلات المهندسين ومصر الجديدة . التهمت تجهيزاتها ورغباتها كل ما في رصيده من أموال فالتجأ إلى أنيس العليمي وجريدته والسبعتلاف جنيه الشهرية فكان ما كان !!

ظلَّت الذكريات تغدو تروح في رأسه حتى رنَّ جرس المنبّه الذي استلّه من أفكاره وذكرياته وجمالِ عيني دودي سليم . نهض واقفا فيما كان صداع رأسه قد وضع أوزاره و أذعن لكبسولة الكيتوفان الصفراء فقصد إلى الحمام ونضى ملابسه واستسلم لسيل الماء البارد المنهمر من الدُّش ساندًا بكلتا يديه على الحائط مطرقًا رأسه تاركا الماء ينهمر متتابعا على رأسه . تحت الماء المنهمر برقت ذكرياتها مرة أخرى في ذهنه . كان يحسُّ بتطلعاتها ونهمها إلى الشهرة والمال إلا أنه كان يغالب ذلك الإحساس ويصرعه كلما ألمَّ به وألحّ عليه، جمالها الأخَّاذ ورقتها اللا متناهية وحبّه الجمّ لها كل أولئك دفعه إلى عدم مراجعة حساباته معها ، مراجعة حبه لها . تعرَّفت إلى هشام شركس المنتج السينمائي وصاحب مجموعة قنوات الـ NBN : صائد ماهر. مخادع . لا تأخذ أنثى في يديه « غَلْوة واحدة « . يصيد الفاتنات فيُكبّلهُنَّ في عقود احتكار مجحفة أو يقدمهنَّ على أطباق المُتعة إلى أمراءِ وأثرياءِ الخليج ، وكانت دودي سليم ممّن صادهنَّ وأوقعهنَّ في شِباك عقد احتكار يجعلها لا تدخل الحمَّام إلا بإذنه !!

قبل الدُّخلة بيومين دلفت مكتبي في جريدة (الشرق) كعروسِ بحرٍ قد خرجت لتوّها من أسطورة يونانية أخرجت من شنطتها علبة قطيفة حمراء دفعتها باتجاهي وهي تقول باصطناع ممثلة مُبتدِئة :

- صدّقني يا رائد أنا هافضل أحترمك لآخر لحظة في حياتي ، معلش، كل شيء قسمة ونصيب !!

فانعقد لساني ولم أنبس ببنت كلمة ، ثم ولّتني ظهرها وانصرفت تاركة آثار عطر يحاصرني ويخنقني .

دودي سليم في رأسي : جمال طاغٍ ، رقّة ذائبة ، ألم فاشٍ في أوصالي، نهم للمال جمّ ، عهدٌ زائف ، انتهازية مُفرِطة ، مأساة دونها كبار المآسي ، و .. قلّة أصل لا تنتهي !!

لو كان لـ « النذالةِ « إلهةٌ ، لكانت هي دودي سليم بجدارة !!

***

بعد ساعة ونصف ...

رائد في الجريدة و مقاله عن سامح حسان على مكتب طارق الرفاعي يقرؤه ..

وفي نفس التوقيت كان سامح حسَّان في طائرته إلى تركيا ..

وفي نفس التوقيت كانت لارا ترقصُ منتشيةً في غرفة نومها .. تبثُّ شكواها رقصًا ..

وفي نفس التوقيت كان زكي فاضل في شركته مستغرقًا في مراجعة حسابات مالية وإذا بشاب يدخل عليه لاهثًا من أثر الجري يقول باضطراب :

- اِلْحق يا عم زكي ، اِلْحق !!

فقال في ارتياع وهو يذَرُ ما في يديه :

- مالَك يَلَه فيه إيه ؟!!

فقال الشاب وهو يُغالب بُهْرَه :

- جمال ، جمال ابنك يا عم الحاج بيتخانق قُدَّام برج المتولي هوَّ وأصحابه وفيه ضرب نار وخرطوش والدم هناك للركب !!

فامتقع وجه زكي وهو يقول :

- يا نهاااار أسود !! منَّك لله يا جمال يا بني . منك لله !!

نهض بعدها في جزع واضطراب وقد فتح خزنة حديدية إلى يسار مكتبه فأخرج منها سلاحا نصف آلي روسي الصنع من نوع (أبو مسمار) ، وخَبَّ مسرعًا وهو يغمغم : « أُستر يا رب » ، وفي أثره الشاب .

لما أن فشى بلوتوث ابنة الحاج عليان المتولي في شبرا كلِّها وتناقله الشباب على المقاهي والغُرَز أحسَّ أولاد المتولي بشرخٍ كبير يقصم كيانهم إلى نصفين مُضعضعين ، كيانهم الذي ظلّ مهيبا منذ ستينيات القرن الفائت ، مُذ كان الحاج عليان مسؤولا عن الشباب في شبرا أيام الاتحاد الاشتراكي ، ثم أمينا للتنظيم في الحزب الوطني بشبرا ونائبا في مجلس الشعب .

لم يتخيل أبناء المتولي أن تنزل بهم قاصمة الظهر بسبب ابن زكي فاضل صبي العجلاتي الذي كان (!!) لم يدُر بخَلَدهم أن تكون نهاية الحاج عليان ،

الذي كان كمال الشاذلي نفسُه يعمل له ألفَ حسابٍ وحساب ، على يد ذلك السرسجي الدَّاعر ابن زكي فاضل . كان لسان حالهم يقول : - طول عُمر الحاج عِليان – اللّٰه يرحمه – جبل . شديد. صلب كالصوَّان الذي يتطاير منه الشَّرَر . حتى إنَّ الثورة لم تُضعِف من جبروته ولم تُؤثِّر في شخصيته ؛ فلم يتبرَّأ كما تبرّأ غيره ، من الحزب الوطني بل ظلَّ يُفاخِر بانتمائه إليه ، وفي كل جلسة أو قَعْدَة يُخرِج كارنيه الحزب ويضعه فوق رأسه قائلا والفخر يملؤه :

- الجماعة بتوع حزبنا اللي بيتبرُّوا منه دلوقتِ بعد انتفاضة الشباب يوم ٢٥ عالم وِسخة ، عـالم بتوع مصلحتهم و انتهازيين ، كانوا بيتمسّحوا في الحزب علشان مصالحهم ، أما أنا مكنش ليَّا مصالح ولا يحزنون ، الحمد لله غني قبل الحزب وليَّا هيبتي وسط ناسي و أهلي. الحمد لله ، الحزب هوَّ اللي كان بيحتاجني مش أنا اللي باحتاجه ، أنا اللي كنت باضيف للحزب مكنش هوَّ اللي بيضيفلي !!

يا اللّٰه !! كل هذا الجبروت والقوة لم يهزّه ولم يُوقِف دمه في شراييِنه سوى جمال ابن صبي العجلاتي !!

اتفق أولاد المتولي مع بلطجي مشهور في شبرا باسم (الشّمَّام) على أن يخطف جمال ويُصوِّره عاريا بعد إذ يضع في دُبره ماسورة أو خشبة انتقامًا منه على ما فعله مع أختهم المنتحرة .

- عايزين نعلِّم على أمّه عشان ما يرفعش عنيه في حدّ بعد كده تاني !!

اتفقوا مع الشمّام على ذلك ووضعوا في يده عشرة آلاف جنيه وكاميرا ديجيتال على أن يتسلّم منهم بعد تسليمهم الكاميرا محمَّلةً بفيديو اغتصاب

جمال عشرة آلاف أخرى . لم يكن أولاد المتولي يعرفون أن الشمَّامَ من محاسيب جمال ، حسبوا أن العشرين ألفا ستجعله يبيع أقرب الناس إليه وإن كانت أمه ، ذهب الشمَّام إلى جمال وفي يده الكاميرا الديجيتال والعشرة آلاف جنيه فأخذ منه الكاميرا ونفحه بعشرين ألفًا فوق العشرة وقال له بارتياح ظافر :

- خُد يا ساحبي دول من أخوك جمال وروح اتفسَّحلك يومين تلاتة كده بعيد عن شبرا عشان تبقى بعيد عن أي لَبَش يحصل هنا ، وسيب الباقي على أخوك الصغنن جيمي !!

بعدها اتفق جمال مع شابين على اصطناع معركة قُدَّام بُرج المتولي بالأسلحة البيضاء والخرطوش فينضمّ إليهم جمهرة من الشباب ممن قد اتفقوا معهم وقبضوا مقابل ذلك مبالغَ مالية وحبوب تامول وأصابع حشيش بلدي ، وما إن يخرج أولاد المتولي و عُمَّال شركتهم للدفاع عن بنايتهم ومعرضهم حتى تبدأ المعركة ويبدأ التخريب والانتقام .

بعد دقائق من احتدام المعركة المُصطنعة بين بلطجية جمال كان أولاد المتولي بعُمَّالهم قد تداخلوا في تلك المعركة التي سال فيها الدم ، وانشقّت فيها الرءوس ، وتصاعدت ذؤابات الدخان الأسود من أثر احتراق كاوتش السيارات أمام بُرج المتولي ومعرضه . وفي غياب تام للشرطة جاء زكي فاضل متقدما جمهرة أخرى من عمال شركته ورجاله وأنصاره أصحاب اللحى وهم يحملون عِصيّهم وبنادقهم الآلية والنصف آلية فتتسع المعركة ويشتد خطبها ويُسمع دويّ الرصاص وتتساقط جثثا مضرجة بدمائها . زكي يحاول رؤية ابنه جمال وسط تلك الجموع المتشابكة فيما قلبه ينخلع كلما سقطت

أمام عينيه جثة ، وما إن يقع بصره عليه وهو يحمل في يده فرْد خرطوش حتى يهرع إليه بهيكله الضخم وهو يصيح به منبّها إيَّاه من عصا غليظة كانت في طريقها إلى أُمّ رأسه ، فلا يصيخ جمال إلى أبيه السمع فتتكفّل رصاصات متتابعات تخرج من سلاحه النصف آلي بإخراس تلك العصا وصاحبها إلى الأبد . يطوّق زكي بعدها جمال بيده ثم يجري به سريعًا تحت حماية رجاله .

يصل زكي وابنه إلى مخزن شركته تحت حماية رجاله وسلاحهم ، فيمسك جمال من ذراعيه بقبضة قوية وقد تتابع نفَسه قائلا :

- جالك كلامي يا بن المرَة ، أهُو اللي كنت خايف منه حصل ، روح يا أخي .. الله يلعن أبو اللي عايز عيال زيَّك !!

متبجّحًا لا مباليا :

- أنا يا حاج ماغلطّش .. ولاد المتولي كان لازم يتربُّوا ، دول كانوا عايزين ..... !!

مقاطعا وقد أمسك بتلابيب جمال بقوة :

- اِسمع يَلَه .. أنا عمري ما هاسمح لكلب نجِس زيَّك إنه يضيّع شقا السنين ، والتلطيم اللي اتلطّمته والجري اللي جريته .. ثم محرِّرًا يديه من تلابيبه موليا ظهره له وقد أطرق رأسه و شحب وجهه : - اِسمع يَلَه ، خُدْ بعضك يا حيلِتها وروح ع الغردقة لغاية ما الأمور تِهدَا ، وأهو بالمَرَّة تتابع المطعم اللي

هناك وتلاقيلك حاجة تتلهي فيها ، أُقعُدلك هناك خمس ست شهور ، وسيبني أنا أسوِّي الموضوع ده بمعرِفتي !!

قالها ورأسه مشغول بترتيب وقائع ما حدث . فيما يحدِج ابنه باحتقار شديد بعد أن سلّمه إلى رجال مسلَّحين أوصاهم بحفظه وحمايته إلى أن يهبط الغردقة .

***

في اليوم التالي سيظهر خبر تنقله الجزيرة مباشر – مصر :

(سقط أربعةُ أشخاص قتلى ونحو ثمانين مصابًا جرَّاء معركة دارت في شبرا ظُهر أمس بين أنصار الرئيس المخلوع حسني مبارك وبين شباب الثورة (..) الذين خرجوا في تظاهراتٍ حاشدةٍ أمس رافعين شعارات الثورة مطالبين الرئيس المصري محمد مرسي بالمضي قُدُمَا في طريق الإصلاح وتطهير مؤسسات الوطن من الفلول وطابورهم الخامس ؛ حيث قام أنصارُ الرئيس السابق بمهاجمة مظاهرة التأييد أثناء مرورها بالقرب من ميدان فيكتوريا ورشقوهم بالحجارة فقام الثوارُ بالاشتباك معهم ..) .

وفي نفس اليوم كان الجزء الأول من مقال رائد حسين قد احتلَّ مع صورته نصف الصفحة الأخيرة لجريدة (الجريدة) و زُيِّن المقال بكاريكاتير مُلوَّن لكاهنٍ ككهنة بوذا ممتليء الجسم عظيم البطن مكشوفها على عربة (كارّو) يجرّها رجل نحيف ضئيل ذو لحية صغيرة ومن فم الكاهن تخرج عبارة : « يامَا في الجِراب يا كاهن « !!

وفي نفس الليلة سيكونُ المقالُ سِلْعةً رائجةً يتهافت عليها معدُّو برامج التوك شو ومذيعوها وضيوفهم ، وستكون دودي سليم في استقبال شخصٍ ما ، شخصٍ يفهمها كما يفهمُ نفسَه ، شخصٍ يُدرك أنها نادرةُ الذكاء كأنثى ، مُتْرعة بالسِّحر الذي هو خليقٌ بتذويب الرجال .

-١٤-

القاهرة .. سنة ١٥٢٣ م ..

القلْعة .. صحراء المقطّم .. الحُسين .. حارة زُويلَة ..

لمَّا أنْ فرَّ اليهوديُّ ذو الأصول الإسبانية أبراهام كاسترو رئيس دار سكّ العُملة في القاهرة إلى إستانبول كي يُبلغَ السلطان العثماني بخيانة أحمد باشا الدفتردار الذي تمرَّد على السلطان وأمر بسكّ اسمه على العُملة التي يتم تداولها في مصر ، وكان أحمد باشا عثمانيا متمرّدا، لما أن حدث ذلك أقْسم أحمد باشا بأغلظ الأيمان وأوثقها على الانتقام من اليهود وإفنائهم عن بكرة أبيهم أو يزوّدوه بالمال ، وقتها كان موردخاي كاسترو الشقيق الأكبر لأبراهام و (صرافباشي) الديوان مستغرقًا في مكتبه بالقلعة في إحصاء مبالغ الضريبة الجديدة التي تمَّ فرضها على المنازل والحوانيت إذ دخل عليه فزعًا لاهثا ابن خالته إيزاك الذي كان يعمل (دجرماشي) في دار السكّ قائلا :

- رُحْنا في داهية يا موردخاي ، اليهود راحوا كلهم في داهية !!

فأزاح موردخاي ما في يده من أوراق ودفاتر قائلا وقد تسلَّل إليه الذعر :

- في إيه يا إيزاك ، خير يا حبيبي ، نفسي مرَّة في خبر حلو تجيبهولي!!

جلس إيزاك إزاءه وخلع قُبعته الحمراء مخروطية الشكل (الطرطور) ووضعها على المكتب قائلا :

- حلو إيه بس يا موردخاي ، قلنا قبل كده لأخوك إبراهام ياكل عيش ويسكت ، مالنا احنا ومال المماليك والعثمانلية ندّخل بينهم ليه ؟!

فقال موردخاي وحرارة غضبه آخذة في الارتفاع :

- فيه إيه يا إيزاك ، ماتعصبنيش يا أخي ، جرى إيه ؟!

- أحمد باشا عرف إن أخوك سافر إستانبول يفتن عليه للسلطان ، وحلف لياخد كل اليهود في مصر بذنبه وهايصادر كل اللي حيلتنا يا موردخاي .

قالها وقد عضَّه الألم .

ينهض موردخاي وقد اضطربت ملامحه ويقول بصوت شاحب وهو يبلع ريقه بصعوبة بالغة :

- أحمد باشا فعلا عنيف ومتهور وعساكره ولاد لَذِينَ بيموتوا في الفلوس أكتر مننا ، الخوف إنه يهاجمنا في القلعة يا إيزاك وينتقم ؟!

- يهاجمنا ؟! والانكشارية اللي بيحرسونا هايسيبوهم يعني ؟!

- أنا ما أستبعدش يا إيزاك على أحمد باشا إنه يعمل أي شيء ، دا راجل سوّ يا خويا وما بيهموش لا من إنكشارية ولا من غيرهم ، بيعمل اللي هوّ عاوزُه وبس !!

- كله من أخوك يا موردخاي . هوّ السبب ! أحمد باشا سفاح يا موردخاي يا خويا ، مش بعيد يقتل كل اليهود اللي في القاهرة ؟!

- شكلك اتجننت يا إيزاك ، معقولة هايقتل ٣٠٠٠ يهودي ، هوّ احنا فراريج يا حمار ؟!

- صدَّقني كل شيء جايز يا موردخاي . مش بعيد كمان يهاجمنا في الحارة وينفّذ تهديده !!

- مش معقول حبيبي ، حسابات الدواوين في القاهرة وشغل الديوان وأسراره كلها في إيدينا ؟!

- على كده الإنكشارية كانوا أرحم منه كتير ؟!

- يظهر إنك بقيت تنسى يا إيزاك ، نسيت إنه من سنتين فاتوا لما السلطان سليم مات الانكشارية ولاد الحرام حاولوا ينهبوا حارتنا ويسرقوا كل اللي حيلتنا لولا الأُمَرَا ولاد الحلال اللي راضوهم وسدّوا بُقّهُم بشوية فلوس جمعناها من بعض . حار ونار في جتتهم ولاد الزواني !!

أطلق إيزاك ضحكة صاخبة تورّدت لها وجنتاه فقال :

- فاكر . فاكر يا موردخاي لما خبيت أتواب القماش الصوف الناعم اللي عندك وأتواب الحرير اللي بتتفاخر بيه . فاكر ؟!

بلهجة غاضبة عابسة :

- يا سلام يا خويا . هوَّ أنا بس اللي خبيت . ماأنت وأخوك ليشع حفرتم تحت البيت ودفنتم ١٢ كيس دا غير حِلَل النحاس اللي خبتوها كمان .

عاجبا :

- وانت عرِفت منين يا موردخاي ، انت بتراقبنا . عيب عليك والله يا راجل !!

هازئا متهكما :

- أراقبك . روح العب بعيد يا إيزاك ، مانت عارف الحارة شكلها عامل إزاي حبيبي ، دا اللي بيعطس في بيته جاره بيسمعه ، واللي بتُغنج لجوزها جارتها بتسمع غُنجها وبتقلّدها !!

قال إيزاك وهو يزدردُ ريقه الجاف إذ إنه أدرك أنَّ موردخاي يقصد امرأته التي لا تنِي تتغنّج كلما ركبها إيزاك فيهيج لغنجها الرقيع سابعُ جارٍ لهم :

- المهم . خلينا في المهم ، هانعمل إيه في وقعتنا السودة مع أحمد باشا ؟!

رانَ صمتٌ يسيرٌ بينهما وفيما هو يفكِّرُ في جوابٍ عن سؤال إيزاك إذا بصوت جلَبةٍ وصياح وعجيج وصليل سيوفٍ يشرخ الصمت فسعى موردخاي نحو الشرفة الصغيرة التي تطل على مدخل القلعة الجنوبي فإذا بمعركة حامية الوطيس بين الانكشارية المعسكرة لحماية القلعة و مهاجمين بسيوف ورماح وحِراب من المماليك الشراكسة بينهم ذُعر القاهرة ولصوصها ، وإذا بإيزاك يلطم خدّيه وينوح كالنساء ويقول وقد عصف به الخوف :

- رُحْنا في خبر كان يا موردخاي ، جالك كلامي يا حبيبي ، أخوك فر بجلده وسابنا محتاسين لوحدنا . الله يرحمك يا إيزاك ، هاتموت صغير يا حبيبي . تعرف ؛ كل خوفي يحطُّونا ع الخازوق ويربطوا نسوانّا بديول الحِصنة ويجرجروهم في الشوارع عرايا !!

حاول موردخاي أن يستجمع قواه ويتظاهر برباطة جأشه وفي داخله خوفٌ يُضعْضِع أوصاله :

- اِهْدَا ، اِهْدَا اللّٰه يلعنك ، خلينا نشوف إيه اللي هايحصل ، ما يمكن الانكشارية يعلّقوهم على أبواب القلعة ويسيبوا جثثهم للطير ينهشها ويبقوا عِبرة !!

- باقولك احنا رحنا خلاص في خبر كان ، شكلنا هانندفن في القلعة يا موردخاي ؟!

- يبقى أحسن لأهلك يا إيزاك ؛ وفّرت عليهم بدل ما يستتُّوا الليل عشان يدفنوا جيفتك على ضَيّ المشاعل ويعدُّوا النيل للبساتين عشان يتاوُوا راسك الزّنخة هناك !!

وما هي إلا ساعةٌ وكان المهاجمون والناهبون من المماليك الشراكسة والذُّعر قد قتلوا جميع إنكشارية القلعة واستلبوا أسلحتهم ومتاعَهُم فانخلع قلب إيزاك وأيقن أنَّ الموتَ لا محالة قادمٌ فاستعدّ وقرأ بضع آيات يحفظها من التوراة وبين أوان وآخر كان يختلس نظراتٍ ماكراتٍ نحو موردخاي الذي لم ينبِسْ بكلمة وهو يتابع المعركة من شُرفة مكتبه .

- ما تقرا يا موردخاي زيّ ما بقرا ، ولا انت مش عاوز تموت على شريعة يوشع ؟!

- اسكت يا حمار . هوَّ أنا زيّك ، إذا كان هوَّ أحمد باشا الدفتردار فأنا موردخاي كاسترو الصرافباشي . تعالَ ورايا يا حمار !!

- بس ما تشتمش يا موردخاي خليك يهودي مؤدَّب !!

كان موردخاي كاسترو بالفعل حويطًا إلى درجة أهّلته أن يكون (صرافباشي) الديوان ولم تكن الأرقام والحسابات والتفنّن بأصول الضرائب لعبته فقط بل كان يعمل حسابا لكل شيء في حياته . لم يكن يقدم على شيء إلا ويفكر في عواقبه ، فعندما تمَّ تعيينه في ديوان القلعة المالي كان حريصا على ألا يثق في جنودِ الانكشارية الذين حاولوا من سنتين مضتا نهب حارة زويلة وتدمير منازل اليهود بها فاتفق مع بعض رجال ديوانه الخُلصاء من اليهود فقط على تجهيز مسلكٍ سري في القلعة لا يعرفه غيرهم ليكون دربًا آمنًا لهم إنْ حدث مكروهٌ أو اعتداءٌ عليهم ، ولم يعرف بذلك الدرب السري بقية موظّفي الديوان من الأقباط والمسلمين والأرْمن والكاثوليك الشَّوام ممن يعملون معهم بديوان القاهرة وينافسونهم بنجاح .

سلك موردخاي كاسترو و إيزاك ابن خالته ذلك الدرب السري بعد إذ جمعوا أبناء جلدتهم من اليهود فنجُوا من موتٍ محقّق ، وسلكوا صحراء المقطم حاملين معهم كل أوراق ودفاتر الديوان .

وبعدين يا موردخاي يا خويا ، هانروح فين ، هانفضل في الصحرا كده لحد ما الكلاب والديابة يتاكلول لحمنا ويمصمصوا عضمنا .. يعني نهرب من سيوف أحمد باشا نقوم نسلم روحنا لدِيابة المقطَّم !!

قالها إيزاك وقد بان التعب والإرهاق على وجهه . فردَّ موردخاي متململا وقد فاض كيله وهو يقول :

يا باااي عليك يا إيزاك ، انت فظيع ، يهودي فظيع ، اسكت تعرف تسكت ، نقّطنا بسكاتك يابن أفرايم .

ماله أفرايم يا موردخاي ، عيني عليه أبويا ، عقبال ماتشوف ولادك زيُّه . أكبر تاجر بخور فيك يا مصر كل زوَّار الحسين بيشتروا منه بخور وبيحبوه ، آه يا بويا والله واحشني !!

وما إن أتمَّ إيزاك عبارته حتى لمعت كالبرق الخاطف فكرة في ذهن موردخاي ، « الحسين .. هو ذا الحي الذي سنلوذ به من بطش أحمد باشا الدفتردار » !!

***

قبيل المغرب ..

كان موردخاي وابن خالته إيزاك ومَنْ معهما من يهود ديوان القلعة في حي الحسين وقد غيَّروا هيئتهم بملابسَ احتياطيةٍ كانت في الدّرب السري مجهزة لأي طاريء يحدث ... لم يكن فيها ذلك الطرطور الأحمر الذي كان يعتمره اليهود فوق رءوسهم .. دخل الرجال مسجدَ الحسين وتيمَّموا شطر الضريح كأي مسلم يتمسَّح به ويبتهل بالدعاء قاصدًا مدَدَ الحسين ... بعد صلاة العشاء التي أدّوها بحركاتها وهيئاتها مع المصلِّين انفتل موردخاي وفي أثره إيزاك قاصدين وكالة أفرايم للبخور ، كان شيخا طاعنا في السن ذا لحيةٍ بيضاءَ ناعمةٍ وقلنسوة مزركشة وخلع من الحرير الملوَّن يجلس خلف دكّة خشبية عليها برطمان زجاجي ضخم بداخله قطع بخور هندي وإلى جواره يجلس اليهودي (هيلعتسي باسي) كبير صانعي الخلع في مصر .

ما إن يدلف إيزاك ومِنْ خلفه موردخاي الوكالة المعبّقة برائحة الطيوب والبخور والبُهارات والبن المحمّص بالحبهان والتمباك والنعناع ويُسلّما على إفرايم وهيلعتسي حتى يلجُوا بابًا خشبيًّا واطئا في نهاية الوكالة يؤدي إلى حجرة ضيّقة مظلمة .

كانت هي المأوى والمستقرّ لهم بعد هروبهم من القلعة ومن بطش أحمد باشا الدفتردار الذي ظلَّ عامًا كاملا متمردا على السلطان العثماني يسوم اليهود سوء العذاب مع الإنكشارية .

لم يخرج موردخاي من تلك الحجرة التي تشبه القبر طوال عامه هذا سوى أربع مرات ؛ الأولى عندما خرج بعد عِشاء ليلة خائفا يترقب فحلَّ بداره بحارة زويلة بعد أن اشتاق إلى فراش زوجه وغنجها فرمى برحمها بَذْرَة ولده الأول ياسف ثم خرج بعد ذلك مرتين متتاليتين إلى مسجد الحسين قاصدا ضريحه لما أحسّ بانقباض صدره ذا ليلة ، أما المرة الرابعة فقصد إلى حارة زويلة وظلَّ ثاويًا فيها لبضع ليالٍ اطمأنَّ فيها على أمواله المخبوءة تحت تراب بيته ، كما اطمأنَّ على ولده ياسف الذي رُزِقه بعد ثلاث بنات ، وقبل أن يؤوبَ إلى حجرة أفرايم التي كالقبر وضع بَذْرَة أخرى في رحم زوجه فكانت بعد تسعة أشهر ولدًا آخرَ يحمل صورة أبيه ياسف وهيئته فأسماه أبراهام تيمُّنا باسم أخيه الفارّ إلى إستانبول وكذا باسم إبراهيم باشا الصدر الأعظم بعد استعادة السلطان لمصر في العام ١٥٢٥ م .

كان سقوط أحمد باشا – إذن – طوقَ نجاةٍ لليهودِ فاحتفلوا بنجاتهم باعتباره عيد (بوريم مصرييم) اليهودي ؛ إذ كان شنق أحمد باشا الدفتردار في شهر مارس في وقت قريب من الاحتفال بعيد الفصح .

سيطر اليهود مرة أخرى على إدارة أموال الديوان وسكّ العُملة ، كما عمل بعضهم كمستشارين ماليين للانكشارية الذين كانت لهم مصلحُ مشتركة معهم ، والأمراء الذين تيقّنوا أنْ لا غنى عن اليهود برغم لصوصيتهم وممارستهم التزوير . فعاد موردخاي كاسترو إلى عمله بالقلعة إلى أن هلك فدُفن في مقبرته بالبساتين على ضفة النيل اليمنى ، وكانت جنازته من الجنازات القليلة التي مرَّت بالقرافة بالقُرب من ضريح الإمام الشافعي وفي رابعة النهار لا الليل كبقية جنازات أبناء يهود الذين كانوا يدفنون موتاهم بعد لأْيٍ ومشقةٍ بالغيْن .

أما إيزاك ابن خالته فقد كان مصيره الخازوق كما هو توقّع من ذي قبل ؛ إذ إنه أصبح فيما بعد مديرًا لجمارك السويس ثم اتُّهم بالتآمر مع بعض التجار لتهريب الرصاص والنحاس والفضَّة إلى الهند بالرغم من وجود حظر على سلب مثل هذه المعادن فانكشف أمره وحُكم عليه بالإعدام وضعًا على الخازوق مع آخرين ، يهود ومسلمين ، اشتركوا معه في التهريب فيما تمَّ إرسالُ يهوديْن آخريْن ممن ساعدوه إلى كابودان (قبطان) الإسكندرية للعمل تحت يديه كمُسيّري دفّة في غلايين البحرية العثمانية إذ كانوا لا يستحقون الإعدام بالخازوق .

بعد سنوات ...

كان إبراهام بن موردخاي في البحر غارقًا بعد ليلتين من إبحاره إلى إستانبول بعد صدور فرمانٍ من الأعتاب السامية بترحيله إلى إستانبول بمقتضى النظام العثماني (السورجون) Surgun ليُشرفَ بنفسه على عوائد جماركها كمُلتزم لها .

أما أخوه ياسف فقد أصبح رئيسَ دارِ القاهرةِ لسكّ العُملة بالإضافة إلى كونه صرافباشي ، فاستدعاه السلطان إلى إستانبول للاستماع إلى مقترحاته الجهنمية لزيادة العائد والضرائب التي كانت الخزانة العثمانلية تلتهمها دوريًّا من المصريين ، فاقترح ياسف أن تُجبى ضرائب جديدة على البُنّ الذي أضحى سلعةً رئيسةً في مصر ، فأشار على السلطان ألا يتم بيع البن للتجار الأوربيين إلا بعد أن يتمَّ الوفاء بمتطلبات الحكومة العثمانية أولا ، كما أشار على السلطان بزيادة عوائد البيوت والحوانيت فوافق الباشا من فوْره على ذلك وأمر ياسف بالعودة إلى مصر لتطبيق تلك الضرائب الجديدة . وما إن عاد ياسف حتى استقبله اليهودُ واحتفوا به احتفاءًا عظيما كفاتح يعود بالظَّفر ، وما هي إلا أيامٌ وأسابيع ويصدر قرار منه بجباية الضرائب الجديدة فيتميّز التجار والأعيان غيظا ويزيد حنقهم وتعلوا شكاواهم إلى الأمير الذي لم يجد من ياسف إلا إصرارا على جباية تلك الضرائب التي اتفق بشأنها مع السلطان العثمانلي في إستانبول ، عندئذ عزم التجار والأعيان على الانتقام من ذلك اليهودي الجابي (ياسف) فتحرّشوا به غير مرة فأخذه الأمير إلى القلعة لحمايته بعد أن أمر بسفر ولده الوحيد (كوهين) وزوجه إلى إستانبول حتى تهدأَ الأوضاعُ وتستقرَّ الأحوالِ .

إستانبول Istanbul .. سنة ١٥٢٦ م ..

سافرت زوجه وابنها كوهين إلى إستانبول فأكرمهما السلطان العثماني واتخذ لهما دارًا كبيرة تقف في شرفتها فترى مضيق البسفور ، وأمر برعايتهما ، وتوفير ما يلزمهما إلى أن يعود ربَّهما (ياسف) إلا أن يدَ القدر قد خطّت له نهاية حزينةً بائسة ؛ فاقتحم الدَّهماء وبعض الجنود الذين أوعز إليهم التجار

والأعيان بقتل ياسف فهجموا على القلعة وقتلوه ثم سحبوا جثته إلى ميدان الرميلة تحت القلعة وأحرقوها وذرُّوا رمادها .

***

مرَّت السنون إلى أن أصبح (كوهين ياسف بن موردخاي كاسترو) المستشار المالي للأعتاب السامية (قصر السلطان في إستانبول) فحافظ اليهود بذلك على مواقعهم الممتازة في الدولة العثمانية ، و أفاد العثمانيون إفادةً تامةً من مواهبِ اليهودِ الاقتصاديةِ والماليةِ الذين عجَّت بهم الدواوين والمهن الحيوية ودوائر الجمارك والضرائب وغيرها .

وترك كوهين من بعده نسلٌ تكاثر في إستانبول ، جيلا بعد جيلٍ ، إلى أن هاجر معظمهم إلى فلسطين واستقرّ بها لإنشاء دولتهم . الحُلم. أرض الميعاد . وممَّن كان من نسل كوهين حفيده : (ليفي حاييم شاؤول بيريز كوهين ياسف موردخاي) ضابط قسم العمليات بالموساد الإسرائيلي ذي الأصول الإسبانية المصرية الذي كلما اشتاق إلى مصرَ زار قصرَ جدّه كوهين في إستانبول وقرأ وثائقَ ودفاتر أجداده القديمة التي توارثتها العائلةُ جِيلا بعد جيل .

-١٥-

إستانبول بعد ٤٩٠ سنة ...

فندق موفنبيك Mövenpick إستانبول ..جناح (سكاي لاين) – الطابق التاسع عشر ..

بعد أن هبطَ إستانبول وقصد إلى الفندق غطّ سامح في نومٍ عميقٍ ابتغاءًا للراحة .

وبعد أن صحا قُرب الخامسة طلب بالتلفون غداءه في الجناح الفخم الذي حلَّ به ؛ إذ لم يقوَ على النزول لتناوله بالمطعم ، وفيما هو بانتظاره شرع في فتح شنطة يده الجلدية فاستخرج منها كتابًا ضخمًا مجلَّدًا يدويًّا بعناية ، وأخذ يُحملِق في غلافه المزخرف بخطوط مموّهة بالذهب وبدأ يقرأ عنوانَ الكتاب المكتوب بالخط الفارسي : « الإسرائيليات والإسلام – أصول وارتباط» تأليف الشيخ : جاسم بن عطية المِرّي ، ثم مدّ يده ففتحه وأنشأ يقرأ دون تحديد فوجد مشقةً في التركيز فأغمض عينيه للحظات لكنه سمع قرعًا على باب الجناح ثم انفتح الباب ودخلت فتاةٌ بملامحَ روسيةٍ تدفع أمامها عربة مذهبة عليها صحافُ الغداء ، ابتسمت له ابتسامةً كشفت عن أسنانٍ بيضاءَ نضيدةٍ وغمّازتين في خدّيها المتورّدين وقبل أن تُغادِرَ قالت بعربيةٍ ركيكةٍ متكسّرةٍ :

- أهلا وسهلا بك سيدي في تركيا .

سحب سامح عربةَ الطعام وجلس قُبالتها ثم نضى طرف جلبابه الذي كان يرتديه فعرّى فخِذه ثم غرس إبرة الأنسولين فيه وطفق يأكل مستلذًّا بالمشويات التركية .

بعد أن تناول غداءَه وشرب الشاي أحسّ بنشاط يدبّ في جسده وأوصاله فعزم على ارتداء ملابسه للخروج إلا أنّهَ سمع رنين تلفون غرفته ، وما إن وضع السماعة على أذنه حتى تسلَّل إليه صوتٌ يعرفه جيدا فقال وقد تملّكه الحُبُور :

- اللّٰه يسلمك يا شيخنا . سلامات يا مولانا . مشتاقون لكم .

- اللّٰه يسلمك يا سامح . سعادتي لا توصف بمقدمك .

- ألن نتقابل الليلة يا شيخنا ؟!

- ولم التعجّل يا سامح ، فلتستمتع بتركيا وسحرِها لتستعيدَ صفاءك فيصير عقلك بعد ذلك كالصارمِ المشحوذِ !!

- ومتى نتقابل إذن ، فكم اشتقت إلى رؤياك !!

- غدًا بإذن اللّٰه ، ولن نفترق مادمت في تركيا ، ولكن اصنع ما أمرتك به .

- وما هو يا شيخي ؟

- إش لون سامح ، أنسيت يا رجل ؟! استمتع بتركيا وسحرها أولا .

- بالفعل كنت أشرع في ارتداء ملابسي استعدادًا للنزول والتجوّل في شوارع إستانبول .

- هذا جزء يسير من المتعة ، ولكني أعددت لك جزءً آخرَ الليلة !!

- خيرًا يا شيخي ؟!

- الليلة سيأتيك ضيف ، ضيف لطيف ، فأكرم وفادته ، وأصِخ السمع لكلامه !!

- ضيف ؟! عجبا لك يا شيخي ، دائما تصنع المفاجآت .

لم يكن ذلك الضيف سوى كاجين أوزكان ، تلك الفاتنةُ التركية التي هي أشهر مَنْ يقُمن بالتدليك في تركيا .

ما إن أنهى سامح مكالمته حتى سمع قرعًا على باب الجناح فنهض وكلام ذلك الشيخ يبرق في ذهنه . فتح الباب فإذا بالمفاجأة .. فتاة كآية عجيبة في الحُسْن . ممشوقة القوام ، مُترعة بالمفاتن ، ذات شعر كستنائي طويل ناعم ينسدل على ظهرها وكتفيها ، وشفتين مكتنزتين تنضحان شبقًا وتسقيان العينَ خمرًا . ترتدي قميصًا أبيضَ شفافًا تبِينُ من تحته حمَّالةُ صدر تضم ثديين ناهدين عارمين ينفجان شهوة، وhot short أحمر لا يكاد يخفي مؤخرتها اللطيفة المتكوّرة التي يحملها فخذان ملفوفتان ممتلئتان قد قُدّتا من المرمر ، وفي يدها حقيبة سوداء صغيرة من نوع الـ hand bag الصغيرة . يتسمّر سامح في مكانه كأنما دُقّ بمسامير في الأرض ، يفغر فاه فيما هي تدلف كعصفور تقرع الأرض بقدميها اللتين تحفظهما في صندل أبيض ذي سيور كثيرة ملفوفة على ساقيها فيخيل إلى سامح أنَّ الأرضَ تهتزّ من تحتها

. يتذكر لارا ، جمالها هاديء معجون بالرقة والأنوثة ، أما تلك الغادة الحسناء فجمالها يثير الشبق و يعزف على قيثارة الشهوة لحنًا من كهرباء الإثارة التي تسري في جسمه فينبض قلبه أيما نبض، وتمتليء الدنيا من حوله نشوةً واشتهاءًا . جمال يَبْدَه كلَّ من يراه . يوقِظ ذُكوريته التي سلبها منه ، قهرًا ، مرض السكّر .. بعد أن قلَّب عينيه في مفاتنها كلِّها ، تهتزّ أوصاله فيغمض عينيه ويقول مُغمغِمًا :

- اِغْفر لي يا إلهي ، سامحني يارب . اِغْفر لعبدك الضعيف !!

فتضحك كاجين بملء فِيِها فيحسّ سامح بقلبه يزداد خفقانا ، وبأعصابه تذوب ، فيحاول الثبات ويقول بصوتٍ لا يكادُ يَبِين :

- Can I help you!?

فتتبسّم من إنجليزيته الركيكة وتقول بعد أن تضع حقيبتها على منضدة في استقبال الجناح :

- هوِّن عليك أستاذ سامح ، فأنا أتحدّث العربية بطلاقة !!

فيتنهد سامح قائلا :

- ماذا تريدين ؟ أقصد : هل أستطيع مساعدتك ؟

- العفو أستاذ سامح ، بل أنا هنا لمساعدتك أنت !!

عاجبًا وقد غضَّ طرفه :

- لكني لم أطلب مساعدة من أحد !!

- ولم لا تقول أنَّ غيرك قد حرص على مساعدتك في تركيا فأرسلني إليك ؟!

- لا أفهم عمّن تتكلمين ، هلَّا أفصحت ووضّحت ؟!

- ألم يُحدّثك شيخك عن مفاجأة قد جهّزها لك ؟!

خمش سامح بأظافره مؤخر رأسه وقال :

- عن أي شيخٍ تتحدثين ؟!

تهمس قائلة :

- لا تخف سيد سامح ، فأنا المفاجأة التي قد جهزها لك شيخك ، فما رأيك إذن فيها ؟!

- في ماذا ؟!

بصوت كرنين الفضَّة :

- المفاجأة ، أنا . ما رأيك في مفاجأة الشيخ ؟!

لم ينبس سامح بكلمة فما يزال نشوانًا مُزَلْزَلا . فتبْدَح نحوه وهي تقول في رقَّة :

- أنا كاجين ، سأقوم الليلة بتدليكك سيدي ، بيديّ هاتين سأمنح لجسدك زخمًا من الأحاسيس و حرارةً في الأوصال !!

- تدليك ؟!

- نعم .. هي ذي مفاجأة الشيخ جاسم . هي ذي مفاجأته أستاذ سامح !!

كان الشيخ جاسم بن عطية المرّي هو ذلك الشخص الذي هاتَفَ (سامح) قبل دخول كاجين . الشيخُ قطريّ ، ولسامحٍ كان صديقا وأستاذًا . هو ذا الشيخ الذي يحتفظ سامح بكتابه ويصونه ، هو ذا الشيخ الذي أثَّر في سامح كما لم يؤثّر فيه أحد من ذي قبل . كان لكتاب الشيخ (الإسرائيليات والإسلام – أصول وارتباط) سلطانٌ كبيرٌ على سامح ، لا يستطع تصوير حلْقة من برنامجه المشحون بآيات التوراة وهرطقات العلوم وهلاوسها إلا بعد أن يُطالعه ويهضمَ مادته. تعرَّف سامح على جاسم منذ العام ٢٠٠٨ م لما زار قطر بدعوة من جامعتها لإلقاء محاضرة هناك ، وقتها دهش من الدعوة ؛ إذ لم يكن سامح أستاذًا من الأساس في القانون أو الشريعة إلا أنه لبّى الدعوة وتعرّف إليه فأضحى صديقه ، وطفقا يتبادلان الزيارات فيما بينهما .

انعقدَ لسانُ سامح عن الكلام ، وأنشأ يضربُ أخماسًا لأسداس فيما الفاتنةُ التركيةُ تستوي على كرسيٍّ واضعةً ساقًا فوق ساق وتشرع تفتح حقيبتها فتُخرج منها ورقة بحجم الـ A4 وقلمًا فتخطّ اسمها في أسفل الورقة بحروف عربية وأخرى لاتينية ثم تدفع بالورقة والقلم إلى سامح الذي لما يزل متسمّرا في مكانه :

- اتفضّل أستاذ سامح . وقّع هاهنا اسمك كاملا !!

فيدنو منها عاجبًا وهو يهزّ رأسه مستفهمًا :

- أوقّع على ماذا . وما هذه الورقة . وماذا تحوي سطورها ؟!

- اقرأها وستعرف !!

متردِّدًا ، يتناول الورقة ، وقد سرت رعشة خفيفة إلى أطرافه ، ونبضت عروق جبهته . ما إن يقرأ الورقة بعينين فاحصتين حتى يعقد حاجبيه دهشًا ويردف قائلا :

- ما هذا . يا إلهي ، يالها من مفاجأة بحقّ !!

بغُنجٍ ودلال تقول :

- أنا أم ما في الورقة ؟!

- كِلاكما .. لم أتخيَّل حدوثَ ذلك قطّ !!

- والآن ، هل تخيّلته ؟! هل أدركتَ أنه حقيقةٌ كالشمس ؟!

- وهل بعد ذلك كله من خيال ؟! فأنت هاهنا ماثلة أمام عينيّ وهاهي ذي الورقة بين يديّ .

يصمت هنيهة ثم يستأنف قائلا بعد أن يشير بأصبعه إلى أسفل الورقة :

- ولكن ، توقيع مَنْ هذا ؟ أعرف توقيع شيخي جاسم ، لكنّ توقيعًا آخرَ بإزاء توقيعه لا أعرف صاحبه . فمن يكون إذن ؟!

- وهل هذا يهمك إلى تلك الدرجة ، ألا يكفيك توقيع الشيخ ؟!

- بالتأكيد . .. فلتعتبري سؤالي ضربا من الفضول !!

تنهض واقفة وبابتسامة حالمة تقول :

- الفضولُ قتلَ الهرّة يا أستاذ سامح . ألا تعلم ذلك ؟! وقّع أرجوك، فليس من المعقول أن نقضىَ ليلتنا تلك في سين وجيم . وقِّع من فضلك !!

ما تلك الورقةُ إلا عقدُ زواجٍ عُرفي بين سامح وكاجين ، عقد زواج مكتوب بصيغة عربية على الكمبيوتر ويحمل توقيع شاهدين ؛ أحدهما الشيخ جاسم . ستقوم كاجين بتدليك سامح وستتعرَّى قُبالته كما ولدتها أمها ، وستنزع بيديها ملابسه ، وستنام على سريره أينما حلّ في تركيا أو ارتحل ، من أجل ذلك كله كانت تلك الورقة التي تفصل ، على حسب اجتهاد سامح وشيخه ، ما بين الحلال والحرام . ولأنَّ الشيخ جاسم قد أوصاه بضيفه خيرًا وإكرام وفادته لم يجد سامح بُدًّا من الإصغاء والتوقيع !!

***

بعد وقت لم يحسبه سامح ... هيّأت خلاله كاجين مكان التدليك في غرفة النوم ؛ فأخفتت إضاءتها وأشعلت بعض الشموع التي تفوح عطرًا ... بعد إذ نصحت سامح بحمّام ماء دافيء فأصاخ لها السمع .

أمرته كاجين ، بعد أن نضت عنه الروب القطني ، بالاسترخاء على بطنه فوق سرير صغير كالشيزلونج في ركن تحت نافذة كبيرة لا يظهر خلف زجاجها سوى أنوارٍ متناثرة بعيدة منبثقة من العمارات والأبنية المواجهة التي جلَّلَها الليلُ بِغبَشِه . أخرجت من حقيبتها زجاجاتِ زيت عرف سامح منها أنه زيتُ

اللوز الحلو وزيت النعناع ، وزيت يلانج يلانج Ylang - ylang الذي ينشّط الدورة الدموية ويُقوّي الرغبة الجنسية .. لم يفهم سامح بالطبع معنى الاسم لكنه أصغى باهتمام وتركيز لإيقاعه وهو يخرج من فمها . دلّكته كاجين ببطء وتمهّل مبتدئة بأصابع قدميه ، أحسّ سامح بأناملها اللطيفة على لحمه الذي يتماوج مع حركة التدليك . أصابع لطيفة باردة تتحسّس مواطن الألم، وتعرك اللحم فتنفذ إلى الأعصاب .

سألها سامح وهو نشوان :

- لديّ سؤال قد يضايقك لكنه قد يكون حقا أصيلا من حقوقي ؟!

وبنبرة تشملها الثقة :

- وماذا لو قلت لك : إنني أعرف ماترمي إليه في سؤالك ؟!

- تعرفين ؟! فلتُجيبين إذن يا جميلتي ؟!

- أنت تريد أن تعرف ما إذا كنت بِكرًا أم لا ؟!

- ليس هكذا بالضبط ؛ فأنا أعرفُ أنَّ امرأةً فاتنةً مثلك لابد أن تكون قد ارتبطت برجل أو رجال من ذي قبل ، بل أسأل عن عددهم !!

جفَلَت وقالت :

- وهل تظنني داعرةً يا سيد سامح ؟! إنَّ داعرةً في بلادكم لو سمعت سؤالك هذا لأحسّت بتصاغرِها ودُونيتها بالرغم من كونها داعرة بغيّا!!

- لقد توقعت أن يضايقك سؤالي هذا إلا أنني كرجل ظننت أو تخيّلت أنّ ذلك حقي ؟

- لا بأس ، فأنتم أيها الرجال تسألون دائمًا عن أشياءَ إن تُبدَ لكم تسوؤْكم . لتوفّرْ مجهودَك الليلة يا سامح ثم بيننا أسبوع كامل نتكلم فيه كيف شئت !!

- هل أنت مسلمة يا كاجين ؟!

- ألم تقرأ اسمي كاملا في ورقة عقد الزواج ؟!

- للأسف لم أهتم بالأمر ، فقد شملتني المفاجأة بضجيج شوّش ذهني.

- اسمي كاجين .. كاجين عمر فاروق أوزكان .

- وما معنى كاجين ؟!

- أين الحياة !!

- يُخيّل إليّ أنَّ عمر فاروق اسم مركَّب . أليس كذلك ؟

- بلى . بلى سامح ، اسم مركب . عمر الفاروق !!

- إذن أنت مسلمة ؟!

- وهل هذا أمرٌ ذو بال . المهم أنني زوجك الآن بطريقة شرعية !!

- نعم . نعم .. لقد أمسيتَ الآن زوجي !!

أحسَّ سامح بحرارةٍ تتوغّل في جسده فنشطَ معها عضـوه ، فأدركت كاجين الأمرَ فتوقّفت عن التدليك وشرعت تتثنّى تجاهه وتخلع قميصها ثم ولّته ظهرها وقصدت إلى السرير الكينج ترتمي عليه وهي تنزع عنها حمّالة صدرها والـ hot short ثم رمته بنظرات عجيبات ملتهبات واستحالت إلى فرس جمُوح وأخذت تغنج بصوت مثير فالتهب صدره بلذاذة الشهوة الجهنميَّة فأقبل عليها مستعدّا لاختراق عالمها !!

***

في الصباح .. سيكون زكي فاضل حريصًا على مُطالعة الصحف التي نقلت خبر معركة شُبرا عن الجزيرة مباشر- مصر ، وسيكون مقال رائد حسين في (الجريدة) بعنوان : (البلْطجة التي حوّلوها إلى مظاهرة تأييد للرئيس) .. وسيقول زكي فاضل في نفسه وهو يقرأ المقال الذي يحوي تفاصيل ما حدث على الحقيقة : « الواد الصحفي ابن الكئيبة جاب الكلام ده منين ؟! ملعون أبو خاش اللي زيّه »!!

لم يدرِ زكي فاضل أنَّ هذا الصحفي ابن الكئيبة (..) قد عرف تفاصيل ما حدث على الحقيقة بعيدا عن الجزيرة والفضائيات الأجنبية من مصطفى عامر مدرس اللغة العربية .

-١٦-

رنينُ تلفون غرفته بدأ في العواء فنهضَ سامح وفنجان القهوة التركية في يده ورفع السمّاعة فتناهى إلى أُذنه صوتُ فتاة الاستقبال بالفندق وهي تقول في لهجة لُبنانية متكسّرة :

- سيِّد سامح ، هلّق وصل شيخ جاسم المري وبِدّن يصعد ها الجناح تبعك .

- طبعًا يتفضَّل . أنا في انتظاره ... من الممكن أن يصعد بعد ربع ساعة من الآن .

وما إن وضع السماعة حتى كانت كاجين قد انتهت من ارتداء ملابسها ؛ بنطلون جينز أزرق اللون وبادي بأكمام وفوقه بالطُو تركي بيج beige بلون الصوف الطبيعي مُغلَق بثلاثة أزرار كبيرةٍ دكْناء ناحية صدرها الأيسر فيما تلفُّ رأسها بإيشارب بنيٍّ غامق منسدلٍ على صدرها على طريقة الحجاب التركي . عجب سامح واسترسل في الضحك قائلا :

-ما شاء الله .. والله أنت هكذا تبدين جميلة !!

هل أعجبتك ملابسي ؟!

- بالتأكيد . ولكن أين ستذهبين ، ومن أين جئت بتلك الملابس ؟!

- أعتقد أنَّ وجودك مع ضيفك الشيخ بمفردكما سيكون مناسبا لكليكما !!

دهش لكلامها إلا أنه تلقاه بقبول حسن فأذعن له ؛ إذ كان في نيته تسريبها بالخارج كقطَّة عندما يلمّ بجناحه الشيخ جاسم المري ، لذا أمهل نفسه الربع ساعة التي أخبر بها فتاة الاستقبال ، إلا أنَّ كاجين قد وفّرت عليه جهده في إقناعها بالنزول ... تبدَحُ منه فتطبع على شفتيه قُبلة أحسّ معها بطعم الفراولة قبل أن تغادر الجناح إلى مكان لم يستفسر سامح عنه .

بعد نحو خمس دقائق من خروجها يقرع البابَ جاسم الذي ما إن يراه سامح حتى يحتضنه بحرارة . كان جاسم يرتدي بدلة فاخرة وحذاءً لامعا أنيقًا ونظارة شمسية سوداء . فارع الطول كنخلة. بشرته سمراء وأنفه صغير مفلطح ووجهه مستطيل مكتنز ... دخل جاسم يتأمل الجناحَ الفاخرَ وهو ممسك بيد سامح الذي تصاغر إزاءه وانكمش .

- إنّ سعادتي لا تُصف يا شيخنا بمقابلتك .. فكم اشتقت إليك !!

- وضع جاسم يده على كتف سامح قبل أن يقعد قائلا :

- كلك واجب يا سامح ، سنلتقي قريبا في مصر . فلا تقلق .

- إن شاء اللّٰه .. إن شاء اللّٰه .

قال جاسم بعد أن تفحّص وجه سامح فوجد وجنتيه متورتين :

- ها .. ما رأيك في مفاجأة الأمس ؟!

فافترّ ثغر سامح عن ابتسامة رائقة :

- يالها من مفاجأة يا شيخي !! واللّٰه كأنني كنت في حُلْم لذيذ !!

- أنت رجلنا وخليصُنا وغايتنا إسعادك ، وهذا غيض من فيض !!

- غَيْض ؟! إنه الفيضُ ذاتُه يا شيخي . إنها امرأةٌ لم أرَ مثلها في حياتي قطّ ، إنها أولُ امرأةٍ تحرّك أحاسيسي وتُلْهب جوارحي .

يضحك بصخب :

- أنت تستحق كلَّ معروف يا سامح .

- وأنت يا شيخي ، كيف حالك ؟!

- بخير .. بخير يا سامح .

نهض جاسم وهو يقول :

- أُعذرني يا شيخ جاسم فقد نسيت أن أضيّفك . ماذا تشرب ؟!

يمسكه من يده ضاغطًا عليها جاذبًا إيَّاها لأسفل :

- فلتجلس يا سامح فقد تناولت مشروبًا ببهو الاستقبال خلال الربع ساعة التي سرّبت فيها كاجين !!

ازدرد سامح ريقه بصعوبة وقال بصوت خافت :

- سبحان اللّٰه ، أوَ تعرف ما حدث بيننا ؟!

- أوَ تظنّ خلاف ذلك ؟!

بتردد وقد اعتراه الشحوب :

- كلا ... العفو يا شيخي ، فهي مفاجأتك وأنت أدرى بها !!

- بل هي الآن زوجك التي عاشرتها البارحة !!

قال سامح وهو يعبث بخاتمه محاولا تغيير وجهة الكلام الذي لا يفهم فحواه حتى تلك اللحظة :

- هل شاهدتَ الحلْقة الأخيرةَ من برنامجي ؟

ضاحكا وقد غاص في مقعده :

- بالطبع ، كل حلقة من حلقاتك أشاهدها وأحلِّل جوانبها ، وأعدُّ تقريرا عنها كما أنا أخبرتك من ذي قبل . أوَ نسيت ؟!

- كلا .. لم أنسَ طبعا ، إلا أنني أردت فقط الاطمئنان عن المحتوى والمستوى .

- اطمئن .. فأنت تتقدّم يومًا عن آخر .

- الفضلُ لك يا شيخي واللّه . فكم أفدت من كتابكم الماتعِ . غير أنني ..... !! (يصمت سامح) .

قال جاسم في فتور وهو يتفرّسُ ملامحَه :

- تكلَّم . لم سكتّ ؟ غير أنك ماذا ؟!

- يعني .. أحس أن في الكتاب أكاذيبَ متعددةً كما أحس بأكاذيب التوراة طافحة فيها مجافية للعلم والمنطق والعقيدة !!

عبس جاسم فنهض ومشى نحو النافذة الكبيرة متأملا الضباب الكثيف الذي يخنق العمارات والأبنية ثم استدار إلى سامح الذي قام في أثره قائلا :

- إنَّ ما أحسست به ولاحظته هو المطلوب يا سامح !! وأعتقد أننا قد منحناك فرصةً عظيمةً لتكون كما أنت الآن ملْ السمع والبصر . يا أخي : إنك الآن أشهر من الرئيس نفسه !!

يقولها وهو يضحك ضحكة بلون صفار البيض ثم يستأنف كلامه وقد قعد هو وسامح :

- « شوف أخ سامح ؛ مصر بلد عظيم لكنها بحاجة إلى رجال أكفاء مثلك ، لذا ينبغي التمهيد والاستعداد لدخولك حلبة حكم مصر وعواطف المصريين تجنح دائما نحو تاريخهم تستلذ به ، وتحتفي بالعلوم وتصدقها .. فكان لزامًا أنْ نصدمهم بحكايات من التوراة التي يمتهنونها ، حتى في جامعاتكم لا تتنبَّهُون إلى أن التوراة سِفرٌ عظيم يحوي تفصيلات ليست في القرآن .. أنت تُفيق المصريين مما هم فيه ، تعرفهم حجمهم الحقيقي ، ماهم سوى ترس في ماكينة الشرق الكبير ، ترس مُكمِّل مُو أساسي ، ترس لا يعمل بمفرده أبدًا . لا بدّ أن يعرف المصريون أنّ تاريخهم الذي يعتزون به ويبنون عليه رياستهم للدنيا ماهو إلا تاريخ ذو أصول إسرائيلية سامية . وهذا ما ستتناوله في حلْقتك القادمة يا سامح . سيكون لحمتها وسداها الآيات القرآنية التي تتناول تاريخ بني إسرائيل في مصر» !!

فقال سامح بصوتٍ خافت :

- وهل أنا قصّرت في شيء يا شيخي ؟!

فأجابه جاسم بصوت حادّ عميق :

- بالطبع لم تُقصّر ، فأنت تلميذ نجيب ، لكنني أريد منك ألا تقلق ، أنت تخدم بلدك . تُحدث لها صدمة لتفيق فتنهض وتقود !!

فلتطمئن يا شيخ جاسم ، سأكون عند حُسن الظنّ دائما .

- آه . قبل أن أنسى لابد أن أوجّهك إلى شيء !!

- خيرًا .

- زكي فاضل . أعرف أنه رجلك المخلص غير أنَّ ابنه يتسبب له في كثير من المشاكل التي قد تؤدّي إلى التأثير علينا . هلا علمت ماحدث في شبرا وأنت في طريقك إلى تركيا !!

- إنَّ ابنه هذا قد افتعل مشاجرة عظيمة ولولا الفراغ المني في مصر، ولولا أنَّ أباه قد عالج الأمر بذكاء مفرط لحدث مالا يُحمد عقباه !!

- وما العمل . فهو ابنه !!

- لتكن أكثر حرصًا معه . اجعل عينيك عليه دائما ، ولا تفرط فيه أبدًا ؛ لأننا عن قريب سوف نحتاج إليه قريبًا !!

- لا أعرف يا شيخي كيف يكون حالي دون توجيهاتك الثمينة !!

- لا تُقلِّل من شأنك يا سامح ، فأنت مثال ممتاز للنبوغ والكاريزما والإقناع !!

تهلّلت أسارير سامح فقال :

- الفضْلُ لتوجيهاتك يا شيخ جاسم !!

- ليست توجيهاتي فقط ، الفضل لابدَّ أن يُسندَ إلى أهله ، فلا تنسَ صديقنا العزيز ابن عمَّك (ليفي موردخاي كاسترو) !!

***

شارفت الشمسُ على الغروب ولمَّا ترجع كاجين إلى جناحه ، كانت كالطيف أو الخيال ، لا يعرف لها رقمَ تليفون أو عنوانًا . كما لم يسأل الشيخ جاسم عنها . ربّما تحرّج منه . تناول غداءه في جناحه ثم ارتدى بدلةً أنيقة – كعادته – فوقها بالطو وغادر الفندق . « غريب أمر هذه الفتاة ؛ أين ذهبت ؟ وكيف لم أفكر في معرفة رقم هاتفها؟ أليست زوجي ؟ أم هي محض خيال ؟! كلا ، إنها حقيقةٌ .حقيقةٌ رمقتُ فتنتها و عركتُ جسدها . ويلي ثم ويلي من هذا الجسد »!! تقاذفته أحداثُ الليلة البارحة وتلاطمت في ذهنه الخيالات المترعة بلذَّة الأنثى التي ألهبته كما لم يلتهب من ذي قبل ، أنثى جعلته ذكرًا كاملا ، ذكرًا يخترق عوالمها بالرغم من مرض السكر اللعين الذي ألمّ به فضعضعه . « يا إلهي ، لم لا أكون في مصرَ ذكرًا كاملا » ؟!

لم يُخرِجه من تفكيره سوى تيارات الهواء البارد المتدفقة من كل الاتجاهات . كان قد قطع شارع ليفنت ومرّ على محطة المترو القريبة من الفندق فوجد

نفسه في قلب المنطقة التجارية الحديثة بمحلاتها الأنيقة وأنوارها المتلألئة . انقضى وقت لم يشعر بمروره ؛ إذ ظلّ أسيرًا لخواطره المتلاطمة حول كاجين التي جعلت منه ذكرًا كاملا !!

أخرج محموله وضغط على زرّ الـ power فاستضاءت الشاشة فشرع يلمسها ، دخل أيقونة الأسماء فانتقى منها اسم زكي فاضل ابتغاء مهاتفته ، ثم انتظر حتى أجابه صوت :

- السلام عليكم . مين ؟

- إزيك يا زكي .. عامل إيه ؟

- الكبير .. هوَّ صوت الكبير .. سلامات يا شيخنا . ودين محمد واحشني !!

- عامل إيه يا زكي . طمني عليك يَلَه ؟ إيه الأخبار عندك ؟!

- عال العال يا ريّس . كله تمام .

- إيه حكاية الدّوْشة اللي حصلت عندكم في شبرا يا زكي وليه ما بلّغتنيش ؟!

- الحمد لله يا ريّس ، انت عارف الواد جمال ابني كان عامل مشاكل مع ولاد المتولي بس ربنا ستر ولمّينا الدور ، ولو كنت عارف رقمك كنت رنيت عليك وعرّفتك التفاصيل يا فخم .

- عموما خلّي بالك من كل حاجة ، ماتسيبش أي حاجة للظروف !!

- طبعا يا كبير . اطّمن . أسجّل الرقم ده يا كبير ؟

- آه . سجّله يا زكي . طول مانا في تركيا ده هايكون رقمي .

- معاليك تؤمر . بس افتكرني بحاجة من ريحة تركيا يا شيخنا .

- حاضر يا زكي . حاضر . عرّفني بالأخبار أول بأول .

- أوامر معاليك يا كبير .

- مع السلامة .

ثم تابع سيره في منطقة السوق التجاري حتى ابتلعته أمواج البشر الهادرة .

-١٧-

حين عاد رائد إلى شقته بعد أن احتسى فنجانَ قهوة تمّ تحميصُ حبّاتها ببطء لأكثر من ثلث الساعة في كوستا كوفي شارع الفلكي بوسط البلد فيما تناولت سلمى كوبًا من الشيكولاتة الساخنة ، وبعد أن استمعا إلى الموسيقى الهادئة وتجاذبا أطراف أحاديث شتّى بعد ساعات عمل طويلة في إعداد تحقيق مشترك عن الإسلام السياسي والانتخابات . حين عاد لم يكن قد غيّر ملابسه بعد ؛ إذ ظلَّ يُقلِّب في قنوات التليفزيون إلى أن وجد إحدى القنوات تعرض فيلم (سلّفني ٣ جنيه) لعلي الكسّار فاستقرَّ عليه يتابع ويضحك ويشعل سيجارة تلو أخرى ريثما يهدأ فيتوجّه إلى الحمام مستمتعًا بحمام دافيء قبل أن يرمي بنفسه بين الكتب والورق و لوحة مفاتيح اللاب توب ، إلى أن رنَّ جرس الباب فنظر عاجبًا إلى ساعته التي كانت تشير إلى العاشرة والربع فنهض ليفتح البابَ فإذا بآخرِ وجهٍ كان يتوقّع أن يكونَ أمامه. كان وجه دودي سليم عروسه السابقة ، التي لما يدخل بها .

كانت ترتدي بنطلون جينز وبلوزة بيضاء وجاكت جلد قصير وكانت – كعادتها – بمكياج كاملٍ صارخ لم تحرص دودي طوال عمرها البالغ نحو ٣٤ سنة كحرصها على الذهاب على الكوافير كل يوم أحد ، كانت تتنازل عن مواعيدَ ذاتِ بالٍ ، مواعيد مصيرية لحرصها على أن تكون على « سِنجة عشرة » ، لم تكلف في حياتها بشيء قدْر كلفها بجمالها ومالها و .. مصلحتها الشخصية .

عقد رائد مقارنة سريعة بين دودي وسلمى ، سلمى التي لم يفارقها سوى من ساعة أو أقل ، سلمى التي تجذب بهدوء ملامحها الآخرين، تأسر نفسه

بوجهها البسيط ذي التكوينات المُنمنمة الخالية من المساحيق ، سلمى التي عقد العزم على الارتباط بها بعد سنوات من الضياع مع دودي ، سلمى التي خجلت وتورّد خدّاها حين قال لها في كوستا كوفي :

- حدّديلي ميعاد مع بَبَاكِ علشان أتقدّم رسمي !!

مدّت دودي يدها ناحيته وهي تقول :

- إزيّك يا رائد . واحشني .

رَنَت لحظة صمت قبل أن يقول :

- أهلا يا دودي ، خير ؟!

- من ع الباب كده ، مش عاوزني أدخل ولا إيه ؟!

- لا أبدًا ، اتفضّلي .

تدلف متأملة الشقة التي كانت قد أعدّت كل شيء بها وتخيَّرت ألوان حوائطها وستائرها ومواضع أثاثها ، تقول بعد أن تُدقّق النظر في كل شيء :

- هايل يا رائد ، هايل بجد إنك سايب كل حاجة زيّ ما هيّ !!

بنبرة ثقة :

- بيتهيّألك يا داليا ، مفيش حاجة بتفضل على حالها أبدًا !!

تتفرّس ملامحه بزهو مصطنع فتقول :

- إيه مش هانقعد ولا إيه . هوَّ أنا Guest heavy للدرجادي ؟!

- لا أبدًا . مين اللي قال كده . اتفضّلي دا البيت كان هايبقى بيتك !!

قالها وهو يشير إليها بالجلوس . بعد أن استوت على كرسي الأنتريه قالت وهي تنظر إلى التلفزيون :

- ياه يا رائد ، لسّه بتحب تسمع كوميديا قديمة ؟!

زفر قائلا :

- الحمد لله . عموما الكوميديا القديمة أرقى بكتير من الجديدة .

- مش في كل الأوقات يا رائد !!

كان الملل قد بدأ يزحف إليه فتناول علبة السجائر وأخرج سيجارة فأشعلها فتابعته دودي بعينيها وهي تحملق فيه بعينين يكسوهما الغرور والعُجب وطفقت تخرج سيجارة من علبته ثم وضعتها بين شفتيها ودنت منه تقتبس نارًا لسيجارتها :

- ممكن تولّعلي يا رائد ؟!

عاجبًا وهو يناولها سيجارته تقتبس منها نارًا :

- غريبة هوّ انت بتدخني ؟!

- يعني ، تغيير !!

قالتها وهي تنفث دخان السيجارة في وجهه الذي بدا لرائد أنه ثقيل على رئتيها إذ نفثته كله ، فقال :

- سيجارة تقيلة ، مش كده ؟!

قالت وهي تداري لسعة السيجارة :

- أبدًا عادي .. بس مش متعوّدة ع الـ MARLBORO الأحمر .. باشرب DUNHILL دايما عشان بتبقىlight !!

قال وهو يمطّ شفتيه :

- ما شاء اللّٰه . انتِ اتغيّرتِ كتير يا دودي !!

- التغيُّر سنة الحياة يا رائد ، في كائنات انقرضت لأنها ماعرفتش تتكيف مع البيئة اللي حواليها ، لازم نتكيف مع أي ظرف طاريء أو حدَث جديد وإلا هاننتهي من الوجود صدّقني يا رائد التكيف مع الحياة الجديدة مهم لأي إنسان !!

قرعَت كلماتُها الـ temporalالفصّ الجانبي الأسفل لمخه ، فتذكّر كلمات أنيس العليمي التي برقت أمام عينيه :

- « كلُّ وقتٍ وله آذان ، والتكيّف مع البيئة يقي من عوامل الانقراض » !!

ازداد تململه وأنشأ يسحب أنفاسًا متتاليات من سيجارته قبل أن يدفن عُقبها مع أخواته في الطّفّاية ثم نهض وهو يقول :

- آسف . نسيت ، تشربي إيه ؟!

- أي حاجة سُخنة بس please .. ثم واصلت : without suger !!

قصد إلى المطبخ فملأ الـ kettle ماءً ثم وضع الفيشة في المقبس وشرع في تلقيم كوبين أحدهما بالشاي والسكر والآخر بالشاي فقط، وفي ذهنه يتذكر كل لحظة قضاها مع دودي خاصة اللحظات الأخيرة التي لم يكره في حياته شيئا قدر كراهيته لها .

جاهد رائد كي ينساها باعتبارها جزءً من الماضي الكريه إلا أنّ دودي كانت فوق رأسه في المطبخ وهي تقول :

- مش معقول أفضل قاعدة وماساعداكش في حاجة !!

- لا أبدا . دي حاجة سهلة ، وبعدين انت ضيفة ولازم تاخدي واجبك.

- انتَ ليه بتعمل فرق بيننا يا رائد ؟!

- أنا ماعملتش أي فرق ، انت اللي سبّاقة دايما بكده يا .. داليا .

ثم يوليها ظهرَه ويصبّ الماءَ الذي أعاد غليانه في الـ kettle غير مرَّة. يحمل الصينية وهو يقول :

- تعالي يا دودي . تعالي .. نشرب برّه .

تتقدمه إلى الصالة ثم تقف لحظة إزاء غرفة المكتب ، وكان بابها مشرعًا ، فتقول عاجبة :

- اللّٰه ، ودّيت فين الصالون يا رائد ؟!

لا يلتفت إليها ولا يبدي اهتماما فيضع الصينية على المنضدة ثم يجلس ويقول ساخرًا متهكّمًا :

- غريبة يا دودي واللّٰه ، بتسألي كأن الصالون بتاعك ؟!

تتقدّم نحوه ثم تجلس ملتصقة به فيحسّ بأنفاسها الدافئة على وجهه وتقول :

- ومين قالك إنه مش بتاعي ؟

« وقِحة هي دودي .. تنسى نفسها دائما .. يالها من سَماجة تتبدّى في صورةِ أنثى »!! قال ذلك في نفسه ثم صمت لهنيهة إلى أنْ قال بغير اكتراث :

- الصالون جوّه متكوّم في الأوضة الصغيرة ، كان لازم يكون عندي مكتب فاخترت أوضة الصالون مالوش لزوم عندي !!

ترفع كوب الشاي إلى فمها ترتشف منه رشفة ثم تقول :

- انتَ شكلك شايل مني جامد يا رائد ، بالرغم من إن كل شيء قسمة ونصيب زيّ ما قُلْتِلَك قبل كده !!

يضحك بملء فِيِه :

- قصدك كل شيء فلوس و.. شركس !!

بعصبية بادية :

- صدّقني انت لو مكاني كنت عملت كده وأكتر . اِوْعى تنسى إنك اترميت في حُضن أنيس العليمي عشان الفلوس ، ماتعملش من نفسك قدّيس على حسابي يا رائد بيه !!

- ما تنسيش يا هانم إني عملت كده عشان كنت .. !!

- انطقها . انطقها يا رائد ، علشان كنت بتحبني .

- كنت !!

- وما زلت ، أنا حاسّة بيك ... sure !!

- عمرك ما حسّيتي بيَّا يا داليا . طول عمرك بتاعة مصلحتك وبس .

- كل إنسان لازم يحب مصلحته أولا يا رائد !!

- بس مش على حساب الآخرين يا داليا .

- وهمّ الآخرين دول لو جاتلُهُم نفس الفرصة كانوا عملوا زي مانا عملت عشر مرَّات !!

- بيتهيّألك ، صوابعك مش زيّ بعضها يا دودي .

تدنو منه بشدّة حتى يتلاصقا أكثر فتمسك بيديه وهي تقول :

- تصدّقني لو قلتلك : إني باحبك يا رائد ؟!

يسحب يده من بين يديها الحريريتين وهو يقول وقد اعتراه الدّهش :

- طبعا لأ . مستحيل . انت مابتحبيش غير نفسك وذاتك وجمالك اللي انت منبهرة بيه لأبعد حدّ . فاكرة بعد ما سبتيني ، فاكرة لما حذفتيني من قايمة أصدقائك من على الـ face book دي أقل حاجة انت عملتيها يا هانم ؟!

- احنا ولاد النهاردة يا رائد ، ماتفكرش في اللي فات !!

ينهض واقفًا فيقول وهو بين السخط والسخرية :

- زيارتك دي مش مريّحاني يا داليا . ممكن أعرف سبب الزيارة الكريمة ؟!

تغوص في مقعدها وترجع بظهرها إلى الوراء ثم تُخرج سيجارة أخرى من عُلبتها فتشعلها وهي تقول ببرود قتّال :

- مصلحتك . وخُوفي عليك !!

قهقه رائد قائلا :

- يا سلام .. دودي سليم بتخاف على مصلحتك يا رائد يابن حسين!!

قطبت غاضبة :

- تصدّق إنك بني آدم Provocative.. والله جاية لمصلحتك !!

- لا استفزازي ولا حاجة .. ادخلي في الموضوع على طول أرجوك .. Please) قالها متهكمًا محاولا تقليدها) .

تقول وهي تنفث دخان سيجارتها في وجهه :

- انت بصراحة مأفْوَرْها خالص اليومين دول !!

يقول في ضيق وهو يهز رأسه عجبا :

- مأفورها !! إزاي يعني ؟!

- أنا شايفة إن مقالاتك اليومين دول very shocking ومباشرة أكتر من اللازم over بجد يا رائد !!

- يا شيخة ، قولي كلام غير ده ، صادمة ومباشرة ؟!

قالها وهو يقهقه ، فهتفت في نفاد صبر وقد نهضت من مكانها :

- تعرف إني بنت ستين في سبعين إني با تكلم معاك !!

- مش معقول يا دودي ، لازم تكمّلي المهمّة اللي انت جاية فيها الأول !!

بارتباك :

- قصدك إيه بقى يا أستاذ ؟!

- قصدي إن أنيس العليمي ..... !!

قاطعته ولمَّا تزل مرتبكة :

- ماله أنيس العليمي ومال اللي باكلمك فيه ؟!

يدنو منها ثم يحيط وجهها براحتيه اللتين استشعرت دودي دفئهما فيقول وهو يتفحّص عينيها اللتين تزينهما العدسات اللاصقة :

- يعني انت يا دودي يا قمر ما قابلتيش أنيس وكلّمك تميّلي دماغي وأكيد وعدك بحاجة في الطريق ؟!

حرّكت خديها بين راحتيه يمينا ويسارا تحريكا خفيفا ثم قالت وقد بُهِتت من ألمعيته :

- طول عمرك ذكي يابن الإيه ، يخرب بيتك يا رائد ؟!!

حرّر خدّيها من راحتيه ثم قعد وصمت لحظات قبل أن يقول وهو يشعل سيجارة :

- أنيس وعدك بكام ولا بإيه يا دودي ؟!

تجلس بجانبه وتقول مطرقة :

- بفيلم .. بطولة فيلم من إنتاج شركة الشرق بتاعته !!

صمت مليّا ثم قال همسًا :

- قصدك بتاعته هوَّ والقطريين !!

- وليكُن .. قلت إيه يا رائد ؟!

بنظرة باردة :

- في إيه حضرتك ؟! قالها وهو ينفث دخان سيجارته بعصبية . فأردفت تقول بهدوء مغيظ :

- في العرض اللي قلتلك عليه !!

دون اكتراث :

- أي عرض .. انت ماتكلمتيش غير عن العرض بتاعه لك ، انت هايعملّك فيلم وأنا هايعملّي إيه ؟!

تلتفت إليه وقد التمعت عيناها ببريق الذهب :

- أنا سبت هشام شركس ، قصدي هادفعله فلوسه وأنهي عقد الاحتكار بتاعه وهابقى حرّة ، وحاليا عندي فيلا في التجمع الخامس ، ولوحدي يا رائد ، محتاجاك . صدّقني !!

وتشرع تمسك يديه وتدنو من وجهه فتلثم خدّه بقبلة أغمضت معها عينها فيتملّص رائد منها ويقف وقد اعتراه ضيق شديد وأردف يقول :

- هوَّ ده العرض ؟! وياترى الفلوس اللي دفعتيها لشركس جبتيها منين ؟!

- بصراحة أنيس العليمي هوّ اللي دفعها !!

يصيح وهو يصفق بكلتا يديه :

- هايل .. هايل جدًا ، طول عمرك شاطرة يا داليا !!

بودٍّ مصطنع :

- بُصّ يا حبيبي ، إيه رأيك تكتب عمود يومي في (الشرق) وتاخُد شهريا خمستاشر ألف جنيه ، دا غير إن أي كتاب تطبعه في مطابعهم هاتتحاسب عليه بشيء وشويّات ، يعني هاتبقى نجم كبير ، وانت سيد العارفين إنهم سهل جدا يصنعوا نجم في الكتابة من مفيش !!

يتبسم ابتسامة صفراءَ ثم يمطّ شفتيه قائلا :

- بصراحة عرض زي الفُلّ .. عرض اللي يرفضه يبقى حمااااار رسمي!!

- يعني موافق ؟!

بهدوء :

- بس أنا رائد مش حمار !!

بضيق وضجر :

- فكّر قبل ما تقرر . فكّر واعمل اللي في مصلحتك أولا يا رائد !!

بهدوءٍ وثباتِ نفس :

- في مواضيع ما ينفعش فيها تفكير يا داليا . مواضيع تتعارض مع الثوابت الأخلاقية اللي في ضمائرنا ولو فكرنا فيها يبقى كأننا بالظبط بنقول لضميرنا : طُظّ فيك !!

فقالت في سخطٍ :

- طُول عمرك بتفلسِف الأشياء ، ما بتسخرْشِ منها وبس . لا ، وبتفلسفها كمان !!

قال بلهجة جديّة منفعِلَة :

- ممكن تسيبيني لوحدي يا داليا هانم . please ؟!!

قالت بوجه متقلّص بعد إذ أخرجت محمولها ولامست شاشته بأصابع مرتبكة مرتعشة فإذا به يسمع للحظة رنين محموله :

- عموما calm down ده رقمي ، سيّفه عندك وفكّر ورُدّ عليا .. فكّر كويّس يا رائد !!

وقصدت إلى باب الشقة مؤذنة بالمغادرة وهي تقول بصوت رقيق: - تصبح على خير .

فقال رائد على مضض وضيق :

- وأنتِ من أهله .

ومضت بعد أن « رزعت « باب الشقة وراءها فيما تهالك رائد على الكرسي ودسّ يده في جيبه فأخرج محموله وفتحه فوجد رقمها على الشاشة فراح يغمغم و هو ينظر إليه ضاحكًا هازئًا :

- اللّه يخرب بيتك يا دودي يا بنت سليم . ثم بإشفاق : ربنا يسترها معاك !!

وإذا بأنامله على شاشة المحمول تضغط ضغطة مستمرة فتظهر قائمة ينتقي من آخر سطر فيها : (إزالة من سجلّ المكالمات) فيلمسه وهو يقول :

- بالسلامة يا دودي . بالسلامة !!

***

كانت ليلةً عصيبةً بالفعل على سامح حسَّان . تتالت عليه لسعات الصقيع بالخارج فآبَ إلى موفينبيك ...

دلف جناحه بالفندق وهو يُمنِّي نفسه بكاجين على سريره عاريةً بانتظاره تدفيء ليلته . إلا أنّ جناحه كان خلوًا منها . « كلا ، ليست حلما. لقد أعدّها الشيخ جاسم لتكون مكافأة لي . مكافأة على إخلاصي وإدارتي للأمور في مصرَ بكفاءةٍ نادرةٍ ». قال ذلك في نفسه وهو ينوي الاتصال بجاسم ليستفسر عن كاجين كاجين التي أنسته لارا . كاجين التي انتصب عُضْوُه لِلَهيبها وعنفوان إثارتها وأناملها المتمرِّسة .

وقبل أن يدسّ يده في جيب البالطو مخرجًا تلفونه المحمول و «يقع في عرض شيخه جاسم » أنْ يبعث إليه بكاجين إذا بصوت مفتاح يلِج باب الجناح وإذا بكاجين تدلف إليه ضاحكةً وقد ملأها الشوق وغرّدت فوقها أطيار الإثارة والنشوة التي أخذت بتلابيب سامح من كل اتجاه. لما أن رآها نهض نشيطا فعاجلته بالقول وهي تلقي بحقيبتها على المنضدة :

- « هذا أوان التدليك يا سامح .. هذا أوان التدليك يا ... زوجي » !!

-١٨-

في مكتبٍ أنيقٍ يطلّ بنافذته الألوميتال الصغيرة على شارع الاستقلال في إستانبول قال ليفي موردخاي كاسترو وهو يحتضن سامح حسَّان بدفءٍ وعلى وجهه النحيف ترتسم ابتسامة رائقة :

- عيني عليك باردة يا شيخ سامح ، لقد تحسّنت حالتُك كثيرًا على جوّ تركيا !!

فقال سامح وهو يبادله ابتسامة ودودة لطيفة :

- هذا من ذوقك يا أخ ليفي ، بل إنّ عيني هي الباردة عليك فكل مرة نلتقي فيها تبدو أصغر من سنّك . ثم يُصوِّب نظره إلى الشيخ جاسم المرّي ، الذي كان قد اتّخذ مكانه على كرسيّ ، فيقول مستطردًا :

- وسبحان اللّٰه يا شيخ جاسم فإنه من يرَ الأخ ليفي فلن يقول عنه سوى إنه مصري صميم ؛ شكله ، لهجته ، خفّة ظلِّه !!

فيردّ جاسم ببساطة وهدوء :

- وهل أتيت بشيء جديد يا سامح ؟! إنه بالفعل مصري !!

تطلّع سامح إلى ليفي لحظة في صمت قبل أن يتأبّطه ويسعى به نحو جاسم ليتخذا مكانهما بجانبه ... استقرّ ثلاثتهم في صالون فرنسي من طراز لويس السادس عشر ، كان الصالون هو أهم مايميّز ذلك المكتب ، الذي لا تتجاوز

مساحته المئة متر مربع ، المكتوب باللغة التركية على لوحة متوسطة الحجم من النحاس بجانب بابه : Maardu Emlakçılar .

لم يكن سامح مُجامِلا لحظة أن قال لجاسم : إن ليفي مصري ؛ إذ كانت ملامح ليفي موردخاي بالفعل مصرية ، حتى لسانه ينطق باللهجة المصرية ، كما أنه يجيد أكثر من لهجة تتنوع في برّ مصر ؛ من قاهرية وسكندرية وشرقية ودمياطية وبمبوطية ، بل ونُوبِيَّة . كان ليفي هو آخر سلالة تتحدّر من جدّه الإسباني / المصري موردخاي كاسترو (صرافباشي) ديوان القلعة أيام استقرار العثمانيين في مصر . أربعيني نحيف ، بوجه مثلَّث ، يشتعل رأسه شيبا فيما بشرته قمحية اللون ، تطل من عينيه العسليتين نظرات صلبة تعكس عنادًا وقوة وذكاءً .

***

عرِفه سامح عن طريق شيخه جاسم في قطر ، إذ قابله بها ستّ مرات فيما بين العامين ٢٠٠٨ و ٢٠٠١١ وهي نفس المرَّات التي كان يُدعى فيها سامح كمحاضرٍ للشريعة والقانون بجامعتها ، في المرة الأولى استراب سامح منه وأشاح بوجهه بعيدًا عنه بعدما عرف اسمه من شيخه ؛ إذ عرف هويته الإسرائيلية ، إلا أنَّ الشيخ جاسم المرّي ظلّ ليلة كاملة ، وقتها ، يتحايل عليه ويقنعه بالاستماع إليه ثم بعدها يقرّر ما يقرّر ، وما هي إلا ساعة وكان سامح حسَّان في جيب ليفي موردخاي الصغير .

وقتها لم يكن سامح قد قرأ حرفًا واحدًا في التوراة ، كان يسمع عن الإسرائيليات في دروس جماعة أنصار السنة التي كان يختلف إليها أيام

شبابه بمسجد العزيز بالله بحدائق الزيتون ، وكان شيوخه – آنذاك– لا يقصّرون في توضيح الإسرائيليات وخطرها على الدين ، والتحذير من اختلاطها بأصول الإسلام ، عرِف وقتها أنّ لها اسمًا آخرَ هو (الدَّخيل) إلا أنه لم يجرؤ أو يتجاسر على البحث عن المصادرِ الأصليةِ لتلك الإسرائيليات ؛ إذ أفتى شيوخُه وقتها بحُرْمة قراءة التوراة أو الإنجيل خوفًا على العقيدة .
ولج به الشيخ جاسم بعد ذلك عوالم رحْبة من القصص الإسرائيلي ، فأهداه في أول زيارة له إلى قطر نسخةً من التوراة ونصحه بقراءتها ، بعدها كان الشيخ جاسم قد صنّف كتابًا لم تكن له نسخٌ في أسواق الكتب ، كتابًا لم يكن له من نسَخ سوى واحدة مع مؤلِّفه الشيخ جاسم والأخرى مع سامح حسَّان.
كان الكتابُ تلخيصًا لروايات التوراة وآياتها التي تتحدّث عن بَدْ الخلْق ومقارنتها ببعض آيات القرآن التي تتفق ظاهريًّا معها ، كما كان الكتاب يقدح في العلوم التجريبية التي أسماها جاسم (علوم الكفَّار).

وفي ربيع العام ٢٠٠٩ م كان لقاؤه الثاني بليفي موردخاي الذي كان يجالسه لساعات متتاليات يحدّثه فيها عن تاريخ اليهود في مصر منذ دخول إخوة يوسف إليها ، ثم تاريخهم في منطقة الشرق الأوسط ، وكان له كبير فضل في تعليم سامح الكمبيوتر الذي لم يكن يعرف عنه سوى مفتاح الـ power فتعلّم سامح منه كل أساسيات تشغيله ، وإعدادات برامجه كما أنه أهداه laptop وعلّمه كيفية تشغيل برنامج الاتصال وفكّ الشفرات السرِّي الذي كان قد زوّد الجهاز به ، فكان يتم الاتصال بينهما من خلاله كما كان يتم التواصل بينهما عبر حسابٍ على الفيس بوك يحمل اسم (الشيخ أبو صُهيب الخطّابي) .. ثم تتالت لقاءاتهما ومعهما الشيخ جاسم الذي أقنع سامح قبيل مغادرته قطر بساعات بالاستعداد لتصوير برنامج له على قناة جديدة باسم (تواصَل) يتم

بثها التجريبي على الأقمار الاصطناعية : المصري نايل سات ، و العربي عرب سات ، و الأوربي هوت بيرد . واختار ليفي بنفسه اسم البرنامج (ظلال الإسلام) وتمّ استئجار إستديوهات للقناة بمدينة الإنتاج الإعلامي . لم تكن تلك القناةُ في حقيقتها سوى بتمويل قطري – إسرائيلي فيما كان تمويلها الظاهر مشاركةً ماليةً بين سامح حسَّان و شيخٍ مصريٍّ مقيمٍ في الخليج منذ ستينيات القرن الفائت يُدعى ماهر القاضي .

كان وقْعُ ذلك كله غريبًا على أسماع سامح حسَّان إلا أن الشيخ جاسم المري كان يطوّق عقله وتفكيره من كل اتّجاه . حقّق البرنامج بعد ذلك نجاحًا كبيرًا وكانت نسبة مشاهدته عالية في أرجاء العالم العربي ، ومصر على التخصيص ، كما أثار ردود فعل متباينة بين المشاهدين بمن فيهم جمهور التيارات السلفية الذين اتفقوا معه على أنّ العلوم التجريبية ، التي ظل « يقطع في فروتها » ثلاث سنين متتاليات ، ماهي إلا محضُ كفر وهرطقة ، وكان سامح حسّان يستبشر دائما ، عندما يتقابل مع بعض مشايخ السلفية ، بالحديث النبوي الذي كان يُذكِّره به ليفي دائما : « حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»!!

لم يتوقّف البرنامج من لحظتها سوى بضعة أسابيع إبان ثورة ٢٥ يناير ثم تمّ الإعلان عن استئنافه بحلْقات تتناول تفسير القرآن الكريم تفسيرا موضوعيا وبمنهج جديد يغاير مناهج من سبق من المفسرين، وكان سامح حسان يخصص بين أوان وآخر في الحلقة التي تستمر لساعتين وقتا لتلقي المكالمات التلفونية والردّ عليها ، وكذا الردّ على بعض رسائل الـ SMS التي تدرّ دخلا كبيرا على القناة .

قال ليفي موردخاي وهو يرجع بظهره إلى الوراء ويضع ساقًا فوق ساق :

- بالفعل أنا مصري يا سامح ، فجدي موردخاي كاسترو كان صرافباشي القلعة في العصر العثماني كما أن عددًا كبيرًا من عائلتي كان في مناصب مرموقة بعد دخول العثمانيين مصر ، وأصارحك القول فإنَّ اليهود قد نعموا ونالوا حظوة رفيعة في عصر آل عثمان بخلاف المماليك الملاعين الذين قد ضيَّقوا عليهم وساموهم سوء العذاب ، وقد بلغ وثوق العثمانيين بهم أنْ أمروا بترحيل النابغين منهم وأصحاب المهن الدقيقة إلى إستانبول فعاش أجدادي هنا وتحكَّموا في إدارة دار السكّ والعملة، وإدارة المنافذ والجمارك ، وغيرها لكنهم لم ينسوا مصر وحارة زويلة لحظة واحدة !!

قال سامح متصاغرًا :

- بالفعل فأنتم أيها اليهود تشتهرون بتجارة العملة والصرافة منذ زمن بعيد !!

قال جاسم متكاسلا وقد غاص في مقعده :

- شايف التاريخ يا سامح ، هذا هو التاريخ الحقيقي لليهود ، فهم عنصر هام ومتميِّز في المنطقة والعالم ، النظرة العنصرية هي السائدة وهي التي تجعلنا نراهم بعيون ملؤها الحقد والبغض ، نريد الآن أن ننشر تلك الحقائق ليعلم الناس أن تاريخ اليهود جد عظيم !!

صمت سامح للحظة قبل أن يقول وهو يهرش رأسه :

- تمام .. تمام يا شيخ جاسم ، ولكن هل من جديد ؟!

ابتسم ليفي وقال :

- بالتأكيد يا أستاذ سامح هناك جديد دائما ، فحياتنا بدون تجديد لا رُوح فيها ولا بهجة ، وسعادتي لا تُوصف بتقدّمك في العمل ومشاركتك في الأحداث !!

بتواضع زائف :

- تلميذك يا أخ ليفي !!

ربت ليفي على كتف سامح وقال متبسّمًا :

- العفو ، العفو .. فنحن أولاد عمومة يا سامح ، وصدقني فإنَّ أمرَ مصرَ يهمنا ، ولا تنسَ أنَّ الدولة العبرية الكبيرة التي نعمل جاهدين منذ زمن على إنشائها تحتاج إلى أن تكون مصرُ هي الأخرى دولة دينية إلى جوارها ، ساعتها ، وساعتها فقط سنقف معًا في وجه روسيا وإيران !!

ينهض جاسم متثاقلا وهو يقول بعد أن يقرع بطنه بيده :

- وهل سنظلّ نتحدّث هكذا دون أنْ نشربَ شيئا ؟!

ثم قصد إلى المطبخ يلتمس شرابًا فيما ضحك بصوت عال ليفي الذي نهض بدوره فسعى ، وفي إثره سامح ، إلى النافذة المطلّة على شارع الاستقلال فأزاح ستائرها ثم أخذ يرنو ببصره متأملا الترام الأحمر الذي يسير ببطء في نهر الشارع .. ران الصمتُ بينهما قبل أن يقول ليفي :

- ما رأيك في إستانبول يا سامح ؟!

- رائعة .. جميلة هي بالفعل سيد ليفي !!

- وما رأيك بكاجين ؟!

بصوت متقطّع :

- رائعة .. رائعة هي الأخرى ؟!

كان ريقه قد جفّ فابتلعه بصعوبة واستأنف محاولا تغيير الكلام باتجاه آخر :

- هل تعرف يا ليفي أني لا أخشى إلا من المخابرات المصرية ؟!

تناهى إلى سمعهما وقْع أقدامِ جاسم قادمًا نحوهما وهو يحمل في يديه صينية فوقها ثلاث زجاجات بيرة من ماركة almaza اللبنانية التي يعشقها ولا تكاد تخلو حقيبته منها في حلّه وترحاله .

كان جاسم خبيرًا في البيرة وأنواعها وأفضل طرق تصنيعها ؛ فقد فاجأ سامح منذ لقائه الأول بشرب البيرة وعدّد فوائدها وأنواعها له .. كما أنه أقنعه – وقتذاك – بأن لفظة الخمر التي حرَّمها الله ورسوله إنما تنصرف إلى ثمرتي العنب والبلح ، أما غيرهما فيسمى مُسْكِرًا ولا يحرم إلا إذا خامر العقل وغيّبه فيحرم لذاك ويصدق عليه اسم الخمر (..) وقد هَالَ سامح أن يكون شيخُه وأستاذُه على علاقةٍ (شرعية!!) بكل أنواع البيرة فهو يعرفها نوعًا نوعًا ؛ يعرف البيرة المصرية (سقارة) و(ستيلا) التي تصنع في مصر منذ القرن التاسع عشر ، ويعرف بيرة (كازابلانكا) المغربية ، وبيرة (طيبة) التي تصنع في بلدة طيبة بالضفة الغربية التي زارها الشيخ ليحتسي البيرة بها مع صاحب المصنع الذي يعرفه ، وبيرة (بترا) الألمانية المصنوعة في الأردن ،

وكل هذه الأنواع كُوم وبيرة almaza كومٌ آخر ؛ إذ تظلّ معشوقته التي يؤوب إليها آخرَ اليوم مهما خادن وذاق صنفًا غيرها !!

- أنتم هكذا أيها المصريون تبالغون دائما وتجعلون من الحبّة قُبّة !!

قالها جاسم وهو يضع الصينية فوق المنضدة ثم تناول زجاجتين دفع بهما نحو سامح وليفي فيما تناول الثالثة ووقف بجانبهما ثم استأنف كلامه :

- المخابرات في بلدكم ليست كما تصورونها في أفلامكم ومسلسلاتكم؛ فضباط مخابراتكم ليسوا كعادل إمام أو محمود عبد العزيز أو عزت العلايلي ، دائما يا مصاروة تبالغون و تتقمّصون أدوارًا ليست مناسبةً لكم ، ثم ... ثم إن الذي استطاع محاصرة محكمة ومنع قضاتها من دخولها يستطيع محاصرة المخابرات !!

قال سامح في وجوم وهو يرتشف من زجاجة البيرة :

- بالفعل .. معك كل الحق يا شيخ جاسم ، فالمبالغة ليست سوى غُلٍّ يقيّدنا أو سجنٍ يحصرنا !!

فقال ليفي وهو يتابعه ببصره :

- أنت لست جاسوسًا بالمعنى التقليدي يا سامح ، بل أنت سياسي صاحب رؤية ومشروع تروم تحقيقه ، مشروع في صالحكم وصالحنا ، ونعمل معًا على تحقيقه ليكون ماثلا للعالم كله !!

كان ليفي موردخاي يأسر سامح بكلامه كلما نطق ، بل إنَّ سامح كان يعمد إلى تقليده والتشبّه به .. كان يرى فيه صورة مفكر عبقري وسياسي أنيق ، رشيق العبارات ، عذب الصوت .. يتصاغر إزاءه ليكون بعدها سهل الانقياد والخضوع .

تنهّد سامح في ارتياح بعد كلام ليفي ثم تاهت عيناه في أركان المكان وأنشأ يتأمله فقرأ جاسم في عينيه معاني الحيرة والفضول فقال :

- ما رأيك في هذا المكان يا سامح ؟!

- مكان لطيف ولو أن مساحته صغيرة نسبيًّا !!

هزّ ليفي رأسه قائلا وهو يسعى باتجاه غرفة المكتب :

- صغير لكنه يؤدّي المهمة بنجاح !!

مضيا خلفه ثم تحلّق ثلاثتهم حول مكتب وشرعوا في العمل .

كان المكتب مسجّلًا في بلدية إستانبول باسم رجل أعمال تركي يُدْعى (محمد نجاتي أورهان) وكان نشاطه المعلَن (التوكيلات العقارية) إلا أنه في الأساس كان مُؤجَّرًا للقنصلية الإسرائيلية في إستانبول تُمارس من خلاله مع مكاتب أخرى متفرّقة أعمالها التابعة لجهازها الاستخباراتي.. مضى وقتٌ طويل وهم يتناقشون حول خُطة الإعداد للمرحلة القادمة التي تستلزم أن يكون سامح في خضمّ الأحداث ووقائعها ، وكان تركيز ليفي ينصبّ على سلسلة الحلْقات التي يصورها سامح ويتناول من خلالها تفسير آيات القرآن ومحاولة الربط بينه والتوراة في مقابل تسفيه العلم !!

بعد نحو ساعتين من العمل والتدريب والنقاش والاستفسار .. غادر جاسم أولا ؛ وبصحبته امرأة منتقبة كانت في صالون تجميل بالدور الرابع فخرجا من العمارة ثم دلفا الليموزين الذي كان بانتظارهما، وبعد خمس عشرة دقيقة غادر سامح بمفرده بعد أن تلقّى ليفي تليفونا من بعض رجاله بالخارج يبلغوه بالخروج الآمن ، فيما ظلّ ليفي لنحو عشر دقائق بالمكتب يرنو إلى سامح من النافذة ويتأمّل ذوبانه بين الناس في شارع الاستقلال وهو يقول في ذات نفسه :

- « حسنا .. لقد مرّ كل شيء كما أبتغي .. فالحمد لله » !!

-١٩-

إستانبول .. بعد يومين ..

مطعم The Galata House ..

كاراكوي بييولو - شارع جالاتا كوليسي ..

القمرُ في السماءِ يتدلّى شاحبًا ...

إلى منضدة فوقها كأسان مترعان يجلس جاسم المري وليفي موردخاي.. جالَ جاسم ببصره في المكان وأنشأ يتأمله بديكوراته العثمانية القديمة ثمّ قال بعد أن دقَّق النظر في وجهِ ليفي :

- إيش لون هذا المكان .. يبدو أنه أثري ؟!

قال ليفي مبتسمًا :

- فعلا .. هو مكان أثري .. ولسوف تُفاجأ وتعجب إذا عرفت تاريخه!!

قال جاسم وهو يحتسي شرابه :

- وماهو تاريخه ؟!

قال ليفي بصوت عذب :

- هذا المكان الأنيق كان سجنًا !!

عاجبا قال جاسم وهو يعقد حاجبيه الكثيفين :

- سجن .. إيش لون سجن ؟!

قال ليفي وهو يبتسم :

- هذا المكان عندما بُنى في العام ١٩٠٣ كان مُعدًّا ليكون سجنًا ثم أضحى بعد ذلك مطعمًا من أفضل مطاعم إستانبول وأشهرها .

- والله أنت يا ليفي موسوعة ، حقك تكون مدرس تاريخ يا رجل !!

يطلق ضحكة صاخبة ثم يعبّ من كأسه قائلا بصوت يشبه الهمس

- وهل تظنني غير ذلك ؟! ما أنا سوى أستاذ تاريخ في لباس ضابط.. أنتم أيها العرب تنسون التاريخ والجغرافيا معًا أما نحن فلا ننسى ولا نتناسى !!

- صدقت .. صدقت يا ليفي .. ولكن قل لي : ألا تلاحظ معي أنَّ سامح يتقدّم كل مرة في التدريب عن المرَّة التي سبقتها ؟!!

- بالفعل .. وهذا من حظّنا ، فلا تتخيل كم نفتقر إليه ونحتاجه كما هو بسماته الشخصية ونوازعه النفسية .. لقد تعبنا معه كثيرا وأنت تعلم ذلك جيدا !!

بفتور :

- إي والله لقد تعبنا معه ليكون على حالته تلك وكل نجاح له في مصر فبفضلنا حتما !!

قال ليفي موردخاي وهو يتنهد :

- ولكن القادم أصعب يا شيخ جاسم ، القادم أصعب !!

قال جاسم وهو يداعب أملا يروم تحقيقه :

- تفاءل يا ليفي ، أنا عن نفسي متفائل للقادم !! ثم تهبط فوقهما لحظة صمت يشرخها جاسم بقوله : آه قبل أنسى ؛ إيش لون الحرب اللانمطية التي كنت تتحدّث مع سامح عنها من قبل ؟!

قال ليفي وهو يبسط يديه على المنضدة ويتحدّث كحكيم أرخى نظارته عن أنفه وحملق فيمن يحدّثه :

- شوف يا شيخ جاسم ؛ هناك حرب جديدة غير تقليدية ليس السلاح فيها نمطيا تقليديا ..... !!

يقاطعه جاسم قائلا :

- يعني قصدك لا طائرات ولا دبابات ولا صواريخ ولا ذخيرة ؟!

أجاب ليفي وهو يهز رأسه :

- نعم .. هي حرب بلا سلاح .. حرب الـ GW٤ !!

- طال عمرك أخ ليفي ، أبغي توضيحا لما تقول !!

استأنف ليفي كلامه قائلا ولما يزل باسطا يديه على المنضدة :

- هذه الحرب يا جاسم لها آلية خاصة ، ميكانيزم معين .. فبدلا من توجّه قوات إلى دول بعينها لتحتلّ أرضها فتتعرّض لخسائر هنا أو هناك نعمد إلى تجنيد مواطنين من تلك الدول المستهدفة ليكونوا ضد بلدانهم ، بحيث يخلقون حالة من عدم الاستقرار عن طريق غسيل دماغ أتباعهم وشحنها بأفكار منحرفة ، ويعملون على تأجيج الصراعات الطائفية وتأجيجها لإضعاف البنية الداخلية وإحداث شرخ اجتماعي ، ويخلقون بؤرًا للصراع فيها فيصبح وطنهم كالجسد الذي تقطّعت أوصاله !!

قال جاسم مؤمِّنًا على كلامه :

- يعني هؤلاء يقومون بالسيطرة العقلية والفكرية على أتباعهم ؟!!

يهزّ رأسه ويجيب قائلا :

- بالضبط يا جاسم ، وهذا هو ما نقوم بعمله مع سامح حسَّان وغيره منذ زمن !!

قال جاسم وهو يضحك بجانب شفتيه :

- أنا يا خوي ما بعرف غير سامح ، شكلك بتشتغل من ورانا يا ليفي ؟!!

قال ليفي وهو يبادله ابتسامة ويرجع بظهره إلى الوراء :

- أوَ تظنّ أننا نضع البيض كله في سلة واحدة يا شيخ جاسم ؟! إننا نتعامل مع أفراد وجماعات وهيئات بل ومؤسسات !!

قال جاسم في أسف :

- واللّه عبقري .. أنتم عباقرة يا ليفي ، قُدَّامنا آلاف السنين الضوئية حتى نصل إلى معشار عبقريتكم أيها اليهود !!

انتفخ ليفي ثم بتواضع زائف قال :

- ليس الأمر مدينًا لعبقريتنا دائما ؛ فكلّ عميلٍ لنا إذا لم يكن لديه استعدادٌ لثلاثةِ أشياء يضحى عميلا فاشلا بامتياز !!

مذهولا :

- إيش لون يعني ؟!

بصوت له رنين :

- المال والشهرة والجنس .. هي ثلاثُ شهواتٍ في سامح ومن خلالها تَّمت السيطرة عليه !!

هزّ جاسم رأسه وقال :

- بالفعل .. فهي موجودة عنده وبنهمٍ شديدٍ .. !!

يحلّ صمت بينهما مرة أخرى فيشرخه ليفي بقوله :

- ها نحن أولاء قد تناولنا شرابنا يا شيخ جاسم أمَّا الآن فقد حان وقتُ الطعام !!

يقرع جاسم بطنه ثم يقول وقد نشط وهو يرفع كأسه الفارغ :

- واللّٰه هذا الشراب الذي طلبته لي زِين ، لقد فتح شهيّتي بصورة كبيرة ، ولو قد أتيتني بخروف مشويٍّ الآن لدفنته في بطني دفنًا .. تسلم يا ليفي .. تسلم يا خُوي !!

يضحك ليفي بملء فمه ثم يشير إلى النادل الذي يسعى نحوهما بأدب جمّ فيقف وفي يديه دفتر صغير وقلم فيقول ليفي وهو يوجّه كلامه إلى جاسم :

- دع اختيار عشائك لي يا جاسم ، فكما اخترت شرابك سأختار طعامك !!

فقال جاسم وهو هنيء النفس :

- بكل سرور .. بكل سرور ، فاختياراتك جدّ رائعة !!

عبث ليفي في أرنبة أنفه ثم قال للنادل بلغة تركية مُتقنة :

- طبقان من يخنة لحم الضأن مع صلصة الطرخون والخوخ ، وطبقان من الرفيولي باللحم مع صلصة الثوم والزبادي ، مع تشكيلة من الصلطات التي تعدّونها . ولا تنسَ طبق الحلو .. لا تنسَ طبق المهلبية اللّذيذ !!

***

في تلك اللحظة ..

كان سامح حسَّان يجول المنطقةَ التجاريةَ الحديثةَ بإستانبول يتفقّد المحلات وكانت كاجين تلمع كفكرةٍ جميلةٍ في ذهنه ، افتقدها في الصباح بعد إذ كانت في المساء بجانبه ، هكذا هي من لحظة أن رآها؛ تلمّ بجناحه

ليلا كعروسِ بحرٍ ثم تختفي كسندريلا في الصباح .. لا يعرف لها عنوانًا أو رقمَ تلفون .. كلما استيقظ من نومه لم يجدها في فراشه ، تأتيه ليلا فتلهب رجولته وتذيقه لذَّة النعيم .. قرَّر أنْ يُذيب اشتياقه إليها في مُهاتفة لارا . أخرج تلفونه المحمول وانتقى رقمها.. وشرع يهاتفها ، كانت تلك هي المرة الثانية التي هانفها فيها مُذْ وطأت قدماه تركيا :

- إزيك يا لارا . وحشتيني أخبارك إيه !!

- الحمد لله سامح .. شو أخبارك اِنت ؟!

- تمام .. الحمد لله ، أنا جاي بعد يومين يا ترى مشتقالي !!

- أكيد سامح .. اشتقتلَّك كتير !!

- طب هاتلبسلي قميص نوم لونه إيه في أول ليلة ؟!!

- سامح .. آسفة كتير .. الـ (بريود) لسّتها جايالي اليوم !!

- على حظي يعني .. مفيش مشكلة .. طب خلي بالك من نفسك !!

- حاضر .. تيجي بالسلامة !!

***

بعد نصف ساعة من تلك المهاتفة ..

كانت لارا مع رُوحِهَا . أملِها . سكنِها السعيد .. أبو أسعد الطيب !!

قالت لأبيها وفي عينيها دموع تنتوي الانثيال :

- أيرضى ربي بالظلم ؟!

قال أبو أسعد وقد عقد حاجبيه :

- ويْحك يا لارا ، أوَ تجزعين من إرادة الله ؟!

قالت وقد تدحرجت لؤلؤتان على خدّيها :

- لا أحسّ ببهجة في حياتي .. لا أكاد أحسّ بوجودي .. لا أكاد أحسّ فيها بعدلٍ أو قِسطاس !!

رَبَتَ على كتفيها وضمّها إليه ثمَّ قال :

- أي بُنيّة ، دخلت امرأةٌ على داودَ النبيِّ في مجلسه فقالت : يا نبي الله ، ربي ظالم أم عادل ؟! فقال داود جزعًا : ويْحكِ يا امرأة ، هو العدل الذي لا يجور . فماذا تقصدين ؟! فقالت المرأة وقد عبرتها سحابة كآبة : أنا أرملة عندي ثلاثة بنات أقوم عليهنّ ، فلما كانت البارحة شددت غزلي بخرقة حمراء وعزمت على بيعه بالسوق فأطعم بناتي وأكفيهنّ ، وإذا بطائر ينقضّ عليَّ فيأخذ الخرقة والغزل فلا أجد ما يطعمني وأطفالي ، و بينما هي تقصّ حكايتها إذا بالباب يطرق على داود فيدخل عليه عشَرة من التجار في يد كل واحد منهم ١٠٠ دينارٍ ، قالوا : يا نبي الله ، أعطها لمستحقها !! فقال داود عاجبا : ومَنْ مستحقها ؟! فقالوا : كنا في مركب في عرض البحر فانخرق وأشرفنا على الهلاك ولم يكن معنا ما يسدّ الخرق فإذا بغُرابٍ من فوقنا يُلقِي علينا خرقة حمراء فيها غزلٌ فسددنا به الخرق ونجوْنا ، ثم نذر كلٌّ واحد منّا أن يتصدّق

بمئة دينار ، فها هو ذا المال بين يديك فتصدّق به !! فالتفت داود النبي إلى المرأة ، ولما تزل واقفة بين يديه ، وقال باسمًا : ربي يجزيك في البرّ والبحر وتجعلينه ظالمًا ؟! فهتفت المرأة : ربي عادل .. ربي عادل !!

فاستقرّت لارا بين ذارعيه وصدره وقد هدأت نفسها قليلا فقال أبوها بصوت متهدّج :

- ربِّي عادل .. ربِّي عادل !!

-٢٠-

بعد يومين .. الساعة الواحدة ظهرًا ..

مطار القاهرة – صالة الوصول رقم ٣ ..

هواءٌ ساكن يُنْذِرُ بنهارٍ حارّ ..

لم يُخلِفْ زكي فاضل موعدَه مع الأستاذ الكبير فحشدَ أنصارَه وتابعيه من شبرا وضواحيها وانتظروا خروجَ سامح حسَّان من باب المطارِ رافعين صورَه وأعلامًا سوداءَ وأخرى خضراء ويافطات ترحيب بسلامة الوصول ما إن يروا الأستاذ الكبير يخرج بحلَّته الأنيقة حتى يعلو صوتهم بالهُتاف والثناء الذي يكلف به سامح وينتشي .. يدلف سيارته الجاجوار بعد إذ يحييهم فيما يتم شحن حقائبه الكثيرة في سيارة الحراسة الضخمة 4 ×4 ماركة ford الأمريكية ..

يستوي على المقعد الخلفي وإلى جانبه زكي الذي يقول :

- ألف حمد الله على سلامتك يا فخم .. نوّرت مصر .. نوّرت الدنيا كلها !!

بصوت عذبٍ رقيق :

- شكرا يا زكي .. الله يسلمك .. إيه أخبارك وأخبار رجالتنا ؟!

بنبرة ثقة :

- عال العال يا كبير .. زي ماانت شايف .. كله تمام !!

سأله في فتور :

- وجمال ابنك أخباره إيه .. مش عايزين مشاكل حوالينا يا زكي ؟!

نكس رأسه ثم أردف :

- واللّٰه يا ريّسنا عيون رجالتي عليه في الغردقة ، ومن المطعم للسكن ومن السكن للمطعم !!

يهز رأسه :

- ربنا يستر .. احنا داخلين مرحلة جديدة ومش عايزين حدّ يمسك علينا غلطة .. الغلطة بفورة زي ماانت عارف !!

تنهّد زكي ثم قال :

- عارف يا كبير واطّمن إن شاء اللّٰه كله هايبقى تمام .

حلّ بينهما صمت يسير قبل أن يحملق زكي في سامح وهو يقول :

- بس ما شاء اللّٰه يا فخم .. جنابك راجع من تركيا زي العسل ، منوّر ووِشّك زي البدر !!

قرأ سامح في ذات نفسه المعوّذتين قبل أن يقول ضاحكا :

- مش باقول إنك منافق طول عمرك يا زكي !!

فقال زكي من فوره بحماسة :

- وربنا باتكلم جد يا كبير ، يظهر إن الطب هناك متقدم قوي يا ريّس ؟!!

يطلق سامح ضحكةً صاخبةً ويقول :

- قوي .. قوي .. يا زكي ، الطبّ هناك مالوش حلّ ، مالوش حلّ يا زكي !!

يدنو منه ويقول في رجاء :

- بالأمانة الصعبة لتاخدني معاك المرّة الجاية يا كبير ؟!

يجفل فيقول :

- سيبك من الكلام ده دلوقت .. وقوللي : مفيش حدّ من الجماعة اتصل عليك ؟!

يهز رأسه نافيًا :

- ما حصلش .. ولا سمعت صوت حد فيهم من ساعة سفر جنابك !!

يغوص في مقعده وهو يقول عابسًا :

- كنت متوقع حاجة زيّ كده .. عالم بتتاجر في قلَّة الأصل ، ما بيتصلوش غير لما بيكونوا مزنوقين أو محتاجين حاجة !!

بثقة وزهْو :

- ملعون أبوهم يا ريّس ، ولا يلزمونا في حاجة .. حضرتك مش شايف الناس كانوا عاملين إزاي قُدّام المطار ؛ دول كانوا يملوا إستاد كورة وزيادة ، وربنا استقبال ما يحلمش بيه البرادعي ذات نفسه !!

يجزّ على أسنانه ويقول بتقزّز :

- برادعي إيه يا زكي .. افتكرلنا حاجة حلوة يا شيخ ؟!

قال زكي بصوت خافت :

- أنا أقصد يا كبير إننا مش محتاجين حاجة من حدّ لا منهم ولا من غيرهم وبعون الله احنا الأصل .. احنا اللي ممكن نقوّم البلد ونقعدها في لحظة !!

يزفر سامح وتبين على ملامحه أمارات ملل قتَّال فيردف قائلا :

- بُص يا زكي النهاردة وبُكرة عايز أرتاح ، هاقفل التلفون .. مش عايز أي إزعاج .. !!

- ماشي يا ريس .. طبعًا لازم ترتاح .

يقول سامح للسائق آمرًا وهو يرجع بظهره إلى الوراء مصطنعا كُحَّة:

- ما تشغَّل لنا قرآن يا ابني خلّي البركة تحلّ !!

ثم يميل برأسه إلى الخلف مسترجعًا أحداث آخر ليلة قضاها مع كاجين .

كانت ليلة ليست كأي ليلة !!

حين دلف جناحه ، وقد استيأس من رؤيتها إذا به يراها على سريره عارية وفوقها تغرّد أطيار الشبق والنشوة .. سعى نحوها وأنفاسه تتلاحق ، نَضَتْ ملابسَه ثم بدأت في تدليكه وبالغت في تطييبه بزيت النعناع .. ارتفقته كَسُور .. نهشته ونهشها .. أحسَّ بنساء العالمِ فوقه .. بين يديه .. تحت قدميه .. قامت ثم ولّته ظهرها ، فوق كَفَلِها وشمٌ لتنّينٍ ينفثُ لهبًا من فمه .. ظهر وكَفل يدوّخان رجال العالم كافّة.. تعلو وتهبط .. تدنو وتبعد .. تنتفض .. تتلوّى .. ترتعد .. تجمح .. كهرباءٌ تسري في بدنه .. والتنين في عينيه يصوّب .. أحسّ بلهبه كما لو كان حقيقيًّا .. تهتزّ ، و تهتزّ ثم تتوقف و ... في تفاصيل الجسدِ الجميلِ يذوب .. يتماهى !!

تنهض إلى حقيبتها ببطءِ أنثى .. تخرج منها صندوقا صغيرا من خشب الأبنوس .. تفتحه كما يفتح الساحر جرابه .. في داخل الصندوق آلةٌ ؛ أسطوانةٌ بيضاءُ شفافة من البلاستيك فيها موتور ، وثلاث حلقات من البلاستيك وقمع صغير .. وأنبوبة جل .. بعد دقائق من التركيب انتصب عضوه واستكملا ليلتهما فاكِهين !!

استغرقت ليلتها معه في .. جلسةِ تدليكٍ بزيت النعناع وزيت Ylang-ylang .. رقصٍ عارٍ ، واهتزازِ ثديين كرُمَّانتين ، وكَفَلٍ فوقه تنّينٌ ذو لهب !! .. تركيبِ جهاز Androvacuum بحلَقاته التي تضمن انتصابَ عضوِه لثلاثينَ دقيقة .. شهواتٍ جهنميةٍ تفتحُ أبوابَ المطارحةِ، و تُلْهِب لذّة المضاجَعَة، و تقرأ أبجديةَ الجسد .

في الصباح .. وكالعادة ..

كان في سريره الكينج بمفرده .. فزعًا ، نهض عاريا ، ينادي عليها ، يبحث عنها .. يجمد مكانه على طرَفِ السرير كمن استحال إلى صنم مستغربًا وهو يقول في ذات نفسه :

« يا الله ، أين كاجين »؟!!

«أين شعرها الكستنائي المبعثَر» ؟!

«أين شفتاها ورحيقهما ، عيناها وسهامهما ، جِيدها وطراوته» ؟!

«أين تتابع أنفاسها الحارة» ؟!

«أين رُمَّانُ صدرِها الذي يتحلَّب لذاذةً ويتنفّج لذّة» ؟!

«أين التنّيـنُ الرابضُ فوق كَفَلها ، أين لهبه ولهيبه» ؟!

«أين .. وأين .. وأين» ؟!

«كلّ صباحٍ تتركني وحيدًا .. وحيدًا كأعْمى» .

« سُحقًا لسهام الفجر الوردية التي تمزّق أستار الليل فتختفي معها كاجين» !!

-٢١-

في اليوم التالي ..

شبرا .. ميدان فيكتوريا .. صيدلية مكة ..

بين المغرب والعشاء .. سماء تزهو بالنجوم ..

تحت وقْع أَيمانِ وإلحاحِ الدكتور علي عوض دلَف زكي فاضل الصيدلية .. أقسم عليه بكل أَيمان وَرَدَ على ذهنه أن يتناول معه وجبة (كباب وكفتة) « على ما قُسِم » .. تعمّد علي ذلك الأمر ، كل يومٍ – تقريبًا – يمرُّ عليه زكي فاضل بين صلاتي المغرب والعشاء .. دلف زكي الصيدلية التي لم يكن فيها سوى الدكتور علي ووجبة الكباب والكفتة التي ستكون مدخلا لفتح كلام وحوار معه .. أتى الاثنان على الوجبة بلحومها وشحومها وخبزها وسلطاتها ثم قال علي وهو يُلملِمُ أشلاءها ويتّجه بها ناحية سلّة الزبالة ليدفنها :

- يا عم زكي الأحزاب كلها دلوقتِ بتجهّز قوايمها وبتستعد للانتخابات واحنا حزبنا لسّه محلّك سر !!

قال زكي وهو يتجشَّأ بصوتٍ عالٍ :

- انت دايمًا كده مستعجل يا أخي .. مستعجل على دخول المجلس.. مستعجل على لمّ الفلوس ؟!

ارتبك علي فقال من فوره بصوت متقطّع :

- مش القصد يا شيخ ... والله .. بس بانبّهكو و بعـ .... !!

مقاطِعًا واللعاب يتطايرُ من فمه :

- تنبّهنا .. متشكرين يا خويا .. بس ما تنساش يا فالح إن جبهة الخراب والضلال بنت الوِسخة مصمّمة على مقاطعة الانتخابات .

أجاب علي وهو يفتح زجاجة (بيريل) ويدفعها باتجاه زكي :

- طب دا كده عسل يا عم زكي .. في ستين داهية .. يعني السكّة دلوقتِ بقت فاضية لينا وبس !!

بعد أن يحتسي زكي زجاجة (البيريل) دفعة واحدة ثم يتجشَّأ كماسورة مياه قد انفجرت ويقول :

- الأمور يا حلو ما تِتّخدش قَفْشَ كده .. فيه حسابات تانية خالص؛ فيه وفود من أوربا وأمريكا رايحة جاية تتحايل عليهم يدخلوا الانتخابات ، وفيه كمان الإخوان اللي عايزين المجلس كلّه في عِبّهُم .. ثم يزفر ويردف : المسألة مش سهلة زيّ ماانت متخيل يابني !!

بتلقائية :

- بس أكيد حزبنا عاوز وضع حلو في المجلس الجاي ، يعني برضه بيجهز قوايم وكده يعني !!

يجيبه زكي وهو يزيل ما بقى من آثار اللحم بعود أسنان :

- أكيد طبعا .. بس انت عارف ترتيب القوايم مش سهل يا علي ، الحكاية مش سلْق بيض !!

وقبل أن ينبس علي بكلمة يُسمع صوت آذان العشاء فيستأنف زكي قائلا وهو ينهض واقفًا :

- العِشَا وجبت .. مش هاتيجي نصلّي يا عِلْوَة ؟!

- يا شيخنا الليل كله عِشَا .. أصل الصيدلية لوحدها !!

يبتسم زكي بجانب فمه ويقول :

- طب بالإذن أنا يا خويا وحاول تحافظ شويّة على الشكل العام ليك قُدّام الناس ، أنت عارف إن رجالتنا لازم يكونوا على السنَّة في هيئتهم قُدّام الناس !!

يمطّ شفتيه ويقول وهو يمسح لحيته بيديه :

- مانا محافظ أهو من يوم ما نبّهتني قبل كده .. دقني ما بحلقهاش وبنطلوني باشمّره ولا اللي هايعدّي بركة ميَّه !!

يجزّ على أسنانه ويضغط بيده اليمنى على أعلى منتصف بطنه فيهزّ رأسه مُؤنِّبًا :

- اللّه يخرب بيت الحموضة .. قُلتلك بلاش العَشَوة التقيلة دي يا أخي .. شوفلي حاجة للحموضة يلّه !!

- ولا يهمّك يا عم زكي ، حالا .. حالا هاتروح !!

يقولها وهو يتجه نحو رفٍّ فيأتي بعلبة فوار Aciloc ١٥٠ فيفتح كيسًا ويضع محتوياته في نصف كوب ماء ثم يدفعه إلى زكي قائلا:

- بسرعة يا عم زكي ، اِشرب وهوّ بيفور .. إن شاء الله هاترتاح دلوقتِ!!

يتجرّع زكي الفوَّار دفعة واحدة ثم يطلق تجشؤًا عظيمًا يدوّي في الصيدلية ، ثم يردف قائلا :

- هوّ التامول والمخدرات اللي بتبيعها بتكسِّب يا علوة ؟!

عندما سمع علي ذلك الكلام شحب لونه واحمرّت أذناه وقال :

- مش فاهم قصدك يا مولانا ؟!

بابتسامة صفراء كالحة :

- أصل أنت يعني ماشاء الله عمَّال تغيّر في عربيتك كل شوية وبتطّوّر مرّة أفيو ومرَّة لانسر ، وشوفتك من يومين تلاتة راكب إلنترا حمرا زي الفل .. شكلها ع الزيرو يا برنس !!

يبتلع ريقه بصعوبة وهو يقول :

- وربنا المعبود يا شيخ زكي أنا بطّلت أبيع الحبوب دي من فترة بعيدة ، نادر يعني لما أبيع لحدّ عزيز عليَّا ، غير كده بالتزم بالروشتة المختومة بتاعة الدكتور !!

فضحك زكي وقال وهو يرفع حاجبيه تهكّمًا :

- ياد يا عِلْوة اطلع من دول .. يابني أنا برضه عمك زكي فاضل، إيّكش تكون فاكرني ماعرفش شقة (دولتيان) اللي مستّفها حبوب وبَلَا أزرق .. خِفّ شوية يا علي .. خِفّ يا حبيبي !!

ركضَت ضربات قلبه وتحاشَى النظر في وجه زكي وقال بصوتٍ خفيض:

- حاضر .. حاضر يا عم زكي .. أخفّ خالص !!

بصوتٍ حادٍّ عميق :

- خِفّ كمان شويَّة .. خِفّ يا عِلْوة .. دا اللي يخفّ يعوم يا حبيبي.. ثم يتنهد ويردف : أمّا ألحق الجماعة بقى .. سلامو عليكو !!

يولّيه ظهره فيتبعه علي وبإلحاح ببغاء يقول :

- كلّ كلامك هانفّذه يا شيخنا بس وحياة ربنا علي عوض حبيبك يكون أول القايمة !!

يستدير إليه ثم يعبث بأرنبة أنفه ويُضيّق عينيه ويقول :

- ألا بالحق يا عِلْوة احنا محتاجين منك شويّة دعم ؟!

كمن لقى لقيّة ظنًّا أنّ تلك العبارة التي سقطت من فم زكي بداية تفاوض :

- بس كده .. خدّامك وخدّام الحزب يا شيخنا ، أنا عمومًا عامل حسابي والدكتور شريف صابر كمان هايساهم معايا !!

- لا يا حِلْو .. أنت فاكر إيه .. التبرّع ده مطلوب هنا .. في شبرا مش للحزب !!

عاجبًا :

- وماله يا مولانا ، أهو كله برضه بيصبّ في المصلحة .. ثم يصمت للحظات ويردف : طب كام المبلغ المطلوب وهانعمل بيه إيه ؟!

يلف المسبحة حول أصابعه ثم يعدل من وضع الشال الأحمر السعودي على رأسه ويقول :

- كام ؛ هانحتاج منك خمسين باكو .. هانعمل بيهم إيه ؛ أنت تعرف إن احنا من فترة عايزين نغيّر اسم الميدان ، ماهو ما ينفعش نكون مسلمين وموحدين وعلى السنة ويبقى اسم الميدان بتاعنا (فيكتوريا) باسم ملكة إنجلترا الكافرة .. ينفع ؟!!

يهزُّ رأسَه نافيًا :

- لا طبعا .. !!

يستأنف زكي قائلا :

- فاحنا بالصلاة على النبي هاناخد مِنَّك المبلغ ده ، وهو مبلغ صغير خلِّي بالك ، وهاناخد من غيرك برضه ونكمِّل المستوصف الطبي والحضانة الإسلامية و

نكبّر زاوية الأشطوخي شوية وهانغيّر على حسابنا كل اليُفط بتاعة المحلات واللافتات اللي باسم فيكتوريا !!

- بس يا مولانا مش الميدان بقى اسمه من فترة (نصر الإسلام) ؟!!

- يابني الاسم ده كان اجتهادات من اللي سبقونا ، بس الحكومة والمحافظة ماوافقتش وكل العناوين المعتمد باسم السخامة اللي اسمها فيكتوريا !!

- يعني هانسميه زي ماهوّ (نصر الإسلام) ؟!!

يصيحُ قائلا :

- لأ .. بعون الله هايبقى باسم شيخنا وتاج راسنا .. هايبقى اسمه ميدان (سامح حسَّان) .. هوَّ يقلّ عن سعد زغلول وطلعت حرب ومحمد فريد والأشكال دي في حاجة ؟!! ع الأقل ده راجل بتاع ربنا وبيُنصُر الإسلام !!

ففغَر عليٌّ فاه وتأمَّل وَجْهَ زكي الذي أضاءت ملامحُه كألوانِ قُزح !!

***

لم يكن ميدان فيكتوريا يحمل اسم ملكة إنجلترا كما كان يتوهّم زكي فاضل ويعتقد كغيره من سكان الميدان العريق ؛ والحقيقة أنَّ اسم الميدان يرجع إلى سيّدة يونانية الأصل كان والدُها يمتلك أرضَ الميدان عندما كان أرضًا زراعية .. ولما أنْ ماتَ والدُها ورثت مع أختها (أزنيف) الأرض التي لم تستطع العيش بها لأنها كانت نائية بعيدة عن العمران والحياة فيما استقرّت أختها فيكتوريا بها واستعمرتها ، ورويدًا رويدًا أضحت المنطقة معروفة

باسمها وأصبحت جاذبةً للسكَّان وتمَّ بناءُ محطة بنزين بها وإنشاءُ سوقٍ للخضروات والفاكهة والطيور ، وبمرورِ الزَّمنِ عُرِف الميدانُ باسم فيكتوريا .

لم تُنجِب فيكتوريا من زوجها (نيقولا) سوى ولدٍ وحيدٍ اسمه (أورلاند) مات أثناء حياتها بعد أنْ عقَّب أربعَ بناتٍ وولدًا يُدعى (إزفالدو) الذي يعيش في مصر ويعمل في إحدى السفارات الأجنبية بها ، أما البناتُ فقد تصرَّفنَ في إرثهنّ بالبيعِ ، وتركنَ الميدان الذي حَمل اسم جدتهنّ فيكتوريا ؛ الميدان الذي يُعدّ أشهرَ ميادين شبرا على الإطلاق .

-٢٢-

ركبتْ السعادةُ سامح حسَّان لما أبلغته سكرتيرته الصاروخ رباب بأنَّ المهندس خيري أمين بالخارج ينتظر إذنًا بالدخول !!

بعد يومي الراحة اللذيْن اعتزل فيهما العالم كان مكتبه بالمهندسين هو أوَّل مكان يقصد إليه ؛ فقد كانت بضعُ قضايا بانتظاره تتطلّب وضْع لمساته القانونية والفهلوية (..) عليها .. نهض سامح لاستقباله باسطًا يده وملامحه تنطق بالبِشْر والحُبور :

- واللّٰه يا باشمهندس الزيارة دي لازم تِتْكِب بحروف من نور في سِجّل هذا المكتب ، بنفسك تشرّفني هنا يادي النور .. يادي النور !!

قال خيري أمين وهو يحملق في ملامح سامح حسان :

- العفو يا أستاذ سامح .. العفو .. أنت شرف لنا جميعا ، مكانك منوّر بيك !!

يجلسان إزاء بعضهما بعد إذ يتعانقان بحرارة ، بعدها يوجّه سامح تعليمًا صارمًا بإغلاق الباب وعدم السماح لكائن بالدخول ..

- بعد إذنك يا رباب محدّش يدخل ، حتى لو كان زكي فاضل، وهاتي بنفسك حاجة للباشمهندس .. !! يلتفت إلى خيري أمين ثم يردف :

- تشرب إيه يا باشمهندس ؟!

- مالوش لزوم التعب يا سامح بيه !!

- ما ينفعش يا باشمهندس ، دا كرمك واصل ومغرَّقنا !!

- خلاص نِشْرَب مع بعض نعناع سُخن !!

- بسرعة يارباب هاتي بنفسك اتنين نعناع سكّره برَّه .

يدقّق خيري النظر في سامح مرَّة أخرى ويقول بنصف ابتسامة :

- بسم الله ما شاء الله انت جاي من تركيا فايق ورايق .. دا تركيا لها مفعول السحر بقى ؟!!

يطلق ضحكة صاخبة فيقول :

- والله يا باشمهندس البلد دي زي الفلّ وياريتنا زيّها !!

بنبرة ثقة :

- بإذن الله هانكون أفضل منها ، احنا حطّين تجربة حزب العدالة والتنمية قدامنا وبصراحة أردوغان بيساعدنا كتير .

يتذكّر سامح حسَّان معلومةً أفضى بها ليفي موردخاي إليه بعد عشاءٍ ذا ليلةٍ تساقطت ثلوجُها من السماء فأضفت جوًّا راقَه سامح خاصة والدفء يتسلّل إلى أوصاله من مدفأةٍ إنجليزية عتيقة تستعر بالخشب ... ليلتها عرف سامح من صديقه ليفي أنَّ تركيا لن تسمح بسقوط الجماعة عبر تدعيمها ماليًّا وعسكريًّا ؛ ولما طلب توضيح وتفصيلَ ذلك أخبره ليفي موردخاي بأنَّ بنكَ (

ربْوة الخليج) سوف يقوم بإيداع مبلغٍ يُقدّر بعشرين مليونا من الدولارات في حساب أحد رجال الأعمال الذي ينتمي إلى الجماعة ويقـوم باستيراد منتجات خشبية من تركيا فيما تقوم الأخيرة بتحويل جزءٍ من تلك الأموال من خلال سفارتها في مصر بينما يتم شراءُ سلاح بالباقي ليتمّ نقله على متن سفينة تركية إلى غزّة ومنها إلى مصر ليكون رادعًا وحاميًا لدولة الجماعة !!

قال سامح وهو يضع ساقا فوق ساق :

- بس أنا زعلان من الإخوة يا باشمهندس ، معقولة مفيش حدّ يتصل أو يسأل .. لا لا ، بصراحة أنا زعلان !!

أجاب كمن يتظاهر بالاعتذار :

- احنا ما نقدرش على زعلك يا أستاذ سامح بس أنت تعلم الظروف، البلد مضطربة وخطوات التمكين للمشروع الإسلامي مازالت في بداية طريقها .. يا سامح أنت منّا !!

يضحك بجانب شفتيه ثم يقول :

- ليس بالتمنّي وحده يا باشمهندس .. أنا بالفعل منكم بس أنتم لا تثقون سوى ببعض خاصّتكم .... !!

يقطع كلامه صوت الباب الجرَّار وطقطقات الكعب العالي الذي تنتعله رباب حاملة ، بنفسها ، صينيّة النعناع الساخن الذي تتأرج رائحته في المكتب .. تضع الصينية على الطاولة التي بينهما ثم تولّيهما ظهرها العجيب وتنصرف عنهما .. يستأنف خيري كلامه قائلا :

- أنت من خاصّتنا يا سامح واللّه ، ويعلم اللّه أنَّ ظروف البلد هي التي تجعلنا مقصِّرين في السؤال .. أنت تعرف قيمتك عندنا ، بل عندي أنا على التخصيص !!

يناوله سامح كوب النعناع ثم يرجع بظهره إلى الوراء ويقول :

- هذا عَشَمِي يا باشمهندس ، اللّه يرحم الوالد كان يحبك ويعزّك أيضًا وياما وقف بجانبك !!

يعمد سامح إلى تذكيره بأفضالِ ومِنَنِ أبيه عليه ..

ففي العام ١٩٨٨ توسّط الشيخ سعيد حسّان لدى المرشد العام ليعفوَ عن خيري أمين لما علم بضلوعه في توريد كميات من الأسلحة لقبائل البشتون الأفغانية على الحدود غربي الباكستان بعد أنْ وضعت الحربُ السوفيتية الأفغانية أوزارها ، وقتها كان خيري أمين يعمل في السعودية مقاولَ مشروعاتٍ من الباطن كستارٍ لكونه حلْقة الوصل بين المخابرات السعودية والجماعة في مصر ، ولولا شفاعةُ الشيخِ سعيد حسّان لخيري أمين لتمَّ طردُه وفصْله من الجماعة ، من يومها ظلّ خيري أمين أسيرًا لأفضال الشيخ الذي أقنع المرشد حينذاك قائلا:

- « المصالح بتتصالح يا شيخ ، وابننا خيري شابٌّ بالغُ الحماسة ، مفعمٌ بالحيوية ، مغرمٌ بعقيدة الجهاد ، وحكومة الباكستان ليست على مستوى طموحنا في مؤازرة الإسلام عقيدةً وشريعةً ومنهاجَ حياة، وهو قد اجتهد فإن كان قد أصاب فله أجران ، وإن كان قد أخطأ فله أجرٌ واحدٌ ، وإخواننا من أهل البشتون سوف يستخدمون ذلك السلاح لإقامة شريعة اللّه في البلاد

الأفغانية بعد إذ رزحت سنين طويلة تحت نير الشيوعية الكافرة ، فلا تحزن ولا تبتئِس يا مولانا ... اللّه أكبر ، المسامِح كريم» !!

قال خيري وهو يحسّ بأنَّ سامح يمنُّ عليه :

- فعلا للوالد أفضال عليّ كثيرة ، بل إنّ أفضالَه على المشروعِ الإسلاميِّ كلِّه حقيقةٌ أبلج من غُرّة الشمس ، وأوضح من رابعة النهار ، وأنت يا سامح يا خُويا على الدرب تسير لا محالة !!

يرتشف النعناع فيقول بعد أنْ يمتصَّ مذاقه :

- الزيارة دي عزيزة عليّ جدا يا باشمهندس بس أكيد وراها حاجة.. ياترى حَدَسِي مظبوط ولا لأ ؟!

أجابه قائلا وهو يضع كوب النعناع على الطاولة :

- فعلا صدق الرسول الكريم : (المؤمنُ كيّسٌ فَطِن) .. حَدَسك في محلّه يا سامح يا خُويا !!

يغوص في كرسيّه وقد أضاءتْ وجهَه ابتسامةٌ :

- خير يا خيري بيه !!

بمحبةٍ وودّ :

- شوف يا أستاذ سامح زي ما قلتلك في الأول إن مرحلة التمكين صعبة ولازم تكون مدروسة كويس وإلا هانقع كلنا ، كل المتحمسين للمشروع

الإسلامي هايتساقطوا واحدًا تلو الآخر ، وساعتها لن يجديَ الندم !!

بتململٍ :

- ماتخُشّ في الموضوع على طول يا خيري بيه ، احنا مفيش بينّا كلفة !!

يبتلعُ ريقَه ثم يقول :

- شُوف يا سامح ؛ احنا حاسّين إن الجيش اليومين دول بيلعب من ورانا ، والمصيبة إن الشرطة بعد علْقة الموت اللي أخدتها بتلعب معاه ، وما تنساش إن فلول الوطني نازلين بثُقلهم وعايزين انتخابات مبكرة بعد ما قدروا يسيّسوا القضا ويحلّوا المجلس ، عشان كده احنا عايزين قرصة وِدن ومحدّش غيرك هايقدر يعملها دلوقتِ !!

يمطّ شفتيه مُطرقا ويقول :

- المرّادي يا خيري بيه انتم بتحطوني في مواجهة البلد كلها ، وبعدين أنا سبق وهاجمت الجيش والشرطة قبل كده ... الحكاية المرّادي محتاجة تفكير يا خيري بيه !!

يدنو منه فيقول :

- ماتقلّلش من نفسك يا زعيم .. انت زعيم مفيش كلام ، وبعدين ماتخافش من حاجة خالص !!

ردَّ سامح :

- المرّادي هاكون في مواجهة المجتمع كله يا خيري يا خُويا !!

- ماتِقلَقْشِ ، البلد بلدنا والدفاتر دفاترنا على قول حسن البارودي في الفيلم !!

- أنا مش قلقان ولا حاجة أنا بافكّرك بس بحجم التضحيات اللي باقدّمها .

بتراخٍ يقول بعد ابتسامة باهتةٍ :

- كلها تحت النظر .. كل أوامرك مستجابة يا شيخ سامح ، كلها ، صدّقني !!

ينهض واقفًا ويقول بصوتٍ حادٍّ عميق :

- مش عاوز أفكّرك بكلامي معاك قبل كِدَه يا خيري بِيِه .. الدورة الجاية أنا الرئيس !!

-٢٣-

لعلَّها كانت السابعة مساءً حينَ قرعَ رائد حسين بابَ شقةِ سلمى لأوَّل مرَّة .

كانت الكهرباءُ ، كالعادة ، قد انقطعت ؛ تخفيفًا للأحمال ونقصًا في الوقود ، حمِدَ اللّهَ في نفسِه أنَّها لم تنقطعْ مع مقدمه أو وهو بينهم؛ لئلا يكون فأْلا سيئا عندهم فيطّيّروا به « مِنْ أوّلها «. استقبلته، مغتبطةً ، سلمى .. بدَا وجهُها – لحظتئذٍ – مُتلألئًا كقطعةِ كريستالٍ بوهيمي ، برغم الضوءِ النحيلِ المنبعثِ من كشَّافٍ صغيرٍ تحمله بيدها .. كانت مُبتهجةً كعصفور كناريا وسط حقول الزهور .. تكتكة مولّدات الكهرباء الصينية التي كانت تعوِي بالخارج أمام المحلات والمقاهي ما يزال صداها في أذنيه يتردّد .. دلَف الباب بعد إذ أخذت منه علبة شيكولاتة فاخرةً كانت في يديه .. اجتازَ الصالةَ التي تضمُّ سُفرةً عتيقة من خشب الأرو بكراسيها وبوفيه روستيك جميل، لم يُخطيءْ في معرفتها ، تستهويه المصنوعات الخشبية الكلاسيكية.. دَلَفَ غرفةَ الصالون ؛ صالون مُذهب قديم من طراز روميو وجولييت قد انطمست بعضُ ملامحه ، مازالت منضدته تحتفظ برخامها الهندي الأخضر .. جلس ينتظر والدها .. التقاه من ذي قبل مرتين أو ثلاثًا بالجريدة ، وقتها كان يحتسي القهوة مع طارق الرفاعي في مكتبه ، وما إنْ دخل عليهما حتى عرَّفه طارق له بقوله :

- « الأستاذ عزيز هاشم يا رائد يبقى والد سلمى ، خلّي بالك الأستاذ عزيز سياسي كبير ؛ كان أمين الحزب الاشتراكي زمان في الإسماعيلية وبعدين اعتزل اليسار كلّه كرامة للي بيعمله اليساريين المراهقين والمُدّعين و

الوصوليين بتوع مصلحتهم .. إيه رأيك نخلّيه يكتِب معانا في الجورنال مقال أسبوعي « ؟!

بالرغم من مرور شهرين على ذلك اللقاء الذي استمرّ لساعتين ، ما زال يذكر كلَّ كلمة لفظها عزيز هاشم ، ودَّ وقتها لو يمتد به اللقاء ؛ فقد كان يحتاج إلى جرعات إضافية من فكر الرجل وطريقته .. عرِف منه أنّه كان ينتوي مع صديقه المرحوم خالد هلال إنشاء جريدة خاصة تكون ناطقة باسم اليسار المصري الشريف الذي لا يلهث خلف مصلحةٍ هنا أو مكسبٍ هناك إلا أنَّ يدَ القدَر ، أو يدَ الخِسَّة قد امتدت إلى خالد هلال وهو في طريقه إليه في الإسماعيلية فقضت عليه تحت عجلات سيارة نقل لا ترحم بدون لوحة أرقام . كما عرِف منه أنّ أصابع الاتّهامِ كلَّها قد أشارت إلى الشيخ سعيد حسَّان أبي سامح الذي يملأ مصرَ بأخباره الآن ، خاصّة وأنَّ خالد هلال قد أماط اللِّثامَ وقتها عن الجنسية الأميركية للسيدة نازلي الزمر زوج الشيخ وكذا عن نشاطه التجاري في تجارة العُملة .. بعد وفاة صديق عمره خالد هلال اعتزل السياسةَ واليسارَ وظلَّ في الإسماعيلية يقرأُ ويقرضُ الشعر حينًا إلى جانب عمله في هيئة قناة السويس ، ثم سوّى معاشه وانتقل إلى القاهرة ليكون إلى جانب ابنته سلمى التي أحبّت الصحافة لتشجيعه إياها ، وإلى جانب ابنته الأخرى الطبيبة المقيمة في وحدة الحالات الحرجة I C U بالقصر العيني التي تزوّجت في القاهرة ..

عرِف رائد تلك المعلومات منه ، ومن يوم أن استمع إليه أكْبره وصمّم على سلمى زوجًا له .

لمس رائد فيه ، أيضًا ، إرادةً كالصوّان ، بل إنّ كيانه كلَّه محضُ إرادة ، و عناد .. خُيّل إلى رائد أنّ الرجل قد دفع ثمنَ عناده وإرادته باهظًا ، لكنه كسب من وراء تلك الإرادة والعناد ابنتين ، ذوْب فؤاده ، كزهرتين لا يأتي عليهما خريفٌ ، وقبل ذلك كلّه كسبَ نفسه ، كسب شرفه ، بل كسبَ حياتَه كُلَّها بعيدًا عن زملاء كانوا له يومًا وفارقهم، أو فارقُوه .. زملاء التمسوا أحلامَهُم في دُرُوبِ النَّصبِ الضيِّقةِ باسمِ السياسةِ و اليسارِ ، والشرفِ الثوريِّ المُصْطَنعِ !!

مكثَ فترةً قصيرةً يتأمَّلُ مكتبةً كبيرةً تحتلّ جدارًا كاملا في الصالون ، صالونٍ يليق بمكتبة ، ومكتبة تليق بصالون .. تحوي مكتبته نُسخًا من القرآن والكتاب المقدّس إلى جانبِ عناوين التقط أسماءها في ضوء الكشَّاف الكبير الذي يُسعر الغرفة ؛ مزيج من كتب ومجلدات تصطفّ في تناغمٍ غريبٍ إلى جانب بعضها البعض : حضارة العرب لجوستاف لوبون .. مجلدات وصف مصر .. مقدمة ابن خلدون .. تفسير البيضاويّ .. الأعمال الكاملة لمحمد عبده .. روايات لنجيب محفوظ .. رأس المال لماركس .. ما الوعي الطبقي؟ لويلهلم رايش .. كنت رئيسًا لمصر لمحمد نجيب .. الردّ الاشتراكي على التحدي الأميريكي لإرنست ماندل .. لُعبة الأمم لمايلز كوبلاند.. لُعبة الكُريات الزجاجية لهيرمان هيسه .. الثورة المغدورة لليون تروتسكي .. تفسير الجلالين .. تفسير الزمخشري .. ديوان المتنبي .. الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّآن التوحيدي .. رُوح المعاني للألوسي .. فصوص الحكم لابن عربي .. حكمة الصين لفان براج .. الكاماسوترا لمالاينجا فاتسيايانا .. الحلاج وصوت الضمير لأبكار السَّقَّاف .. إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة لأبكار السَّقَّاف .. استغرقته العناوين ، التي تمكّن من التقاطها عبر الضوء النحيل ، حتى دخلَ عليه عزيز هاشم في جلبابٍ بلديٍّ أنيق ، ذكّره بأبيه المرحوم في الطويلة دقهلية .. اشتراكيّ قديم

في بيتٍ يضجّ بكلِّ ما هو قديم ، لا يأنف من ارتداء جلبابه البلدي ، كم من اشتراكيين التقاهم ، حدّثهم ، خبَرهم لكنهم في كُوم وعزيز هاشم في كُومٍ آخرَ !! كومٍ بعيد .. بعيد جدا .. يصهل بمفرده .. الرَّجل يُعرَف من لسانه ، وعزيز هاشم يُعرف من لسانه ومكتبته وجلبابه البلدي المكويّ الأنيق !!

وبجلبابه البلديِّ دخل عليَّ والبِشر يملؤه .. بصحبته سلمى .. لم نتحدّث في تفاصيل الخطوبةِ إلا قليلا ، استغرقنا الحديث في الأدب والسياسة .. بعد نحوِ نصف ساعة من « الفيوضات الكلامية « عادت الكهرباءُ مرةً أخرى فقال عزيز هاشم مازحًا :

- منوّر يا رائد دايما !!

فضحكت سلمى وضحكت ثم واصل :

- اِنت أصلا من الطويلة بقى يا رائد ؟!

فأجبت :

- من الطويلة دقهلية .

فقال كمن يتذكّر شيئا :

- أعرفها .. كان لي فيها أصدقاء وزُرتهم هناك .

والآن ؟!

صمتَ للحظاتٍ ثم قال بعد تنهيدةٍ ملتهبةٍ :

- خسرت الجميع .. أو خسروني !!

فقالت سلمى بسرعة :

- بل خسروك يا أبي !!

بعدها ؛ غزَلْنا خيطَ الكلامِ الطويلِ ثم نَقَضْناه من بعد قوةٍ أنكاثًا عندَ انتصاف الليل !!

***

قبل ذلك بخمسِ ساعاتٍ ... و ..

بعنايةِ مُلاكمٍ ، اختار رائد كلماتِ مقاله الجديدِ !!

فالملاكمُ الموهوب المحترف هو مَنْ يُصوِّب ضرباته الموجعات إلى أماكنَ مُعيَّنةٍ مُوجِعةٍ ، قاتلةٍ ، دونَ أنْ يُجازفَ بتعريضِ وجهِهِ إلى ضربةٍ طائشةٍ قد تُودِي بتماسكِهِ على الحلبة ، ضربةٍ يفقد معها وعْيه وثباته .. وهكذا صنع رائد .

اختار لمقاله ، قبل أن يدفعَ به إلى المطبعة ، عنوانًا باسم : « الخُطط الأمريكية واليمين الديني » .. ألحّ عليه شعر « ألن جنسبرج « فكتب جزءًا منه في نهاية مقاله :

الغبي يدير العالم !

الغبي هو النتاج الأخير للرأسمالية

الغبي يستيقظ في منتصف الليل ليرتّبَ أوراقه

يقول أنـا غبي ،

وأحكم الولايات المتحدة وروسيا وإنجلترا ويوغسلافيا وبولندا والأرجنتين والسلفادور

وأتضاعف في الصين

الغبي يدير وزارة الدفاع ،

وأخوه يدير وكالة المخابرات المركزية ،

ويا قلب لا تحزن

الغبي يصنع الأسلحة في الأرض المقدَّسة ويبيعها للعنصريين البيض في جنوب إفريقيا

الغبي يرسل طائرات الصهاينة لضرب مخيمات اللاجئين خارج بيروت

الغبي أصبح شاعرًا كبيرًا وجال العالم مُتغنّيًا بأمجاد الغبي

الغبي بنى المركز العالمي للتجارة على شاطيء نيويورك

دون اعتبار لمكان تصريف النفايات

الغبي يسير مستعرضًا قواه الجنسية

علَّ ذلك يطيل عضوه

الغبي يظن أنه بوذا حين يتأمل

الغبي يخاف بأن يدمِّر الكوكب .. لذا كتب هذه

القصيدة ليكون خالدًا !!

-٢٤-

عندما جلس سامح حسَّان قُبالة الكاميرات في الاستديو ، فكرةٌ واحدةٌ كانت تزداد رسوخًا في داخله : ذلك الصحفي رائد حسين الذي يُذكِّره بخالد هلال ، خالد هلال الذي لم يجد له « شُغْلَة ولا مشْغَلة»إلا في تتبُع أبيه وجَدْبِ آرائه وأفعاله .. من ذي قبل لم يُعرْه اهتمامًا ، اعتاد على « تطنيش « كلام الصحفيين ، أمورٌ جليلةٌ أخرى كان يراها، من وِجهة نظره ، أجدر وأولى بالتفرّغ ، إلا أنَّ طريقة رائد في تتبعه قد نالت من ذلك (الطناش) ونبّهته إلى ضرورة مجابهته ليكون عِبرةً لغيره .. قضى سامح ليلته يفكر في مقال رائد الأخير بجريدة الجريدة ، ذلك المقال التي جعله ينفق جزءً من ليلته في كتابة رسالة إلى ليفي موردخاي عَبْر برنامج الاتصالات السريّ المشفّر المُحمَّل على الـ laptop الخاص به ، الذي إنْ فارقه وهو بالخارج كان في درج مكتبه المُغْلَق .. كان يروم جوابًا يدُكّ جبالَ الخوفِ التي أرْسَاها مقالُ رائد في قلبِه .. لعلَّ فكرةَ زكي فاضل في (شدّ أُذن) ذلك الصحفي وجريدته التي يكتب فيها مناسبةٌ ولو بصورة مؤقَّتة ، قام بتأخير التصوير لبضعِ دقائقَ يسيرةٍ حتى يتمكَّن من إعطاء الضوء الأخضر لزكي بتحرّك أنصاره لتطويق الجريدة واقتحامها والاعتداء على مَنْ فيها لبثّ الرعب في قلوبهم وإثنائهم عن محاولة النيل من الأستاذ الكبير مرّة أخرى .. سيظهر الأمر على أنّه تحرّكٌ غير مُرتّب من الجماهير التي تعشق سامح وتفتديه بأرواحها و ... «ترشّ بالدم مَنْ يرشّه بالماء » !!

أعطى أوامره لزكي فاضل بعدم التوجّه مع تلك الحشود ؛ حتى لا يظهر في الصورة فيبدو الأمر طبيعيًّا خاصّة وأنه في نفس توقيت الهجوم سيكون في داخل الاستديو أمام الكاميرات ولن ينبس ببنت كلمة ردًّا على الكلام الذي كتبه ذلك الصحفي بل سيستأنف حلْقات برنامجه في تفسير القرآن ولن يتطرّق إلى السياسة من قريب أو بعيد.. ولسوف يواصل حديثه عن القرآن والتوراة ، ولسوف يقول ، وشِعاب رأسه تشتعل بكلام ذلك الصحفي ، بعد أنْ يتناهى إلى سمعه صوت المخرج عبْر سمَّاعة صغيرة ثاويةٍ في أذنه (ثري ، تو ، وان .. ابدأ يا أستاذنا) :

-« هل لله شبيه ؟! تعالى اللّٰه عن الشبيه والمِثل ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .. لكن ، لكنَّ اللّٰه خلق الإنسانَ على هيئته .. ففي حديث أبي هريرة عن رسول اللّٰه قال : (خلق اللّٰه آدم على صورته طوله ستون ذراعًا) . وقال : (فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن) الحديث ده فين يا سادة ؟! في صحيح البخاري ، مش من عند سامح حسَّان .. وفي صحيح مسلم أيضًا من حديث أبي هريرة : (إذا قاتل أحدكم أخاه فليتجنّب الوجه ، ولا يقُل قبّح اللّٰه وجهك ؛ فإنَّ اللّٰه خلق آدم على صورته) .. وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك عن رسول اللّٰه أنه قال : (لا تمتليء النار حتى يضع رب العزّة قدمه فيها فتقول : قط قط) ..هذه عقيدتنا يا سادة ، إلا أنَّ الأزهر والأزهريين الأشاعرةَ يتهمونا بالتجسيمِ والتشبيهِ لمجرّد إننا بنقول هذا الكلام الثابت بالقرآن والسنة ، بيدرّسوا للطلبة مذهب اسمه التأويل ، يعني بيصرفوا المعنى عن صورته الحقيقية إلى المجازية لمجرّد إنه مش على هواهم ومزاجهم .. وعشان تعرفوا إن التوراة أصدقُ أنباءً منهم شوفوا التوراة بتقول إيه : (عندما وصل بنو إسرائيل إلى سيناء نزل الرب على الجبل ، فأخرج موسى

شعبه لملاقاته) يعني ربنا سبحانه وتعالى يتصف بالنزول إلى السماء الدنيا وهذا مطابق لحديث أبي هريرة : (ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ...) إلى نهاية الحديث .. وتقول التوراة ، في سِفر الخروج : إنَّ موسى بعد أن أخرج قومه من أرض مصر جاءوا إلى برِّ سيناء ، وكانوا يجهلون الطريق إلى أرض فلسطين ، فنزل الرب وصار يسير أمامهم ؛ نهارًا في عمود سحاب يهديهم إلى الطريق ، ويتحوَّل ليلا إلى عمود نار يضيء لهم لكي يمشوا ليلا « !!

كانت تلك الحلقة بكاملها من إعداد الشيخ جاسم المري .. فلم تكن مُهمّةُ سامح حسَّان سوى نشرِ تلك الأفكارِ وغيرِها .. كما كان ليفي موردخاي يُعوِّل كثيرًا على أنْ تأتيَ تلك الأفكار التي يبثّها سامح بنتائج ممتازة تُعبّد الطريقَ لمرحلةٍ جديدةٍ قوامها التشويش ، والتلاعب بالعقيدة والعقول وتفريغها من كلِّ منطقٍ أو عِلْمٍ .

***

وفي اللحظة التي تحرّكت فيها جحافل زكي فاضل / نياترندال العصر الحديث لاقتحام الجريدة والاعتداء على مَنْ فيها وإثخانهم كان رائد حسين ضيفَ طارق الرفاعي في برنامجه اليومي .

ألحّ طارق عليه في الظهورِ معه ؛ لمناقشته في مقاله الأخير .. بعد عناءٍ وافق على طلبه .

كان سامح حسَّان هو محورُ الكلام ، قِبلته .. تحاشى طارق مقاطعته طوال كلامه ، تركه ولسانه وأفكاره التي تنثال متتابعات .. بعين الإكبار رآه ، لم يكن

كلامًا في السياسة بقدر ما كان كلامًا عن المؤامرات التي تُحاك بليلٍ لوطنٍ مُزّق كلّ مُمزّق ، وضُرِب في صميمه من أبنائه.. ثمةَ فكرةٌ اقتنع بها رائد ، آمن بها كما يؤمن بربه كرّرها غيرَ مرّةٍ في مقالاته عن الإسلام السياسي : « لو أنَّ المتربصين بمصر أرادوا جنودًا تحت إِمرتهم لتنفيذ ما يرومون تنفيذه لما وجدوا أفضل من سامح وأمثاله » !!

خلال الفاصل الإعلاني ، جاءهما النبأ .

لقد تمّ تدمير الجريدة بكاملها ، اقتحمها النياترندال فأتَوْا على ما فيها ، وبالرغم من أنَّ قسم الدقي لا يبعد عن الجريدةِ سوى مائتي متر إلا أنَّ المعتدين قد أتمُّوا مهمتهم بنجاح تاركين آثارهم في أركان الجريدة ومكاتبها وكذا على وجوه مَن فيها وأجسامهم !!

طالَ الفاصلُ الإعلانيُّ ؛ فلم تكتملْ الحلْقة حيث هرعَ كلاهُما إلى مقرِّ الجريدةِ .

***

بعد ساعتين من وصولهما إلى الجريدة ، ومعاينة المباحث للمكان، واستجواب شهود العيان ، وتصوير الفضائيات ووكالات الأنباء للحادث.. كان سامح حسَّان بمكتبه بالمهندسين مع زكي فاضل .. قال وهو يغالبُ غيظًا قد ألمَّ به :

- الواد ده بقى خطير يا زكي من يوم ما راح (الجريدة) والسُّكات عليه بعد كده مابقاش في صالحنا خالص !!

كان سامح قد شاهد تسجيلا لحلقة برنامج طارق الرفاعي فرَبكه تحليل رائد ، وشابَهُ ذعرٌ بانَ على تقاسيمِ وجهه الذي أمسى شاحبًا باهتًا كزُجاجٍ جامد .. قال زكي فاضل بصوت له عُبوسٌ :

- واد ابن ميتين كلب .. أنا اشتكيتْلَك منه قبل كِدَه يا ريِّس وحضرتك استهترت بيه لحدّ ما بقى بالشكل ده .. دا ناقص يقول علينا جواسيس!!!

جفَل سامح وقال وهو يعبثُ بلِحيته وقد تقلّصَتْ ملامحُه :

- كل حاجة بوقتها يا زكي ... ثمَّ واصلَ :

- اِسمع يا زكي ، جهّزلي مؤتمر صحفي في مسجد بلال بن رباح ، مؤتمر عالمي .. بُكرة بعد صلاة العصر .

أجاب زكي بهدوء :

- تؤمرني يا فخم .. بعد العصر هايكون أكبر مؤتمر صحفي في جامع بلال .. أي أوامر تانية يا فخم ؟!

- لا يا زكي ، أنا عايز كل حاجة تكون مظبوطة ، ماتنساش إننا بنواجه أكتر من جبهة .. اتفضَّل انت !!

- طب وجنابك مش هاتروَّح ولا إيه ؟!

- شويَّة كده .. عايز أختلي بنفسي شوية قبل ما أنام .. روح اِنت عشان تقدر تحضّر لمؤتمر بكرة ومش عايز أوصِّيك أنا عايزُه مؤتمر جامد !!

يهزّ رأسَه مُجيبًا :

- بإذن الله هايكون مؤتمر زيّ الفل يا كبير .. سلامو عليكو .

- وعليكم السلام يا زكي .

لم يختلِ بنفسه فقط ، بل اختلى بنفسه وليفي !!

بعد أن تركه زكي .. أمسى وحيدًا ، بمفرده .. غلَّق أبوابَ المكتب ثم أوقفَ تشغيلَ هاتفه المحمول ، ثم فتح الـ Laptop.. زرع فيه كلام رائد حقولا من الخوف والشكّ .. فتح برنامج الاتصالات وفكّ الشفرة ، فوجد رسالةً من ليفي :

- « لا تقلقْ .. لا تدَعْ عدوّكَ يكشفك .. تلك القاعدة الأولى » !!

ردَّ سامح متوجِّسًا :

- « ليس قلقًا عزيزي بقدر ماهو حرصٌ على المستقبل » .

كتب ليفي :

- « إنَّ كلام صحفيّ في جريدة خاصة لا ينبغي أنْ يسبّب لك كل هذا الهلع » .

كتب سامح :

« لكنه قد يتسبّب في مشاكلَ لنا في المستقبل يا صديقي العزيز » !!

كتب ليفي :

- « ألم أقل لك من ذي قبل : إنك لست جاسوسًا يا سامح ؟! ثمَّ إنَّ علاقتك بنا ستكون بعد ذلك علانيةً ، بعد أنْ تكون رئيسًا لمصر » !!

كتب سامح وهو يتبسّم ، وأساريره تنفرج :

- « حُلم .. حُلم يا عزيزي .. لذا أريد لكل شيء أنْ يتمَّ بعناية » !!

كتب ليفي :

- « اطمئن .. كلّ شيء نحسب له حسابًا دقيقًا .. لسنا مثلَكُم ، نحن لا نترك شيئا للقدَر أو المصادفةِ » !!

كتبَ سامح :

- « نعم .. وأنا تعلّمت منك ذلك .. آه ، لقد نسيت ، غدًا سأعقد مؤتمرًا صحفيًّا عالميًّا سيكون ضربةً للجيش والشرطة معًا » !!

كتب ليفي :

- « وهْوَ كذلك .. لن أفرضَ عليك كلامًا ؛ فأنا أعرف عقلك جيدًا.. لتتكلّم دون خوف ، وكما قلت لك : القاعدة الأولى في عملنا هي ألا تدع عدوَّك يكشفك .. وثمَّة أمرٌ جديد ، فأرجو التركيزَ فيه » !!

كتب سامح :

- « خير .. خير يا ليفي » ؟!!

كتب ليفي :

- « هناك لقاء قد أُعدّ لك مع السيد (حسين هاكان) سفير تركيا لديكم ، وأعلم أنه صديقٌ شخصيٌ لك ، فأرجو نجاح ذلك اللقاء وإثماره » !!

عاجبًا ، متسائلا ، كتب سامح :

- « وما فحوى ذلك اللقاء » ؟!!

بسرعة ، كتب ليفي :

- « لا تتعجّل ، فهناك ستعرف » !!

كتب سامح :

- « حسنا .. حسنا يا صديقي العزيز .. ولكن هل أطمئن إلى أنّ أحدًا لن يستطيعَ اختراقَ سيرفرات اتصالاتنا عبر الأقمار الاصطناعية » ؟!

كتب ليفي بثقة قتَّالة :

- « بالتأكيد .. لن يستطيعَ أحدٌ اختراقَ تلك السيرفراتِ ، ولا الـ CIA ذاتها ؛ إننا نغيّرها كلَّ حين .. وستلتقي في زيارتك القادمة لقَطَر مع شاؤول خبير الشفرات لتدريبك على نُوتة الشفراتِ الجديدة » !!

كتب سامح والبِشر يملؤه :

- « يا أخي أنتم بالفعل أفذاذ .. تقدّرون كلَّ كبيرةٍ وصغيرةٍ .. عفَارم عليكم والله »!!

كتب ليفي :

- « أنت رجلنا ، وعين داود الثاقبة لن تخذلك أبدًا » !!

كتب سامح عاجبًا دهشًا :

- « عين داود الثاقبة ؟! لم أفهم يا عزيزي .. أهي شفرةٌ جديدة »؟!

كتب ليفي ضاحكًا :

- « كلا .. فعَيْنُ داود الثاقبة تعني الموساد ، هكذا نُطلِق عليه في تل أبيب يا سامح » !!

-٢٥- (أ)

مسجد بلال بن رباح .. الدُّقي ..

بعد عصر يوم من أيام يونيو الجهنميّ ..

بوجهٍ مُتورّد ، يقفُ سامح على منصّةٍ ، ورأسه بالكاد تكادُ تبِين من خلفَ عددٍ ضخمٍ من ميكروفونات الفضائيات ووكالات الأنباء المحلية والعالمية .. وبغضبٍ مُصطَنعٍ يقول مُرْتجِلا :

- « بعد حمد اللّه ، والثناء عليه بما هو أهله ، وبعد الصلاة والسلام على محمد ، صلَّى اللّه عليه وآله وسلم :

فقد أصبح الهجوم على الإسلام ، والتبجّح على العُلماء ، والدعوة إلى الانحلال والخروج على الشرعية .. كل الأمور دي أصبحت عادية في حياتنا ، لكن .. لكن لكلِّ شيء حدّ ، اِمبارح واحد صحفي ، لساني يعفّ عن ذِكر اسمه ، يظن أنَّ الشهرة سوف تأتيه على طبق من ذهب لما يهاجمني ويفتري عليَّ بالباطل والبهتان .. عُمري ما هاذكُر اسمه ، مش هانوّله اللي في باله أبدًا .. وليته من صحفيي المستوى الأول إنما هوّ ولد نكِرة ، إمّعة ، رُويْبِضة .. أنا عارف كويّس قوي مين اللي وراه ، بس سايبُه براحته ، عمري ما حاعملّه قيمة !!

« الجيش .. الجيش يا إخواني بيلعب هو والمخابرات لعبة مش ظريفة معانا .. معانا اِحنا القيّمين على المشروع الإسلامي بعد الثورة المجيدة ، بيلعب

معانا وعلينا ، لكن على مين ؟! بيسلّطوا علينا الحوَش والسِّفلة من الصحفيين والإعلاميين عشان يهتكوا شرفنا وسمعتنا ، وينهشوا في أعراضنا ، لكن لا ، لا وألف لا ، فإنَّ إرادةَ الشعب فوق كل إرادة .. إرادتنا من إرادة الله !! همّ مش قدروا ، مع القضا المُسيّس، يحلُّوا البرلمان الشرعي المنتخب ؟!! يحلُّوه ، يعملوا مابدا لهم .. اِحنا برلماننا أهو (يقولها وهو يُشيرُ بسبَّابتِه إلى أنصارِه) همّ دُوُل البرلمان !!

أنتم يا أهل الشرعية والشريعة .. المخابرات تلعب ، الجيش يلعب.. الغريب إن الجيش بيلعب كممثِّل عاطفي مبيتدييء .. ممثّل فاشل لسّه بيتعلّم .. عشان الشعب يحبّه ، لكن التهريج اللي بيحصل ده كله أونطة في أونطة ،

ومَنْ المنتصر في النهاية ؟! اِحنا (يضع يدَه على صدرِه) !!

« اللي بيلعب من ورانا ومن ورا الرئيس لعبه كلّه زيّ لعب العيال، يا جيش .. يا شُرطة .. أنتم خُدَّام الشعب ، خُدَّام الرئيس ، وأحذّركم من اللعبِ بالنار .. عارفين ليه ؟!

« لأنّ الذي يلعب بالنار فحتمًا ستحرقه تلك النار .. ستحرقه .. ستحرقه « !!

ويصرخ وقد تجلّى غضبه !!

لحظتها .. وهما بين أطلال الجريدة يجلسان أمام شاشة صغيرة حنَت عليها يدُ القدَر فلم تطلْها همجية النياترندال

ندّت عن طارق الرفاعي صيحة إنكار واحتقار .

فالرجل لم يرعَ لبيت الله حُرمة ، ولم يرعَ عهدًا لأحد !!

رجل سُوقيٌّ ، لَزِج .. ظهر في حالة توتّر وطفح على وجه مصرَ كبُقعة زيت !!

قال رائد متنهدًا :

- الراجل ده اتجنن خلاص ، والله شكله اتخبل !!

لوَى طارق شفتيه قائلا :

- خطاب متوتّر ، مش بنفس مستوى خطاباته السابقة .. كأنه خايف من حاجة ، زيّ ما يكون كلامك عنه في الجورنال والحلْقة بتاعة إمبارح قلَقُه ، لخبطه .. راجل زيّ الحلُّوف صحيح !!

أيقن رائد صحة كلام طارق ؛ فمصطفى عامر لم يكتب له تلك الخُطبة وإلا كان قد أبلغه بها ، كما أنَّ مستوى الخُطبة لا يتَّسق وبلاغة مصطفى وسيولة كلماته وعباراته .. قال رائد وهو يدسّ سيجارة بين شفتيه :

- المشكلة من وجهة نظري إنه بيهدّد الجيش والشرطة ، وكل الدنيا.. شكله بيلقّح على الجيش وفاكر إنُّه بيدعّم حركة (تمرّد) ؟!!

- أيًّا كان ، الخطاب متوتّر يا رائد ، وهيّ دي بداية النهاية لسقوط تيار الإسلام السياسي .

- وبعدين الشباب بتوع الحركة دي أصلا بتهاجم الجيش وبيطالبوا إنه يتفرّغ لحماية الحدود وبس !!

عاجبا ، مدهوشًا :

- واللّه !! اِنت تعرف حدّ منهم معرفة مباشرة ؟!

وقبل أنْ يجيبَ رائد نبضَ تليفونه المحمول برقم مصطفى عامر .. استأذن من طارق قبل أن يرُدّ :

- « مساء شريف يا مصطفى .. الحمد لله يا حبيبي .. آه شُفتُه .. أنا عارف ، توقّعت كده ، أسلوبه وعباراته لا يمكن تكون بتاعتك .. أوك يا مصطفى .. مع السلامة » .

***

بعد ساعةٍ من خروجه من المسجد .. قصد سامح إلى شارع الفلكي بباب اللوق ..

أمامَ مدخلِ السفارة التركية ، ومن السيَّارة الجاجوار (xf) هبط.. وللسائقِ أشار بالمغادرة والرجوع إليه بعد ساعتين !!

- بعد ساعتين ترجعلي ، أرِنّ عليك قبلها .. أكون خلّصت حفلة السفارة .. يلّه مع السلامة اِنت !!

لم تكن حراستُه الشخصية برفقته .. و لم يكن زكي فاضل إلى جواره كظِلّه .. أبلغه بأنه مدعوٌّ على حفلِ عشاءٍ بالسفارة التركية بمناسبة تحويل تركيا لمصر وديعة تُقدّر ببليون دولار مدتها خمس سنوات و بفترة سماحٍ ثلاث سنوات ، و بفائدة لا تتجاوز مقدارَ ١ ٪ :

- بصراحة يا ريّس تركيا دي واقفة معانا وقْفة رجالة ، و جمايلها مغرّقانا من فوق لتحت !!

دَلَف سامح البوابة الخارجية للسفارة بسهولة غريبة كأنه رجلٌ من رجالاتها الأتراك ، وبعد ثلاثِ دقائق كان بداخلها في الطابق الثاني.. لم يكن ثمّة حضورٌ غيره .. لا حفلَ عشاءٍ ولا يحزنون (!!)

كان سامح حسَّان صديقًا مقرَّبًا إلى « حُسين هاكان » سفير تركيا بمصر .. حتى إنه قد أشرف بنفسه على سفرِ كثيرٍ من أنصار سامح إلى سوريا عبر الأراضي التركية للجهاد إلى جانب الجيش الحرّ الذي تموّله تركيا ..

كما أنَّ لارا أبو أسعد زوج سامح كانت من ضمن مَنْ نزحُوا إلى مصر عن طريق السفارة التركية التي شهد مكتبُ سفيرِها عقدَ زواجهما ، وكان السفيرُ نفسُه أحدَ شاهديّ ذلك العقد !!

كان لقاؤهما طويلا بالفعل ، وكان سامح متشوّقًا إلى معرفة سببه إلى أن أسقط « حُسين هاكان » تفاحةَ نيوتن في حجره ناضجةً فقال :

- فيه رسالة مستورَدة من تركيا هاتدخل جمارك ميناء الإسكندرية وفيها حاجات مهمَّة لك يا أستاذ سامح !!

يمطّ شفتيه :

- رسالة .. رسالة بضايع بعني ؟!

يهزّ رأسه بالإيجاب قائلا :

- بضاعة .. بس بضاعة مهمة ، ومحتاجين صورة من السجل التجاري والـ import license رخصة الاستيراد يعني ، وشويّة ورق تاني !!

- أنا مش فاهم حاجة !! ثم إن أنا معنديش الحاجات دي ، أنا معنديش شركات أو أنشطة تجارية !!

مبتسمًا :

- أنا عارف يا أستاذ سامح ، اِنت معندكش بس الراجل بتاعك عنده.. قصدي شيخ زكي فاضل !!

صمت قليلا قبل أن يقول وقد ازداد عجبا :

- زكي ؟! هوّ فعلا عنده شركة وبيستورد دراجات بخارية ومواتير ومُعدّات ميكانيكية !!

- عظيم .. سوف نعدّ له فاتورةً أولية فيها وصف للمنتج اللي هايستورده ، مواصفاته يعني .. سعره ، ميعاد تسليمه ، الشحن، التأمين، التفريغ .. الكلام ده كله هوّ اللي هايخليه يفتح اعتماد ويحصل على رخصة استيراد .

يهرش في مؤخرة رأسه ويقول :

- صدّقني يا معالي السفير أنا مش فاهم أي حاجة من اللي حضرتك بتقولها !!

يضحك :

- ماتقلقش شيخ سامح ، أنا هاكتبلك شوية حاجات عشان يجهزها الشيخ زكي والرسالة توصل باسم شركته وخلاص .

متسائلا وقد عقد حاجبيه :

- يعني الرسالة دي فيها إيه مهم ليا ؟!

- لغاية كده ودوري انتهى .. أكيد أدُون ليفي هايبلّغك بالتفاصيل .. وما تقلقش كل الإجراءات اللي قُلتلك عليها هاتبقى سهلة وفي خلال أيام !!

مُستسلِمًا وقد تدلَّى فكّه :

- اللّٰه المستعان !!

***

بعد ذلك ، عندما اختلى بليفي عبر برنامج الاتصالات السري المشفَّر..

ركضَ الخوفُ بداخله عندما أبلغه ليفي بأنَّ الرسالة المستوردة من تركيا ماهي إلا شحنة مسدسات وطلقات يبلغ عددها مليونا طلقة وستأتي داخل حاوية باسم (الشركة الإسلامية للتجارة والاستيراد) تضم منتجات تركية ميكانيكية وقطع غيار معدّات .. ابتلع خوفه ليبين رجلَ المواقف الصلبة بداخله بحضرة ليفي الذي طفق يطمئنه بأنَّ قوانين اللعبة تستلزم ذلك الأمر ؛ فلن يُستخدَم ذلك السلاح إلا لضرورة .. ضرورة يفرضها قانون اللعبة في مصر .. الذي قد يتغيَّر في أية لحظة !!

-٢٥- (ب)

إستانبول .. في نفس الليلة ..

السماءُ لا قمـرَ فيها ..

أشعل ليفي سيجارته وراح يتفرّس بوجهه النحيف في ملامح جاسم المري الذي يقول :

- يعني يا أخ ليفي شحنة المسدّسات والطلقات اللي راح توصل سامح لن تستطيعَ السُّلُطات المصرية أن تكتشفها ؟!

سحب نفسًا من سيجارته ثم نفَثَ نيكوتينه ، وقال بثقة :

- مصر بعد الثورة ليست كحالتها الأولى يا جاسم ، من السهل اختراقها ، ثم إنّ هذه المسدسات مصنوعة من مادة خاصة لا تستطيع أجهزة الكشف أو الـ X – ray اكتشافها .. لتطمئن إذن !!

قال جاسم مستفسرًا :

- اللّه يوفّق يا ليفي .. بس لماذا لا نعتمد على السلاح المهرَّب من ليبيا ؟!

استرخى في مقعده قبل أن يجيب :

- السلاح الذي يدخل من ليبيا سلاح ثقيل ، ويدخل عبر وسطاء كُثُر، وبدو لا نرغب في أن يكونوا معنا داخل الإطار ، أما هذه المسدسات فخفيفةٌ وسهلةُ

الاستخدام فضلا عن أنّ أحدًا لن يستطيعَ اكتشافها !!

- هو ذا جزء من الحرب اللانمطية – إذن – يا ليفي ؟!

ردّ مبتسمًا :

- جزء أصيل بها .. إنّ إحداث نوع من الفوضى هو الطريق إلى إفشال الدولة ، أيّ دولة !!

- عظيم .. وضحت الصورة ، رائع يا ليفي !!

قال جاسم جملته الأخيرة تلك وهو يهزّ رأسه ضاحكًا .

-٢٦- (أ)

هبطَ قلبُ زكي فاضل تحت قدميْه لما أبلغه سامح بالأمر !!

في نفْسِ الليلة ، وفي حجرة مكتبه بقصرِه ، تمَّ اللقاءُ بينهما بعد استدعاءٍ سريع بالمثول في القصر .

كانت الساعة قد تجاوزت ، بقليل ، الثانيةَ عشرة بعد منصف الليل.. دَلَف الاثنان حجرةَ المكتب فأوصَدَ سامح الباب .. ثم أغلق نافذة تطلّ علي الحديقة وخفت الإضاءة .. وبهدوء طافح سكَبَ تفاصيلَ العمليةِ في وجهِ زكي الذي ازداد احتقانًا حتى إنه أحسّ بقلبه يسقط من صدره فقال وهو يحرّك أحجارَ مِسبحته في سرعة وعشوائية :

- أنا حاطِط إيدي على قلبي من الموضوع ده يا مولانا !!

فبادره سامح ، غاضبًا ، بقوله :

- جرى إيه يا زكي .. خلّيك واثق فيَّا يا أخي .. عِيب ، بالشكل ده هازعل منك !!

معتذرًا ، منحنيا مقبلا يده :

- اعذرني يا ريّس .. ماتزعلش مني .. الموضوع ده خطر شويَّة !!

تعلَّق نظر سامح بقسمات وجه زكي فأردف مبتسمًا :

- خطر إزاي يا زكي ؟!

ابتلع ريقه فقال :

- يعني استيراد الشحنة دي هايبقى خطر شوية يا ريّس ، وبعدين الداخلية مش معانا برضه ، وبتتلكّكْلِنا على أي غلطة .. ماحْنا ياما عملنا فيهم !!

أجاب بنبرةٍ ساخرةٍ وهدوء عجيب :

- عيب عليك .. الشحنة هاتوصل في رسالة من بتُوع الاستيراد اللي باسم شركتك .. عادي خالص .. زيّ أي شحنة اِنت بتستوردها يا سيدي، واطّمّن يا زِكْوَة ؛ المسدسات دي مستحيل حدّ يكتشفها خالص لأنها مصنوعة من مادة زيّ الفايبر كده ، ومتطوّرة جدا .. ماتقلقش يا زِكْوَة!!

اقترب منه مستفسرًا :

- طب وهوّ السلاح اللي متهرب من ليبيا ومخزّنينه في (المنوات) عِصِي يعني يا ريِّس ؟!

سكت لحظة قبل أن يقول :

- خلِّيك ذكي يا سي زكي ؛ السلاح بتاع ليبيا ده سلاح تِقِيل ، يعني مثلا ما ينفعش نستخدمه في أي عملية خفيفة .. وبعدين اِنت مستعجل ليه ، ماتستعجلْش .. السلاح ده دوره لسّه هايبجي ، أمَّا المسدسات التركي دي فمفيش زيّها في مصر وممكن نحتاجها في أي وقت !!

بنظرةِ رجاء :

- يعني العملية مضمونة يا زعيم ؟!

بثقة قتّالة ، وابتسامة عميقة :

- مضمُونة يا شيخ زكي .. ما تِقْلَقش ، طول مانْتَ معايَا ماتقلقْش !!

قال زكي مُمنّيا نفسه بالثقة :

- بس أكيد الموضوع ده محدّش يعرفه يا مولانا ؟!

يغوصُ في مقعده ويقول ساخرًا :

- شكلك بتتذاكي عليَّا يا زكي ؟!

كمن يعتذر :

- العفو يا سيدنا .. أنا جِهْ في بالي بس موضوع تركيا وإن السلاح منها وافتكرت زيارتك الأخيرة هناك و .... !!

لم يُمهِله سامح فرصةً لاستكمال كلامه فقال بنبرةٍ قويةٍ :

- ماتقلَقْشِ ، محدّش في مصر يعرف بالعملية دي غيري وغيرك !!

لم يدُرْ بخَلَدِه أنَّ رابعًا ، إذ كان الشيطان ثالثهما ، لهما قد عرِف بتفاصيلِ تلك الشُّحنةِ !!

كانت لارا .. رابعهم !!

لم يشك لحظةً في أنَّها تغطّ في نومٍ عميق ..

لم يحسّ بأنها خلفَ الباب تتنصّت ..

لم يسمع حديثَ نفْسِها وهي تُردّد بداخلها :

- ربي عادل .. ربي عادل !!

-٢٦- (ب)

بعد يومين ..الساعة .. : ٥ عصرًا ..

نسماتٌ صيفيةٌ رطبةٌ ..

اجتزتُ مشيًا مع سلمى ميدانَ طلعت حرب بعد أن سلّمنا على شابٍّ وفتاة كانا يقفان أمام مكتبةِ دار الشروق يدعُوان المارّة إلى التوقيع على ورقة تمرّد REBEL .. بدَا الجوّ حولهما احتفاليًّا : ابتسامات ، ضحكات ، دعوات بأنْ تُكلّل الجهود بالنجاح .. وقفنا معهما لبضعِ دقائق قبل أنْ نتّجهَ يمينًا إلى شارع صبري أبو علَم .. قصدنا مطعم (القزَّاز) فابتعتُ سندويتشات الشاورما ثم إلى (زهرة البستان) اتجهنا .. كان الجوُّ منذرًا بشيء كأنه الحبُّ أو بشيءٍ عجز عقلي وعقلُها عن تسميته .. للحظاتٍ تذكّرت داليا ، دودي سليم .. فتذكّرتُ مولانا جلال الدين الروميّ وهو يحكي على لسان الناي ألمَ الفراق :

« إنَّني مُذ قُطِعتُ من منْبتِ الغابِ لم ينطفيءْ بي هذا النواحُ ،

لذا ترى الناسَ رجالا ونساءً يبكون لبكائي ،

فكلّ إنسانٍ أقام بعيدًا عن أصلِه ، يظلُّ يبحثُ عن زمانِ وصلِهِ ،

إنّ صوتَ الناي نارٌ لا هواءٌ ،

فلا كانَ منْ لم تضطَرِم في قلبِهِ هذه النَّارُ » ..

أفرغتُ نفسي من ضعفِها .. ثم حشَوْتها قُرْبًا وحُبًّا لسلمى ، إنجازي الأكبر في حياتي ، مرفئي الحنون ، قدَرِي الجميل الذي يفصل بين عهدين ؛ عهدِ دودي سليم و أنيس العليمي ، وشطحات التفكير ومراهقته ، وعهدِ الحبّ الذي يخضب الحياةَ ببهجةِ النعيم ، ولذّة الاشتياق ، عهد طارق الرفاعي وعزيز هاشم اللَّذيْن لم يسيرا في رِكاب السُّلْطة أو يندفعان نحو هيكل المال ، ومعْبدِه ..

عهدان .. زمانان .. كان القلقُ في أحدهما تامَّ الحضورِ بعُدّته وأعداده: مفردًا ، ومثنّى ، وجمعًا !!

عهدان .. زمانان .. كنت في أحدِهِما كفارسٍ يمتطي جوادًا خشبيًّا !!

عهدان .. زمانان .. كان أحدُهما ممرًّا إجباريًا للوهمِ ، و .. السَّراب !!

عهدان .. زمنان .. تساقطت فيهما الأقنعة ، وبانت التحولات الكبرى!!

انتزعني صوتُ سلمى من بحر الأفكار اللُّجّي الذي يغشاني أو .. أغشاه :

- رائد .. مش هتاكُل .. السندويتشات هاتبرد ؟!

كنَّا قد قعدنا على زهرةِ البستان فقلت لها بعد أن تنفّست بعمق :

- ما تتصوّريش أنا باعشق وسط البلد قدّ إيه .. بحسّ بمصر وتاريخها كله هنا !!

بتلقائية مدهِشة :

- والريف .. ريف مصر وغيطانها ووشوش فلاحينها حاجة تجنّن برضه يا رائد !!

رددت بِبَساطة :

- مصر كلّها حلوة يا سلمى .

ثم شَرعْنَا في تناول الطعام .

قلتُ لها وأنا أبغي إشعالَ نار الغيرة في حطبِ الحبّ :

- ماقُلتليش ؛ إيه أخبار المُزَّة بتاعة سوريا ؟!

باقتضاب ردّت وهي تكتب على وجهِها سيناريو عدم الاكتراث :

- ما الحدّوتة خلصت يا حبيبي .. خلاص فينيتو !!

قلت لها بمكر عاطفيٍّ :

- أنا بهزّر يا رِخمة .. هوَّ فيه أحسن من المصري ؟!

بخجلٍ قالت ، وقد بدَا وجهها كوردةٍ بيضاءَ بلّلها النَّدى :

- ناس معندهاش نظر !!

قلت لها مازحًا ، وأنا أشعل سيجارتي ، بلكنة شامية تعاني شرخًا وكسرًا :

- تُقبرني ها النظرات ، يقبرني ها الدلال !!

***

آخر مرّة سمعت فيها كلمة (تِقْبُرني) كانت منها !!

بعد أنْ قالتها لي سادَ بيننا صمتُ الذهول .. ابتلعت دموعًا لم تشأْ أنْ تسكبَهَا .. لعلّه كبرياءُ الأنثى ، ثمّ استعادت جأشها ، و ..

بقَهْرٍ ، كفراشةٍ امّحت ألوانُ جناحيها بين أصبعين ، قالت :

- أعمل إيه ؟!

فأُسقط بيدي !!

ما الذي يدفعها دفعًا إلى ذلك ؟!

مُذ دلفت مكتبي منتقبةً أحسستُ أنها في متاهةٍ ، متاهةِ امرأة تقابل رجلا لأوَّل مرّة في حياتها .. مدّت يدَها نحوي فسلّمت عليها.. لقاء بعد مهاتفة .. لم أدرِ ، حتى الآن ، ولم أشأْ أنْ أسألها ، من أين جاءت برقم هاتفي ؟!

- أهلا وسهلا .. اتفضّلي .

قبل أنْ تجلس فاح عطرُها وتأرّج .. عطرٌ برائحةِ الخجلِ أو برائحةِ العنبر .. ثم قالت :

- آسفة على إزعاجك !!

فقلتُ لها مُلطِّفًا :

- ولا يهمّك .. خِيِر .. أيّ خدمة ؟!

فقصّت عليّ القَصَص ، فلم يكن لباطنها من سرّ .. ثم كشفت عن وجهِها كما كشفت بلقيس عن ساقيها .. لم تكشف ، لرجلٍ ، عن وجهِها مُذْ لجأت ونزحَتْ إلا لسامح وأبيها .. وثالثهما رائد .. جمالها لافتٌ نادرٌ باذِخٌ !!

لن يعرفَ أحدٌ ، قطّ ، سرّها .. طمأنتها إلى ذلك .. قرأتُ على وجهِها قُربَ انفكاك الضحيّة من شرك الصيّاد المخادع .. قُرب تحرّر أنوثتها وانفكاكها من سامح !!

***

قالت لي سلمى بصوتٍ أحسسته أنيقًا :

- بس قولّلي : تِفتِكر فيه حاجة ممكن تتغيّر ؟!

فقلت لها بيقين قتَّال :

- طبعا .. أكيد .. أنا متفائل !!

فقالت كمن تتهكّم :

- اِنتَ على طول كده متفائل يا رائد ؟!! اِشرب .. اِشرب الشاي بتاعك هايبرد !!

وفي غمرةِ الأملِ شربتُ الشايَ ، ثم ...

ابتسمتُ وحدي !!

(٢٧)

لم تكن لارا تحلُم سوى بفارسٍ جسورٍ يأتيها ممتشقًا ظهر جواده باسطًا يده إليها ، وفي جِيدِه طوْقُ الحبّ !!

حلمت بأنها تلعب وتتقافز في حديقة غنَّاء تحت زخّات المطر .

حلمت بأنها تلعب وتلهو مع فراشات الحقـول .

حلمت بأنها تغازل ، وقت النّدى ، أزهارَ الياسمين والبنفسج .

حلمت ....

وحلمت .. وحلمت .. ثم استهزأت بها الأحلام !!

لكنها لم تحلم بأن تكون في غرفةٍ حقيرة متهالكةِ الأثاث ، صامتةٍ كقبر ، ثقيلةٍ كرَصَاص في أطرافِ صفط اللبن بالجيزة !!

صحت من نومها ففتحت عينيها بصعوبة بالغة على صوت تعرفه، صوتٍ يطاردها مُذْ حلّت بقصره ، صوتٍ له فحيح أفعى قادمٍ من قاعِ الجحيمِ :

- اوعي تفتكري إني نهايتي ممكن تكون على إيدك ؟!

تبتلع ريقها المتحجّر فتحسّ بحلقها جافا كصخرة صمّاء .. الصداع يحفر نفقا عميقا في رأسها كما يحفر السوس ضرسًا فينهش عصَبه ويهتكه .. تئنّ دون

حراك ، تغمض عينيها كيما تهرب من هيكله ، تستولي عليها رعشة تهزّ جسدها ثم يثقب أذنيها طنينٌ شديد .

يدنو منها أكثر فيقول :

- كنتِ فاكرة إنك بتخدعيني ، كنت فاكراني غبي ؟!

و يسكت هنيهة ثم يردف قائلا غاضبا :

- هوَّ ده جزاء ثقتي فيك يا لارا ؟! هوّ ده جزاء إحساني عليك اِنت وأبوكِ ؟!

فجأة ، تفتح عينيها فتبرقان ببريق الأمـل .. تُغمغم :

- أبي .. أبي .. أين هو ؟!

تلتفت إليه بعينين راجيتين ثم تحاول النهوض فلا تستطيع فيما هو لا يكترث بكلامها .

***

لم تدرِ لارا بعد مغادرتها جريدة (الجريدة) أنَّ سامح حسان يحصي أنفاسها ، حركاتها ، حتى إنه لو طال يركّب GPS في داخل جسدها لركَّـب !!

كيف أتى بها إلى هذا المكان ؟! كيف استدرجها ؟! ما الذي يشلّ حركتها ؟! ماهذا الملح الذي يتحلّب من فمها ؟! ماهذا الصداع الرهيب الذي ينشر رأسها بمنشار ثلِم ؟! أين أبو أسعد الطيب ؟! أين أبي ... ؟!

كل ما تتذكّره أنها بعد يومين من مقابلتها رائد بدأت تحسّ بتغيّر سامح وسرعة استجابته للتوتّر والانفعال لدرجة أنه سحب منها شريحة الاتصال التليفوني بحجة تغيير الرقم كإجراء عادي يمنع المعاكسات ثم لاحظت أنه لم يعُدْ يغادر القصر حتى إنَّ زكي فاضل يأتيه في اليوم مرتين وثلاثة على غير المعتاد .. نظراته إليها أضحت غريبة ؛ كان لا يتجاسر على تصويب عينيه في عينيها أما الآن فيحدجها بنظراتٍ قاتلاتٍ تجعلها ترتعد في داخلها ، وتبتئس لحالها .

لم تكن تعرف أنَّ سامح يعدّ لرائد عدّته !!

- الموج بقى عالي قوي يا زكي ، والجيش شكله هايُغدر ويستلم البلد.. لازم تسمع الكلام اللي حاقولهولك وتنفذه بالظبط !!

قالها سامح بعد أنْ عرِف أنّ رائد قد اطّلع على أمر شحنة السلاح المهرّبة المنتظر رسوّ حمولتها في ميناء الإسكندرية بعد يومين أو ثلاثة، ولم يشأ إخبار زكي بتفاصيل ذلك ؛ فالشحنة باسم شركته والتخليص الجمركي وإذن الاستيراد باسمه .. فليذهب زكي إلى الجحيم ، فليس بعد الرُّوح رُوح ..

ردّ زكي وقد ارتعدت فرائصه وانثال عرقه باردًا :

- والشحنة بتاعة السلاح يا كبير ، الشحنة هانعمل فيها إيه ؟! تبقى مصيبة لو مسكوها في المينا .. رقبتي هاتطير يا مولانا .. ويمكن تطير معاها رقاب تانية !!

لطمت العبارة الأخيرة أذن سامح لكنه ربط جأشه بوتدٍ متينٍ ثم قال بهدوء مصطنع :

- يا أخي ماتخافش .. كله تمام .. مستحيل حدّ يكشفها ، ماأنا قلتلك إن المسدسات مصنوعة من مادة لا يمكن أي جهاز يكشفها !!

كان سامح يعلم أنَّ زكي رايح ، لامفرّ ، في ستين ألف داهية ، لكنه يريد أن يستخدمه لآخر لحظة كما أخبره بذلك ليفي موردخاي الذي لم ينقطع اتصالُ سامح به عبْر برنامج الاتصال المشفَّر طوال اليومين اللذين أعقبا خروج الناس في الشوارع تطالب بعزل الرئيس .. لم يمتلك ليفي سوى بثّ الطمأنينة الكاذبة في نفس سامح فيما قلبُه ينخلع من قفصه الصدري خوفًا من آتٍ قريبٍ لم يحُسَبْ له حساب !!

وقبل أن يردّ زكي عاجله سامح بقوله :

- المهم جبت اللي قلتلك عليه ؟!

يدسّ يده في سيالته فيخْرِج علبة صغيرة كعلب الدواء ويدفعها نحو سامح الذي يتناولها فيُقلّبها بعينه ثم يقول :

- تمام .. هي المطلوبة يا زكي ؟!

- خـدَّامك يا كبير ، دا الدكتور علي بيقول إن مفعولها بيقعد بييجي تمن ساعات !!

لم تكن تلك العُلبة سوى منوّم Temazepam الذي ستستقبله خلايا لارا العصبية على فترات متقاربة ثم يتم التوقف المفاجيء عنه فيدخل جهازها العصبي في نوبات من الاضطراب النفسي والتشويش الذهني فتتمنى الموتَ كلّ حين !!

لم يكن للدكتور علي كبيرُ دخلٍ في اختيار ذلك الدواء ؛ إذ أعطى سامح ورقةً باسمه إلى زكي وأمره بإحضاره وعلامة استفهام كبرى تنتقشُ في دماغه وتتضخّم :

- « إيه الحكاية بالظبط ، ياترى هوَّ عايز يعمل إيه بالحبوب المنوّمة دي » ؟!

- خلاص يا زكي اتّكل انت على اللّٰه وماتنساش ؛ بكرة بعد المغرب تخلَّص موضوع الواد الصحفي اللي اسمه رائد ، عايز الموضوع يبان إنه طبيعي !!

هي ذي إذن المهمّة القذرة الأخيرة التي يستخدم فيها سامح شيطانه زكي ، لامفرّ من التخلّص من ذلك الوغد ، لامفرّ من قصفِ قلمِه إلى الأبد .. ولتذهبْ من بعده كل الأقلام إلى الجحيم !!

هرش زكي في عِرْق الهيافة ثم أردف قائلا :

- وهوَ كذلك يا ريِّس .. بكرة المغرب مفيش حدّ اسمه رائد حسين هايكون على وِشّ الأرض .. بالإذن !!

ثم ولاه ظهره وانصرف .

كان ذهنُ سامح قد تفتّق عن خطة قديمة / جديدة للقضاء على رائد .. خطة كان يعلم أنها ناجعة ، استشار فيها ليفي موردخاي فأجازها هو الآخر .. كان قد اتفق مع زكي على تدبير حادثةِ سيْر لرائد ؛ فالأمرُ لا يستلزم سوى سيارة نقل ثقيلة دون لوحات معدنية تدعسه داخل سيارته فتُسوّيها بالأسفلت ثم تُقيَّد القضية كحادث سير عادي ضد مجهول .. فكم من حادث كهذا أراح وأزاح !!

بعـد نصف ساعة ..

على غير عادته ، صعد غرفةَ لارا بعد أنْ أغلقها دونها بالمفتاح من بعد الغداء ، وهو يحمل صينية فوقها كأسان من عصير التفاح الذي تعشقه لارا .. أولج المفتاح في الباب ودخل الغرفة فألْفَاها على السرير مُتّكئةً تتصفّح مجلّة .. نظرت نحوه ، عاجبةً ، وهو يحمل الصينية ويتقدّم نحوها .. اعتدلت في جلستها وهي تقول :

- سامح .. بنفسك جايب العصير لغاية هنا .. عنّك !!

يرسم ابتسامة من جانب فمه فيقول وهو يضع الصينية على الكمودينو ويجلس على طرف السرير :

- وماله يا لارا ، لقيت نفسي فاضي فقلت نشرب العصير ده سوا .. من زمان ماقعدناش مع بعض كده !!

تبادله ابتسامة وتقول بصوت عذْب :

- لك أهلين .. تِـكرم .. تِـكرم حبيبي !!

تلطمه كلمة (حبيبي) على وجهه بلا هوادة ؛ فهو يعلم – تماما– أنه لا حبيبها ولا يحزنون .. يرفع كأس عصير التفاح ويدفعها نحوها وهو يقول متأدِّبًا :

- اتفضلي عصير تفاح من اللي بتحبيه .. اشربي ، اشربي يا لارا !!

تأخذ الكأس وتتجرّعه فيما هو يحدجها بمقلتيه اللتين ازدادتا اتساعًا وبانتا كمُقلتي البُوم !!

بعد نحوِ عشرين دقيقة بدأ مفعول الحبوب المنوِّمة ، التي أذابها في عصير التفاح ، تظهر على لارا : الرأس يثقل رويدًا رويدًا .. العينان يغلّفهما ضباب رقيق .. المعدة تجأر بالغثيان .. الأطراف تبرد وترتعش.. يتلاشي وجهُ سامح شيئا فشيئا ثم تغيب في عالمٍ لا متناهٍ كأنها هَوَت في باطنِ الأرضِ السابعةِ !!

***

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل تأوّهت بعد شبه استيقاظ مفجع .. كان سامح إلى جوارها ينتظر .. ضغطت بكلتا يديها على رأسها الذي ينخره الصداع ويهتكه .. لم يكن سامح بحاجة هذه المرة إلى إذابة قرص المنوّم .. فتح درج الكمودينو فأخرج قرص الـ Temazepam ومع كوب ماء أعطاه لها لتذهبَ بعد عشر دقائق ، فقط ، من التأوهات والأنَّات وتمزّق الأعصاب إلى عالم النسيان !!

-٢٨-

صباح اليوم التالي ..

الساعة العاشرة ..

بعد ثماني ساعات أخرى .. تفتح عينيها بصعوبة .. يركض في جسدها شيء غريب تحسّ به ولا تدركه ..

رويدا رويدا ترى سامح أمامها يتشاغل بقراءة جريدة (الجريدة) .. كان يرتدي قميصًا بنصف كُم يظهر فيه كرشه ، وبنطلونا من الكتَّان، ويضع ساقا فوق أخرى .. الأخبارُ ، كلُّها ، تحمل إرهاصًا بتدخّل الجيش واستجابته للجماهير التي فاض الكيلُ بها طوال عام مضى .. يقرأ وهو يزمّ شفتيه ويقطّب جبينه .. كلّ سطر يقرؤه يُزلزل كيانه .. ينخر في أعماقه .. يعصف بأعصابه فيزداد تشنّجه .. ثم يلتفت إليها قائلا :

- صحّ النوم يا لارا .. إيه ، شكلك كنت جعانة نوم يا بنتي ؟!

تقول بعد أن تتثاءب :

- انت هون سامح ؟! أنا مو فاكرة شي .. مابعرف شو صار بعد ما شربنا العصير سوا ؟!

- ولا حاجة صارت .. كل ما في الأمر إنك كنت عايزة تنامي فنمتِ !!

- إيه رأيك نفطر سوا ؟!

تهز رأسها بالإيجاب :

- إي قبلانة ، بس آخُد شاور الأول !!

بسرعة يقول :

- نِفطر الأول .. بصراحة أنا مافطرتش ومستنيك من بدري نفطر سوا !!

عاجبة وقد نهضت متثاقلة :

- خلاص سامح .. خلاص عم نفطر الأول وبعدين باخُد الشاور !!

لم يكن سامح يرغب في أن تُفيق .. تملّكته رغبة عارمة في الانتقام منها بطريقته الخاصة ، الانتقام بتمني الموت .. يأتيهما الفطور في غرفة النوم .. كان سامح يتناول طعامه بلذّة وبلاهة وسرعة .. وهي تحسّ بأنها ليست هي !!

نهض مسرعًا وهو يتنهّد و يغمغم « الحمد لله « .. ثم أردف قائلا :

- كمّلي فطارك وأنا حانزل أجيب الشاي .

وفي الشاي يكمن النوم .. النوم القسْري العميق ، الذي يغيّبها عن عالم الأحياء ثماني ساعات متتاليات تصحو بعدها وهي نصف متيقظة.. نصف حيَّة .. أمست الأضواءُ ترهق عينيها ؛ لكأنها اعتادت على الظلام كخُفَّاش !!

كانت نيّة سامح أن ينتقم منها قبل أن يعدّ العُدّة للهربِ خارج مصر .. أما ذلك الصحفيُّ فسيجمعون لحمه المغموس بالدم من فوق أسفلت طريق المقطم .. كم يتمنّى أن يُكبّله أمام عينيه ذليلا ويغرس في صدرِه نصلَ خنجرٍ حادٍّ ثم يديره في جُرحه حتى يتدفّقَ الدمُ غزيرًا كشلالٍ فيَلَغ فيه ولوغًا (..) كم يتمنَّى أن يُخرِجَ كبده فيأكله (..) ولكنه لا يستطيع .. إنه أجبن من أن يفعلَ كلّ ذلك .. إنَّ المرأةَ هند بنت عتبة التي أكلت كبد حمزة لهي أجسرُ منه وأجرأ .. كيف لجبانٍ مثله يخشى ركوب الدرّاجة أن يتجاسر على فعل ذلك كله ؟!! يتذكَّرُ كلماتِ أبيه ، التي تزوره ، دوما في حلمه ، تدقّ بأناملها الغليظة على قِشرة مُخّه :

- « اِركبْ .. اِركبْ يا جبان .. مانتاش فالح يابن أمك » !! يعترف في قرارة نفسه أنه جبان .. حتى إنه جبُنَ عن الدخول على أبيه وهو ميّت ، جبُن عن رؤيته وهو يُغسَّل ، جبن عن البصّ عليه وهو في كفنه ، جبن عن النزول معه إلى قبره .. يعرف أنَّ الموتَ يحيل الإنسان إلى كائن آخر .. يسحب ماءَ الحياةِ من الجسُوم .. يُغيِّر الخِلْقة .. يبعثرها في دُرُوبِ الفناءِ إلا أنَّ ذلك كله لم يكن هو سرّ ابتعاده عن جثمان أبيه .. إنه الجُبن ، والجُبن فقط !!

ميراث أبيه يطارده !!

أما زكي فاضل فلم يعرف عن نيته في الهرب من مصرَ شيئا ، فسيُكتشَف أمرُ شحنة السلاح وسيلبِس زكي خازوقًا يهتكُ أحشاءه ويُدميها .. سوف يشيل هذا اللّطخُ بمفرده الليلةَ كاملةً وبالبقشيش كمان (..) ولسوف يفرّ سامح بجواز سفر مزوَّر كان ليفي موردخاي قد أعدّه له على سبيل الاحتياط من ضمن ما أعدّ .. فسامح رَجُلُه اللُّقطة (..) الذي لا يُعوَّض .. لا يجود الزمان

بمثله كثيرًا .. بعد أن ينتقمَ من لارا ، على طريقته الخاصة ، وبعد أن يسمعَ نبأ مصرع رائد تحت عجلات لوري ثقيل سوف يغادر عبر طريق الصعيد إلى السودان التي أُعِدَّ فيها بيتٌ لاستقباله ليومين أو ثلاثة كيما يلتقط أنفاسه ليكون بعد ذلك في قطر أو تركيا ..

فجأة ، أدرك بشيء من الذعر والقلق أنَّ أطرافه يستولي عليها التنميل.. كأنّ نملا نشيطا يجري فيها استعدادا لتخزين طعامه قبل موسم الشتاء .. جبينه يتفصّد عرقًا ، دقّات قلبه تتسارع ، تركيزه الذهني يقلّ .. فتَّش في جيبه عن قطعة حلوى مما يحتفظ بها فلم يجد .. تذكّر بصعوبة بالغة أنَّ لارا التي تنام قسرًا أمامه كانت تحتفظ له بقطع من الحلوى في حقيبتها .. نهض متثاقلا حتى بلغ إلى درفة دولابها ففتح حقيبتها ثم التهم منها قطعتين من الحلوى .. تهالك على كرسيٍّ أمام السرير ورجع بظهره إلى الخلف ، وبعد خمس عشرة دقيقة استعاد عافيته بعض الشيء فشرع ينظر إليها ولما يزل ريقُه يحتفظ بنكهة الحلوى التي كانت في حقيبتها !!

***

لم يكن على لسان لارا لحظة استيقاظها سوى كلمة واحدة :

- أبي .. أبي !!

لسانها ثقيل كأنه يجرّ غرائر مِلح .. يدنو منها ويقول :

- لو عايزة أبوك يعيش لازم تعملي اللي هاقولك عليه ومن غير كلام !!

تجوس بعينيها خلال المكان ثم تبتلع ريقَها بصعوبة وتقول :

- حاضر .. حاضر ..

ينظر إليها نظرةً ترى فيها غربتها السحيقة بأوضح مايكون :

- انت دلوقتِ هاترنّي على رائد حسين .. الصحفي ، فاكراه يا هانم؟! الصحفي اللي قُلتيله على خبر الشحنة اللي جاية من تركيا !!

تهزّ رأسها وتقول :

- إيه .. بلى .. فاكراه !!

يجز على أسنانه :

- عظيم .. اِنت هاتتصلي عليه دلوقتِ وتكلميه عادي .. هاتكلميه بصوت يبان إنه طبيعي جدا وتقوليله إنك منتظراه على طريق المقطّم – مدينة نصر ..

تقاطعه وقد استعادت جزءً من تركيزها وهي تقوّس حاجبيها الدقيقين :

- طريق شو !!

يضغط على مخارج حروفه بصوت عالٍ :

- المقطّم – مدينة نصر .. اسمعي وركِّزي في كل كلمة باقولهالك ماذا وإلا أبوك هايكون في خبر كان !!

باضطراب وهلع :

- أبوس إيدك .. إلا أبي .. هانفّذ كل اللي تطلبه .

- تمام .. انت هاتقوليله إنك هربت من القصر وأخدت أبوك وسافرتم عند ناس شغالين عنده في المحل من السويس والعربية اتعطّلت بيكم في طريق المقطّم .. فهمت هاتقولي إيه يا شاطرة ؟!!

تهزّ رأسها بالإيجاب :

- بلى .. فهمت ، فهمت !!

ينهض ويمدّ يده ليساعدها على القيام فتستجيب له .. يأتيها بكوب ماء فتتردد قبل أن يقول لها :

- اشربي .. بلّي ريقك ، ماتخافيش .. المرّادي ميّه من غير حاجة !!

تشرب بنهم ثم تنزوي في جلستها وتتقنفذ كسلحفاة تسحب أطرافها ورأسها تحت غطائها السميك .. ترتعش فتبدو كزهرة ذابلة مستسلمة لريحٍ عاصف .. وماهي إلا لحظات وتدخل امرأةٌ سوداء بدينة تحمل صينية من الألومنيوم فوقها طعامٌ تسلّلت رائحته إلى أنفها فاستجابت لرغبة معدتها في الأكل .

- لازم تاكلي كويس علشان تعملي اللي اتفقنا عليه !!

بعد أن ألقت بالطعام في جوفها اتّجه سامح ناحيتها وفي يدِه تليفونٌ محمولٌ بداخله شريحة اتصال تُستخدَم للمرَّةِ الأولى والأخيرة .. تهيّأت لمهاتفة رائد فيما سامح يشرع في طلبِ رقمه .

تجمع لارا ماتبقّى من نفسها .. تُلملِمُ ما تبعثر منها وتشتّت .. تتماسك .. تنطوي على حزنها .. تضع التليفون على أذنها بعد أن يفتح سامح الـ speaker

فيستحيل صوتُ الجرَس إلى صوتِ موسيقى جنائزية غامضة .. ينطق ألمُها مع صوت رائد حين يقول :

- ألووو .. مساء الخير يا فندم ، مين معايا ؟!!

-٢٩-

من فوْره ، استقلّ رائد سيارته مسرعًا إلى لارا .. عانى حتى بلغ المقطّم من طريق عرب اليسار – السيدة عائشة ، في طريقه اتّصل - مرتين - بالرقم الذي هاتفته لارا من خلاله اطمئنانا عليها وعلى أبيها (..) فأجابته وهي متماسكة بعض الشيء :

- أنا منتظراك يا رائد .. بابا بيشوف ميكانيكي وأنا بالسيارة لحالي !!

ثم تخرس بعد ذلك كصَخْر .

كانت اللجان الشعبية قد نشطت مرة أخرى على طريق المقطّم منذ يوم ٣٠ يونيو .. وبعد قيام إحدى هذه اللجان ، التي يحمل أفرادها عِصيًّا وفرْد خرطوش وأسلحة بيضاء متنوعة ، كانت سيارة نقل ضخمة بدون لوحات معدنية تنتظر سيارةَ رائد التي تعرف أوصافها مسبقًا .. سيارة ماركة ميتسوبيشي لانسر لونها نبيتي ، موديل ٢٠٠٩ ، ذات لوحة معدنية برقم :

ج و – ٢٨٥

سيارة رائد تتقدّم .. تصعد مطبًّا اصطناعيًّا كبيرًا .. عينا سائق سيارة النقل تلمعان في الظلام كعيني قطة تتلمّظ فأرًا يخرج من جُحره.. تنعطف السيارة المسرِعة مع يمين الطريق ذي الإضاءة الخافتة النحيلة.. طريق ليس عليه « سرّيخ ابن يومين »!! .. محرّك السيارة النقل يدور.. يزْأر كلبؤة جائعة .. يستعدّ لفرْم السيارة اللانسر واقتناصها.. يبتلعُ السائق نيكوتين سيجارته وما

فيه من بانجو ثم ينطلق مسعورًا خلف فريسته .. وبطريقة آلية كعقارب الساعة ينقضّ فوقها.. يهرسها تحت عجلات سيارته .. يدعسها بأسفلت المقطّم ، فتعلو منها صرخةٌ مكتومةٌ قبل أنْ تخمد إلى الأبد .. استحالت اللانسر ذات اللون النبيتي إلى علبة (كانز) ضغطتها راحة يد ؛ فسالَ الدم وتفتت العظم وتهرَّأ اللحم في صمتٍ مفجعٍ كئيب !!

بعد ساعة .. وبالصدفة ..

كان بوكس الشرطة ووِنش مرور وسيارتا إسعاف في مكان الحادث .. عمّال الإسعاف يجمعون ما تبقّى من الجثّة .. انشطرت إلى نصفين .. وضعوا كلَّ نصف في كيس بلاستيكي أسود ثم أغلقوه بعد أن استخرجوا كل متعلقاتها .. ضابط برتبة نقيب يفتح دفتره لتحرير محضر بالحادثة:

« تلقّينا نحن الرائد / ..... رئيس مباحث قسم شرطة المقطّم بلاغا من الأهالي يفيد بقيام مجموعة من العناصر الإجرامية بحوزتهم أسلحة نارية بالاستيلاء على محتويات فيلا بشارع ٩ دائرة القسم ملك السيد رءوف ألفونس (مقيم خارج البلاد) وعلى الفور انتقل النقيبان: ..... و ..... معاونا المباحث ومعهما ٥ أمناء بحث و ٥ شرطي سري وبعد تعامُل القوات مع الجناة والقبض عليهم وفي أثناء مرورنا الساعة الثامنة مساءً عثرنا على سيارة لانسر مواصفاتها ..... مهشّمة بالكامل .. جارٍ التحقّق من أوراقها بمعرفة المرور .. وبها جثة مشطورة إلى نصفين لِذَكَر فقمنا باستدعاء الإسعاف وبالاطلاع على متعلقاتها وتحريزها تبيّن أن الجثة باسم : جمال زكي فاضل مواليد شبرا – حي الساحل مواليد ١٩٨٨ ويحمل بطاقة رقم قومي ..... كما عُثِر مع الجثة على

طبنجة فرْد خرطوش روسي وطلقة لذات العيار ، ومطواة قرن غزال ، وعلبة سجائر محشوّة بمخدِّر البانجو ، ومبلغ مالي قدره ٣٠٠ جنيه فقط لا غير .. تمّ نقل الجثة بمعرفة الإسعاف وتم التحفظ على المضبوطات .. تحرّر المحضر ٤٤٣٢٧ جنايات قسم شرطة المقطم .. » .

***

بعد أن تجاوز رائد حسين كمينًا شعبيًّا على طريق عرب اليسار– السيدة عائشة ، وبعد أن أبرز هوّيته لشباب الكمين أفسحوا له الطريق ثم اتّجه صوْب المقطم .. كان الطريق مظلمًا ولم تكن تعبره سيارات إلا بالكاد بالرغم من أنَّ الساعة لم تتجاوز عقاربها السابعة بعد .. ظروف البلد حكمت بذلك .. شاهد كمينا آخر يقترب منه .. أربعة شبان ملثّمون وفي أيديهم إما سِنجة أو سيف أو فرد خرطوش .. يتقدّمهم كائنٌ مسلولٌ كعصا .. تضطرمُ فيه حرارةُ الشبابِ .. قمحيّ البشرة ، مجعّد الشعر .. في جِيدِه سِلْسِلةٌ فضيةٌ غليظةٌ ، وحول معصمه النحيفِ حظّاظة ذاتِ ألوانٍ متنافرة .. كائنٌ عليه غضبُ اللّه، والملائكةُ والناسُ أجمعين ، لم يكن ذلك الكائن سوى جمال زكي فاضل!!

لم يستطع جمال المُكث بالغردقة ، تحت أعين رجال أبيه ، أكثر من ثلاثة شهور ، كان يقضي يومه ، الذي يبدأ في الثالثة عصرا بعد استيقاظه، في التسكّع بين البارات والكافيهات علَّه يصادف روسية ضاربها السلك أو إيطالية تبتغي ذكرًا أو غانية بولندية لطّختها الأصباغ تمنح جسدها وليمة لمن يعزمها على زجاجة بيرة ، ولما كانت الغردقة أنضف من الصيني بعد غسيله (..) فلا سائحين ولا سائحات ، لا أحياء ولا أموات ، ولما كانت أيامه ولياليه فيها راتبةً مملّة منزوعة الشقاوة والبلطجة على خلق اللّه .. لما كان ذلك ارتأى

أن يفرّ بجلده من رجال أبيه الذين لم يجسروا على إبلاغه بهروب ابنه من بين أيديهم .. هبط القاهرة عند بعض أصدقائه الذين وجدوا أنَّ أسرع وسيلة للمكسب السريع هي سرقة السيارات بعد تثبيت أصحابها على الطرق النائية ثم تفكيك تلك السيارات وبيعها قطعة قطعة بالاتفاق مع أصدقاء لهم في كوم السمن والجعافرة كانوا يجلبون لهم المخدرات .

قادت رائد الصدفةُ ، التي لا يؤمن بها ، إلى نجاته من نهاية بائسة بعد أن بصق جمال كلماته في وجهه وهو يشير إليه بفرد الخرطوش :

- انـزل ياروح ماما م العربية وطلّع الفلوس اللي ف جيبك والحق حُضن ماما قبل مانعمل عليك حفلة !!

هبط رائد من سيارته دون مقاومة ودسّ يده في جيب بنطلونه فاستخرج ٣٠٠ جنيه ، كانت هي كل ما معه ثم ولاهم ظهره وانصرف شاحبا بأنفاسٍ متسارعةٍ وهو يتشهّدُ على نفسه !!

وبحركةٍ سريعة ركب جمال السيارة بمفرده وأشار على أصدقائه بأن يركبوا سيارتهم الربع نقل ويتحرّكوا باتجاه مدينة نصر فيما هو يتجه ناحية المقطم على أن يتجمّعوا في الجعافرة بشبين القناطر لتقطيع السيارة وبيعها .. فقَاَد القدرُ جمال إلى حتفه البشع ، وقاد القدرُ رائد إلى نجاةٍ ما بعدها نجاة !!

في نفس اللحظة ..

كانت سياراتٌ ومدرّعاتٌ من الشرطة والجيش تتقدّمها القوات الخاصة تطوّق البيت الذي يضمّ سامح ولارا في صفط اللبن .. لم تجد القوات صعوبة

تُذكر في تطويق البيت والهجوم على من بداخله ؛ فلم يكن مع سامح سوى حارسٍ واحد يربض على كنبة بلدي قديمة بالصالة وفي يده بندقية آلية .. ولحظة اقتحام القوات البيت عاجله ضابط ملثَّم برصاصة في رجله جعلته يسقط متأوّها كثور له خـوار .

ذعر مفاجيء يلهث في صدر سامح ودهاليز نفسه فتصيبه رعشة يفقد معها الإحساس بأي شيء ، وكل شيء خلا صوت جهْوري من بعيد ، صوت يعرفه ، يطارده في أحلامه ، ينسكب على أذنيه كماء الحميم :

- « اِرْكـب .. اِرْكـب يا جبان ، مانتاش فالح يابن أمَّك » !!

أما لارا فيبين لؤلؤها النضيد بعد ابتسامة تحتضر بين شفتيها وتقول في نفسها :

- « صدَقْتَ يا أبي ؛ ربِّـي عادل .. ربِّـي عادل » .

-٣٠-

في الصباح التالي ..

ميدان فيكتوريا ..

كانت سيارات الشرطة أمام (الشركة الإسلامية للتجارة والاستيراد).. وكان زكي فاضل في الأغلال مسحوبًا مطرقًا برأسه لا ينبِس بكلمة .. فيما يتوارى علي عوض الصيدلاني خلف زجاج صيدليته حليق اللحية.. زائغ العينين .. يبتلع ريقه مغمغمًا :

- الحمد لله .. كويّس إنها جَتْ لحدّ كِدَه !!

***

مديرية أمن الجيزة ..

الساعة الحادية عشرة مساءً ..

٢٠١٣/ ٧/٥

تتوقّف أمام المديرية مدرّعة شرطة فيهبط منها رجالُ العمليات الخاصة الملثّمون مُدجّجين بأسلحتهم ومن حولهم جموع هادرة ، وإذ بسامح سعيد حسَّان يهبط من المدرّعة يرسُفُ في أصْفَادِه بهيئةٍ رثّة ، وشعرٍ مهوش بلونِ

القطن ، ووجهٍ غاضَ دمُه ، وغارتْ قسماتُه فبدَا شاحبًا مُخيفًا وسط تصفيقِ وتهليلِ الناس ، وتصويرهم إيَّاه بكاميرات تليفوناتهم المحمولة ..

في الصباح سيظهر خبر في صدر الصحف ببُنط كبير :

«القبض على سامح حسَّان في إحدى قرى الجيزة وبحوزته سلاح ناري وعملات صعبة وجواز سفر مزوّر» .

وفي الصباح التالي :

«الأمن يجهض أكبر عملية تهريب سلاح :

ضبط أربع حاويات قادمة من تركيا بها ٥٠٠٠٠ مسدس تركي الصنع ومليون طلقة ..

النائب العام يأمر بحظر النشر في قضية سامح حسان لاعتبارات تتعلّق بالأمن القومي» !!

تمَّتْ الرواية .. ولم تنتهِ الحكاية .

أحمد رمضان الديباوي

الشرقية ، نوفمبر ٢٠١٣

الأهرام

رئيس مجلس الإدارة

ممدوح الولي

www.ahram.org.eg

الأمن يجهض أكبر عملية تهريب سلاح

ضبط أربع حاويات قادمة من تركيا بها ٥٠٠٠ مسدس تركي الصنع ومليون طلقة

النائب العام يأمر بحظر النشر في قضية سامح حسان لاعتبارات تتعلق بالأمن القومي !!

المؤلف

أحمد رمضان الديباوي .. كاتب وروائي مصري.

من مواليد محافظة الشرقية في العام ١٩٧٧.

تخرج في قسم الفلسفة والعقيدة بجامعة الأزهر.

نشر العديد من المقالات السياسية والفكرية.

كان أمينًا للتثقيف والتدريب بحزب المصري الديمقراطي الاجتماعي بالشرقية.

صدر له في العام ٢٠١٢ كتابًا سياسيًّا ساخرًا تحت عنوان : باسوورد، الرئيس وأنا وبائع المانجا .

بدأ كتابة روايته (الكاهن) في شتاء العام ٢٠١٢ وانتهى من كتابتها في نوفمبر من العام ٢٠١٣.

شـكر خاص لكلٍّ من :

غادة قدري

دولا أندراوس

دكتور محمد عطية مرتضى

دكتور مهندس خالد رفعت

زكية مورتون

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..

بالفصحى , بالعامية أو حتى بالأنجليزى ..

بتحب تكتب , أو تعرف حد بيحب يكتب , كلمنا ..

هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك وتكون كاتب معروف ..

لأن فى كيان , للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :

محمول: 01005248794 – 01001872290 – 01000405450

أرضي: 0235688678

www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :

info@kayanpublishing.com

kayanpub@gmail.com

وتابعنا :

kayanpublishing

kayan.publish

kayanpubishing

kayan_publishing